محمد الغزالي



نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

الأجزاء العشرة الأخيرة

دار الشروق

نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

الأجزاء العشرة الأخيرة

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LE

محمد الغزالي

نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

الأجزاء العشرة الأخيرة

دار الشروق

مقـــدّمـــة

أثنى على الله بما هو أهله، إذ أعان على إكمال هذا الجزء الأخير من التفسير ، برغم كثرة الأسقام والأعباء ؛ فله الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه . . .

لقد قلت ـ ومازلت ـ إن هذه محاولة رائدة فى الدراسات القرآنية .

والريادة لها مخاطرها كما أن لها ثمارها المرجوّة .

وإكبارا منى للكتاب العزيز، أهيب بأهل العلم أن يتابعونى ببصر ناقد ، وأن يُهدونى عيوبى ،حتى أصلح الخطأ وأستدرك القصور . .

إن الله وضع القبول لما كتبت، وهو ولىّ الفضل . فإذا رأى أحد أن الصواب فاتنى فى موضع، فليلفت نظرى لفوره ؛ فإن الحق أحب شىء لدىّ ، وليجعل ذلك ابتغاء وجه الله . .

أما حيث يختلف العلماء وتكثر الآراء، فلى أن أختار ،ولا لوم ولاتثريب .

أشكر ربى ماتراخت منيّتى ، وبعد أن ألقاه ، تبارك اسمه ، أن جعلنى أهلا لتدبُّر كتابه واجتذاب المؤمنين إليه . .

محمد الغزالي

١٢ من ربيع الأول ١٤١٥هـ
٢٠ من أغسطس ١٩٩٤م

سورة الروم

فى تصوير العلاقة بين الإسلام والنصرانية، نلحظ : أن القرآن الكريم لم يوارب ولم يداهن فى تقرير الوحدانية ورفض التعدد. فالله واحد لم يلد ولم يولد، وهو أحد ليس مركبًا من عنصرين كما يتركب الماء مثلا من الأوكسوجين والأيدروجين . فالقول بأن الله هو الأب والابن معا مرفوض « إنما الله إله واحد »[1] .

ومقتضى ذلك أن الثانى لايكون إلها ، وكذلك الثالث بداهة . إن الثانى والثالث مخلوقان لله سبحانه « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين »[2].

وهذه الآيات من القرآن النازل بمكة ! إن الإسلام من يومه الأول حدد موقفه من قضية التثليث . . !

ومع ذلك، فقد لاحظنا من الناحية السياسية أن الإسلام كان حسن الصلة بالنصارى، وأن النبىّ عندما أوذى أصحابه أشار إليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وهى يومئذ دولة نصرانية ، فذهبوا إليها وهم يرون عيسى وأمه من عباد الله الصالحين ! !

ثم جاءت هزيمة الروم أمام المجوس، فحزن لها المسلمون وشمت فيهم عبدة الأوثان، وكانت هزيمة النصارى شديدة بعيدة المدى خسروا فيها مصر واليمن والشام ، ودفعوا غرامات مهينة من المال والحرمات . . !

ووثق أهل الأرض أن شمس الروم غربت ومستقبلهم ضاع .

والصوت الوحيد الذى كابر هذه النتائج ووقف ضدها هو صوت القرآن الكريم فى مكة . فقد أعلن فى يقين أن هذه الهزيمة عارضة وسوف تنتهى فى سنوات ! ! « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون »[3] .

---

(١) النساء : ١٧١ . (٢) الزمر : ٦٤ ـ ٦٦ (٣) الروم : ٢ ـ ٦ .

إن هذه الآيات تحدثْ واقعا عالميا ذلّ فيه النصارى وعزّ فيه المجوس ، ماشكَّ فيه أحد . ومع ذلك فإن الوحى ينزل جازما بأن هذا الواقع الصارخ سيزول فى سنين تعد على الأصابع !!

وصدقت الأيام النبوءة القرآنية . .

والغريب أن الرومان بدل أن ينوهوا بالإسلام ، قالوا : إن محمدا قال ذلك لأنه كان يكره الفرس !! ورفضوا اعتبار هذه النبوءة معجزة تشهد له بالصدق!!

ونحن أزهد الناس فى شهادتهم . . وإنما نحكى ماوقع لنشير إلى الموقف السياسى للمسلمين نحو النصارى على الإجمال . وعلة ذلك فيما نرى أن النصارى أقرب إلى اعتناق التوحيد الإسلامى من غيرهم ـ وهو ماكشفت عنه الفتوح الإسلامية ـ فقد انتصرت الفطرة ودخل الناس أفواجا فى دين الله. لقد آثرت الجماهير ترك التناقض والانسياق مع بداهة العقل، فشرحت بالإسلام صدرا واعتنقته طوعا لاقهرا . . .

إن مواثيق الفطرة سبق ذكرها فى سورة الأعراف، لكنها شرحت باستفاضة فى سورة الروم، فعلم الناس أن الإسلام هو الفطرة السليمة والطبيعة الإنسانية المستقيمة . إنه حركة العقل المتحرر من التقاليد ، الباحث عن الحق ، المتجرد عن الأهواء « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون»[1] .

والحقّ الذى تتجه إليه الأحياء فى الأرض والسماوات منزّه عن الشرك ، موصوف بالمجد والحمد تسجد له الإنس والجن والملائكة ، ولايوجد فى زوايا العالم وخباياه من ينازعه السلطة « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيًّا وحين تظهرون»[2] .

وكلمة التوحيد تُسمَّى كلمة الإخلاص لأنها خلّصت العقيدة من شوائب الشرك، وجعلت ماعدا الله عبدا له يشرف بالخضوع لذاته ويهلك لو فكر فى التمرُّد عليه!! « يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون»[3] .

وقد شاء تبارك اسمه أن يختبر الأحياء كلهم فى هذه الدنيا ، ثم بعد آجال كتبها لهم يستعيدهم ليسائلهم عما فعلوا . وحتى لا يضلوا عنه، نصب لهم الآيات الشاهدة عليه ، وبثها فى آفاق الأرض والسماء، ثم لفتنا إليها فى كتابه العزيز، فذكر ستًّا متعاقبات وسابعة مفردة قال تعالى :

١ ـ « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » .[4]

---

(١) الروم : ٣٠ (٢) الروم : ١٧ ، ١٨ . (٣) الروم : ١٩

(٤) الروم : ٢٠

٢ ـ « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (١) .

٣ ـ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » (٢) .

٤ ـ « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون»(٣).

٥ ـ « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» (٤) .

٦ ـ « ومن آيـاته أن تقـوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» (٥) .

٧ـ «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٦) .

وكل يقظان الشعور فى هذا الكون يحسّ أن القرآن تحدّث عن الله أطيب حديث وأصدقه .

وجوّ العلم الذى يخلقه القرآن يبعث على الإيمان ويقتل جراثيم الإلحاد ، ولكن هناك قوما «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»(٧) . وهؤلاء كثروا فى العصر الحاضر كثرة ظاهرة ، وعلة انتشارهم غياب الوحى الحق لعجز حَمَلتِه عن وَعْيه وتبليغه ، وسيادة فلسفات وأديان أرضية لاتشبع نهمة العقل ولا ترضى أشواق الفطرة .

النفس السوّية تعرف ربها ويشدّها إحسانه ، وتؤوب إليه إن باعدها الشيطان عنه ولكن الثمرة قد تعطب ، والجنين قد يشوهه مرض ، والناس قد تستبدّ بهم الأثرة والشقاق والذهول عن الحق. . فهل يتركهم القرآن يهلكون ؟

كلا إنه يناشدهم العودة إلى سبيل الفطرة « منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بمالديهم فرحون» (٨) .

والتفرق غريزة فى الناس أساسها إثبات الذات ومغالبة الغير ، وهو موجود بين أهل الدين وأهل الدنيا . ويقترن غالبا بالرضا عن النفس والفرح بما أوتيت !

---

(١) الروم : ٢١ . (٢) الروم : ٢٢ . (٣) الروم : ٢٣ .
(٤) الروم : ٢٤ . (٥) الروم : ٢٥ . (٦) الروم : ٤٦ .
(٧) الروم : ٧ . (٨) الروم : ٣١ـ٣٢ .

وهذا شاع بين الأولين والآخرين ولايزال . . وهو لون من الخلاف يغاير كل المغايرة الاجتهاد الإسلامى المعروف والمذاهب الفقهية التى نشأت عنه .

إن الخلاف الفقهى ليس انقسام أمة وإيقاد ضغائن . إنه وجهات نظر فى فهم قضايا فرعية أو هامشية، وأصحابها مأجورون جميعا مخطئهم ومصيبهم ! ومن حاول تحويل الخلاف إلى تحزّب وخصام فقد ضلّ . .

وعقب آيات الفطرة ،جاء حديث طويل عن فتنة السراء والضراء .فالناس قد تدنيهم الأزمات من ربّهم ، فإذا أرضاهم نسوا ماكانوا فيه وجحدوا النعمة الطارئة « وإذا مسّ الناس ضرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون »[1] . وهذه غفلة منكرة أو غدر خسيس .

ومثل ذلك أن يفرح المرء بالنعمة عنده ويألف صحبتها وينسى حقّها ، فإذا فقد الصحة أو الثروة أو نقص نصيبه منها خامره اليأس وغلبه القنوط . وذلك لأنه يحسب نفسه فقد لازمة من لوازمه ربما لاتعود ، وما درى أن العطاء والمنع من تصاريف الأقدار « وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون . أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»[2] .

والواقع أن المرء مكلف بالشكر فى السراء ، والصبر فى الضراء ، والرضا بالقضاء، ومعاملة الآخرين على أساس ما أوتى .

ولذلك قال سبحانه « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون »[3] .

وفتنة الغنى والفقر طحنت العالم منذ نشأ ،ولاتزال الرأسمالية والاشتراكية تدفعان الجماهير إلى مسالك يشوبها الغلوّ والكراهية . كلا الفريقين يحسب أن الحياة لاتصفو له إلا على أنقاض الآخر، كأن حرب الطبقات ضريبة على البشر لابد من أدائها !! « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون »[4] .

إن الأخوة المتعاونة المتراحمة التى يصنعها الإيمان هى التى تمنع ضراوة الغنى وضراعة الفقر .

---

(١) الروم : ٣٣ ـ ٣٤ .
(٢) الروم : ٣٦ ـ ٣٧ .
(٣) الروم : ٣٨ .
(٤) الروم : ٤١ .

« فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصَّدَّعُون . من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون » [١] .

وخلال الكلام عن فتنة السراء والضراء واليأس والرجاء جاء كلام عن الصراع الأبدى بين الحق والباطل ، أو بين الإيمان والكفر . فقيل للرسول وهو يبلغ دعوة الله ويعانى من العوائق التى افتعلها المشركون « ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين » [٢] .

قلت فى نفسى إن الأمة التى تنتمى إلى محمد تبلغ خمس سكان الأرض ، وتبدو فى ثراها جميع الهزائم العسكرية والثقافية والخلقية ! فما حظُّها فى هذا الدرك ؟

الواقع أن أغلب معالم الفطرة البشرية مستخفٍ فيها فلا يقين ولا وحدة ولا حضارة !وتستطيع أن توازن بين جانب مسلم من جوانب الأرض ، وجانب آخر لايعرف الله الحق ، فتجد النشاط هناك والخمول هنا !

وعندما كان المسلمون يبادون فى البوسنة أو يختطفون من أرضهم فى فلسطين، كانت هناك جماهير فى وادى النيل والمغرب تضحك ملء الفم وتبحث عن اللهو بغباء !

أهناك شعور بأخوة الدين؟ كلا ، لأن الدين نفسه غير قائم بالنفوس إلا بقايا مخدّرة شائهة . . وأمة بهذه المثابة لايكتب لها نصر .

وقد مزق الله شمل المتدينين من بنى إسرائيل قديما وسلّط عليهم عباد الأوثان ، لأن التدين الفاسد ليس جديرا بالنصر !على أن الأيام دول ، وعندما يصلح المسلمون شئونهم يقترب منهم النصر البعيد . .

إن أمتنا تمثل فى العالم الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولاينصر الله هذه الخلال .

وقد جاءت فى هذه السورة آية أحسبها تؤكد أن الإسلام باق إلى آخر الدهر ، وأن بقاءه لامحالة بأمة تعتنقه وتفتديه « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون » [٣] .

إن هذه الآية تومئ إلى أن أمتنا لن تزول ، وأن كبوتها إلى حين ، ونحن نعلم أننا آخر الرسالات وآخر الأمم ، وليس بعدنا إلا قيام الساعة فهل نلم شملنا ونستأنف سيرنا ونستعيد أمجادنا ؟

لعل ذلك يكون نهاية المطاف ، وهو ما يشير إليه آخر السورة « فاصبر إن وعد الله حق ولايستخفنك الذين لايوقنون » [٤] .

والصبر هنا على العمل الذى يعقب الثمر ، وعلى الجهاد الذى يعقب النصر .

---

(١) الروم : ٤٣ ـ ٤٤ (٢) الروم : ٤٧ . (٣) الروم : ٥٦ .
(٤) الروم : ٦٠ .

سورة لقمان

بدأت سورة لقمان بذكر المحسنين والأجزية المعدّة لهم ، ثم ذكرت المجرمين وما يشغبون به على الإسلام « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين »(١) .

والتحقيق أن المقصود به النضر بن الحارث ، وكان يشترى كتبا فيها أخبار ملوك الفرس ويقصّ منها على قريش فى أسمارها ومجالسها ، ويقول : هذا خير مما يتلوه عليكم محمد ! ولو قصّ الرجل فصول «ألف ليلة . . . . » كلها ما فعل شيئا غير اللغو واللهو !

ويرى بعض المفسرين أن الآية نازلة فى الغناء . وماكان قبيحا من الغناء فهو مذموم ، وكل حديث يصرف عن الحق ويشغل عن مطالبه فهو باطل .

وقد أكدت الآيات جزاء المحسنين مرة أخرى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم »(٢) .

وذكرت الخالق الكبير بما هو أهل له من مجد وثناء ، وتساءلت عن الشركاء المزعومين : من هم؟ وأين ما خلقوا ؟ إن هذيان المشركين يشبه لغط المحموم لاوزن له ولا رأى فيه !

وقد ساقت السورة هذه المعانى كلها بأسلوب آخر فى وسطها بدءا من قوله تعالى « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور »(٣) .

وكما وعدت المحسنين بالخير توعدت المجرمين بالشر: « ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا . . »(٤) .

ثم أطالت الحديث بعد ذلك عن عظمة الله الذى أخلص المحسنون له ، فبيّنت أن كلماته فى تصريف شئون العباد لاتنتهى . إنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض خلقا ورزقا وإحياء وإماتة ورفعا وخفضا . والأمر يتصل بخمسة مليارات من الخلق ، وآلاف لأضعاف من الحيوان والنبات

---

(١) لقمان : ٦ . (٢) لقمان : ٨ـ٩ . (٣) لقمان : ٢٢ .
(٤) لقمان : ٢٣ .

وآلاف الأضعاف من الملائكة . وهذه الألوف المؤلفة من الكواكب السابحة فى الفضاء ، ما أحسبها كالبيوت الخالية فى أرضنا . إننا لاندرى مافيها ومن فيها « ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » (١) .

هل هذا الكمّ الهائل يعجزه أو يعييه ؟ كلا « ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير » (٢) .

إن الذين يعبدون الله ، كأنهم يرونه إذ يرون آثاره ، جديرون بالثناء لأنهم شاموا أنوار الحقيقة ، وعرفوا عظمة الخالق من عظمة الخلق .

وسورة لقمان نُسبت إلى الحكيم الذى ذكرت قصته فيها . وقد ورد أن قريشا سألت عنه النبى ﷺ تريد أن تعرف خبره ، فقصّ عليها وصيته ، وهى وصية حافلة بالخير. ولقمان الحكيم أبصر بالحقيقة من حكماء اليونان الذين اشتهرت أسماؤهم ، ففلسفتهم فكر غامض ونظرات خيالية . أما لقمان فقد لخص الحق الخالد فى منهج وجيز وأخذ به ابنه ، وتركه تراثا نبيلا .

يبدو أن الإنسان يستثقل شكر الجميل الذى يُسْدى إليه ، ويريد أن تخدمه عناصر الكون وهو بارد المشاعر قليل الاكتراث ! ! كثير من الناس تصنع لهم الخير ، فيأخذونه متلهفين ثم يولون الأدبار دون كلمة شكر . . ! ! وهم يعاملون ربهم بهذا الكنود ، وتصطبغ حياتهم بهذه البلادة التى قد تأباها بعض الحيوانات . . « إن الإنسان لربه لكنود » (٣) .

وأساس العلاقة بالله شكره على نعمتَىْ الإيجاد والإمداد .

ولذلك جاء فى أول الوصية للقمان « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد » (٤) . إن الله مستغن عن العباد ، فإذا شكر عبد جَداه فقد دلّ على وعى نبيل وفَتح باب الزيادة ، وإلا فماضرَّ إلا نفسه !

وقد بدأت وصية لقمان لابنه بمعرفة الله الواحد « يابنىَّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» (٥) .

وأعقبت الوصاة للوالدين عقيدة التوحيد ، لأنهما بعد الله سرّ وجوده . .

والغريب أن الحضارة العالمية المعاصرة لاتكترث للأبوين ، وتودعهما فى شيخوختهما بعض

---

(١) لقمان : ٢٧ . (٢) لقمان : ٢٨ . (٣) العاديات : ٦ .
(٤) لقمان : ١٢ . (٥) لقمان : ١٣ .

الملاجئ حتى يقضيا مستوحشيْن . وليس ذلك بكثير على حضارة تكره ذكر الله وتضيق بحقوقه !

ومن نصائح لقمان لابنه « يابنى أقم الصلاة وأمُرْ بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على مآ أصابك إن ذلك من عزم الأمور »(١) .

إلى أن يقول له « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير»(٢). والوصية كلها باقة من العقائد الجليلة والأخلاق الكريمة ، وقد ذكرها القرآن الكريم لننتفع بما فيها من حكمة ، إذ الحكمة ضالَّة المؤمن .

وقد أعقبها بما يؤكد عاطفة الشكر ، فقال « ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير »(٣) .

وبعد أن شرح حق الله فى تجويد العبادة ، قال« ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبّار شكور »(٤) .

وختمت سورة لقمان بتقرير المسئولية البشرية المستقلة . « لايجزى والدعن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا »(٥) .

والواقع أن الإنسان صانع مستقبله ، إن نجا فبحسناته ، وإن هلك فبسيئاته « وإن تدع مثقلة إلى حملها لايُحمل منه شيء ولو كان ذا قربى »(٦) .

ثم نفت السورة أن يكون للكهنة والراجمين بالغيب أى علم بالغيوب « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . . »(٧) .

والتنبؤات الجوية ليست علما بالغيب، بل هى استنتاجات مظنونة من بعض المظاهر الكونية القريبة والبعيدة . وكذلك الكشف بالأشعة على مافى البطن لمعرفة نوع الجنين . إن ذلك شيء غير الإحاطة التامة بمعرفة ماتحمل كل أنثى من البشر والدواب والطيور على امتداد الزمان والمكان .

---

(١) لقمان :١٧ . (٢) لقمان : ١٩ . (٣) لقمان : ٢٠ .
(٤) لقمان :٣١ . (٥) لقمان: ٣٣ . (٦) فاطر : ١٨ .
(٧) لقمان : ٣٤ .

سورة السجدة

سورة السجدة مكية ، أفادت فى صدرها ميلاد الأمة الإسلامية فى التاريخ العام . فإن هذا القرآن النازل يقينا من عند الله جاء إلى أمة لم يكن لها إلف بالوحى ، فصاغها فى قالب جديد وحملها رسالة عالمية !! « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » (١) .

كانت هناك رسالات محلية قديمة فى بعض القبائل والشعوب ، انتهت فى مكانها أو زمانها . أما الرسالة التى تحرك بها العرب أجمعون وغيروا بها وجه العالم ، فهى رسالة محمد ﷺ .

وناسب هنا وصف الله الذى أسدى هذا الصنيع « الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولاشفيع . . . » (٢) ولما كان خالق هذا العالم الرحب هو مدبّر أمره فى لمح البصر على سعة أرجائه ، فقد احتاج ذلك إلى شرح .

إن الأرض تلفّ حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة ، وتلف حول الشمس خلال ٣٦٥ يوما . والشمس وأسرتها تجرى فى مدار حاشد بالنجوم . والمجرات السابحة فى الفضاء لاندرى إلا القليل من شئونها . والضوء يقطع المسافة بين الأرض والشمس فى بضع دقائق !

ماهذا الملكوت الضخم ؟

إن إدارة شئونه تحتاج بمقايسنا الزمنية إلى أزمنة بعيدة إلى ألف عام أو أكثر ، لكنها فى عمل الخالق الكبير لاتستغرق زمانا يذكر . ما المدة التى تستغرقها العين فى نظر المرئيات ؟ لا شىء !

إن الله يريد فيفعل ، فإذا فى دنيانا محو وإثبات ووجود وموات وهزائم وانتصارات . . إلخ .

« يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » (٣) .

والأمة الإسلامية التى ظهرت فى تاريخ العالم لها خصائص تميزها عن أمم أخرى ! فهى أول كل شىء توحّد الله وتخصّه بالأسماء الحسنى وترفع عملها إليه على عكس الحضارة

---

(١) السجدة : ٣ . (٢) السجدة : ٤ . (٣) السجدة : ٥ ـ ٦ .

الحديثة التى جفت فيها منابع الرَّبانية فلا تعبد إلا نفسها ، ثم هى تذكر اليوم الآخر وتستعد له .
أما الناس الآن فهم يَطْرُدون ذكر هذا اليوم عن نفوسهم « وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون » (١) .

وسيندمون غدا على هذا الإلحاد « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون» (٢) . وهيهات، لقد انتهى أوان البذر وجاء أوان الحصاد . . ولن يفلح إلا من قدّم الإيمان والعمل الصالح .

ومن خصائص أمتنا أنها تقيم الصلوات سحابة النهار وبعض الليل ، وأن فيهامن « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » (٣) . . إن الليل موطن الجريمة والمتع الحرام فى المدنية الحديثة ، ولا مكان للصلاة فى أعمال النهار .

فهل يستوى الفريقان ؟ « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون »(٤) .

والنظام الإسلامى للزمن يظهر فى قوله تعالى « وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا »(٥) . فلابد من عمل ولابد من راحة ، ولا يجوز نسيان الله فى الحالين .

« إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (٦) .

ومشكلة البشرية الآن ليست ترك الصلاة فقط ،بل رسم الخطط لإضاعتها « أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلّى ، أرأيت إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى » (٧) .

وقد ووجه المسلمون قديما بجمهرة من الماديين الغلاظ يحتقرون العبادة ولايتصوّرون جوّها ، وهم اليوم يواجهون الصنف نفسه مستكبرًا برقيِّه الصناعى وتفوقه العسكرى . ويجب علينا أن نصبر على هذه المواجهة، وندفع ثمنها « ومن أظلم ممن ذكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون» (٨) .

ثم ذكّر الله نبيه محمدا بأن المرسلين من قبله لقوا العنت وتحمّلوا الشدائد ، فليصبر كما صبروا «ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » (٩) .

---

(١) السجدة : ١٠ . (٢) السجدة : ١٢ . (٣) السجدة : ١٦ .
(٤) السجدة : ١٨ . (٥) النبأ : ٩ ـ ١١ . (٦) النساء : ١٠٣ .
(٧) العلق : ٩ ـ ١٢ . (٨) السجدة : ٢٢ . (٩) السجدة : ٢٣ـ٢٤ .

والمعنى أن القيادة لاتتم لأهلها إلا إذا جمعوا بين الصبر واليقين . وهل كان إبراهيم إماما للناس إلا لأنه اختبر فنجح ؟ ومن طلب عظيما خاطر بعظيمته .

وقد قيل لنبيّنا إنه ملاقٍ موسى حتما ، فهل لقيه بعد الموت أو لقيه قبل ذلك ليلة الإسراء ؟ ليكن هذا أو ذاك فإن موعد اللقاء الجامع حق.

وقال ابن عاشور فى تفسيره إن اللقاء هنا الجهاد ، وكأن الله يقول لنبيه : كما كابد موسى كيد فرعون وعوج قومه ، ستلقى مالقى من خصومك ومن قومك . . . لكن العاقبة للتقوى والنصر للمؤمنين ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ [1]؟

والواقع أن المسلمين فى هذه الأيام يقع عليهم حيف رهيب ، ومن يسمع مآسيهم فى البلقان والهند تغلبه الحسرات . .

لقد طويت أحكام القرآن وشعائره وشرائعه وأهيل عليها التراب والقلة المكافحة تجد من خصومها الازدراء والإهانة ، ولكن الأمل فى الله باق يحكم بين عباده بالحق .

﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ [2] .

---

(١) السجدة : ٢٦.　　(٢) السجدة : ٢٨ ـ ٣٠ .

سورة الأحزاب

تضمنت سورة الأحزاب خمسة نداءات للنبى عليه الصلاة والسلام بصفته هادى الأمة وقائدها، وبعد كل نداء ذكر المطلوب منه لتنفيذه فيما يخصّه وفيما يعنى الأمة كلها . .

(١) أول هذه النداءات « يأيها النبىّ اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »[١] .

والأمر والنهى المتجهان إلى رسول الله ﷺ هما زيادة تثبيت له كما تقول للمحلّق لاتكسل ، وللمتفوّق لاتتراخ ! فهو مافرط فى تقوى ، ولاهادن الكفر والنفاق ، ولا اتبع إلا الوحى النازل عليه . ومن أسمائه المتوكل ؛ فإذا أمر بالتوكل فهو ا ستدامة للحال التى عرف بها بين الناس .

على أن هناك شيئا يتصل به ومطلوب منه أن يغيّره، هو علاقته بزيد بن حارثة الذى تبنّاه فى الجاهلية على عادة القوم . فلما جاء الإسلام رفض التبنّى جملة وتفصيلا ، وقال الله تعالى :« ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »[٢] .

فماذا نفعل فيما تم من عقود التبنى ؟ « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم . . »[٣] . الأب الطبيعى أحقّ بابنه ، فإذا لم نعرفه قامت أخوة الإسلام مكان العلاقة المفقودة ، فنحن نؤاخى اللقيط ونواليه ولانتركه ضائعا فى المجتمع .

وقد أساء المسلمون فى تطبيق ذلك إساءة يؤاخذهم الله بها !! فافتتح الأجانب ملاجئ تربى فيها اللقطاء على غير الملة . وهذه فضيحة يلحقنا عارها .

وبعد تقرير هذا الحكم، جاء تعظيم العلاقة الدينية وتقديمها على وشائج القربى الأخرى «النبىُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . وأزواجه أمهاتهم . . . »[٤] .

فمحمد عليه الصلاة والسلام الوالد الروحى لهذه الأمة ، وهو أحرص الناس على هداها

---

(١) الأحزاب : ١ ـ ٣ . (٢) الأحزاب : ٤ . (٣) الأحزاب : ٥ .
(٤) الأحزاب : ٦ .

ونجاتها ، وهو رمز الإسلام الذى أخرجها من الظلمات إلى النور . وعلى أساس ذلك، قال رسول الله : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرءأوا إن شئتم « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته مَنْ كانوا . ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه » [1] ! !

وقبل نزول هذه الآية كان النبىُّ عليه الصلاة والسلام يتحرج من الصلاة على المدين إذا مات ولم يترك وفاء لدينه . ثم تغير الحكم بعد مافتح الله عليه ونزلت هذه الآية ، فأمسى يتحمل ديون الموتى الفقراء ، ويكفل اليتامى الضائعين . . ! !

وكما اعتبر النبىّ أبا للمؤمنين اعتبرت زوجاته أمهات للمؤمنين ، لهن مكانة الأم فى البر والحرمة . وتبعا لذلك ، حرم الزواج منهن أبدًا . إنهن راويات للوحى ومعلمات للأمة ، ومنهن تؤخذ الأسوة الحسنة . . وسبب حرمة الزواج منهن أنهن الأمهات

(٢) والنداء الثانى فى هذه السورة « يأيها النبىّ قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا» [2] .

إن بيت النبوة غير بيت الملك . إنه بيت يكتفى بأيسر الزاد ، ولا مكان فيه للشهوات المطاعة واللذات الميسَّرة .

وقد كان الرسول ﷺ خارجا من سلطان بطنه ، ولا مجال فى حياته للاستكثار من أطايب الطعام ومرفهات العيش ، لكن زوجاته جئن من بيوت سيادة وثراء ولم يألفن فى حياتهن الأولى إلا رغد العيش ، ولذلك سرعان ما اجتمعن ضده يطلبن نفقة أوسع ومتاعا أرغد ! ! فجاء الوحى يصادر هذا كله .

إن البيت النبوى يقوم على الكفاف ، ولو كان رب البيت سيد الجزيرة وإمام الناس! يجب أن يحملن معه أعباء منصبه ، ويشتغلن بالصلاة والجهاد وطلب الآخرة . يستحيل أن يحاصر الكفار الأمة الإسلامية ، ويحملوها على الهجرة والشظف ، ويكون بيت النبىّ بمنجاة من هذا البلاء . إما الرضا بهذا العيش وإما طلاق الجميع ! فاخترن . . !« وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما» [3] .

وقد اختارت أمهات المؤمنين عيش الكفاف على ترك بيت النبوة ، واستحققن شرف الصحبة الكريمة . .

ولاشك أن الشغب على حياة الرسول إثم كبير يُضاعف عذابه كما أن الرضا بأعباء الصحبة

---

(١) الحديث . (٢) الأحزاب : ٢٨ . (٣) الأحزاب :٢٩.

الكريمة مرتبة تستحق التقدير المضاعف . إن البيت النبوى يصدِّر للمجتمع الوحى والتبتل والكفاح ، ونساؤه أمهات المؤمنين فى هذا المضمار . .

(٣) والنداء الثالث فى السورة « يأيها النبىُّ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »[1] ليست قبل محمد نبوة عامة للبشر كلهم ! كان كل نبى يرسل إلى قومه خاصة . أما الشمس التى طلعت على الكون أجمع فهى شمس النبوة الخاتمة .

ومن هنا كان القرآن الكريم أساس الرسالة ومعجزتها معا . . القرآن خطاب لكل إنسان حتى تقوم الساعة ، وطبيعة هذا الخطاب تشهد بأنه من عند الله وحده ، فلا أثر لمحمد فيه إلا التلقّى والبلاغ والأسوة الحسنة .

وإذا كان محمد شاهدا على قومه بأنه أبلغهم ، فإن أمته شاهدة على الناس أجمعين بهذا الكتاب المبين ! ! فهل أدى المسلمون وظيفتهم تلك ؟

أما الأوائل ، فقد قرعوا بالإسلام سمع الدنيا ، وشرحوه بعملهم شرحا حسنا . . لكن المسلمين سرعان ما سرت فى كيانهم عدوى الأمم البائدة ، وهم الآن يختزنون هدايات السماء فى بلادهم التى سادتها الفوضى وعاث فيها الإهمال . . ! ! ويمكن القول بأنهم عوائق ضد دينهم وصادّون عنه ! وتبليغ رسالة محمد ﷺ يحتاج اليوم إلى عبقريات علمية تحسن العرض ، وبطولات عسكرية تحسن الدفاع . ولايصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله . .

(٤) والنداء الرابع فى سورة الأحزاب يتضمن الطبقات التى تختار منها أمهات المؤمنين . فليست كل امرأة تصلح أن تكون زوجة لعظيم . الكريم يحتاج إلى كريمة لاتحتاج أن يقول لها .

ذرينى فإن الشُّحَّ يا أم مالك   لصالح أخلاق الرجال سروق !

أو يقول كما قال حاتم لامرأته :

أماوىَّ إن المال غادٍ ورائحٌ   وتبقى من المال الأحاديثُ والذكر ! !

يجب أن تعين المرأة زوجها فيما كلّف به . فإذا لم تكن عونا له فلا تكن عبئا عليه ! !

وقد عانى نوح ولوط من زوجتيهما الكثير .

والحق أن أمهات المؤمنين كنّ عابدات قانتات وكن نعم الصويحبات له فى الدنيا والآخرة .

---

(١) الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦ .

قال تعالى : « يأيها النبيُّ إنا أحللنا لك أزواجك اللاَّتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبيُّ أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . . »(١) .

والمعروف أن للمسلم أن يتزوج بأربع لايزيد . وقد أسلم رجل ولديه عشر زوجات ، فأمره النبىّ بإمساك أربع وتسريح الباقيات .

قد تقول فلماذا لم يطبق ذلك على نفسه ؟ والجواب أنه بعدما اخترنه على أهلهن وآثرن البقاء معه على شظف العيش مايسوغ ترك إحداهن! ثم ماذا تفعل من يسرِّحها ؟ إن زواجها بغيره مستحيل لحرمة أمهات المؤمنين على سائر الأمة ! فالحل أن يبقين ، ولو كان من بينهن العجائز !

ثم قيل للرسول عقب هذا الوضع « لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا» (٢) .

والتعدد نظام قد يقبل مع شرف الأخلاق وتباين الطبائع والحاجة إلى الذرية ، وقد عرف فى سِيَر الأنبياء . وأشعر بريبة فيما ذكرته التوراة من أنه كان لسليمان ألف امرأة ، وأحسب ذلك من المجازفات . . ! وليس للحضارة المعاصرة أن تخوض فى هذه القضية ! فإن التعدد فيها كلأ مباح ، وربما استطاع الصعلوك أن ينال أكثر مما نال سليمان سفاحا لا نكاحا . .

(٥) أما النداء الأخير فهو قوله تعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما» (٣) . وقد شرحت الآية اللاحقة السبب فى هذا التوجيه !

كان فى المدينة فتيان سوء يتسكعون فى الطرقات ابتغاء الريبة ، فإذا وجدوا امرأة مهملة فى حجابها أو متبذِّلة فى ثيابها ، طمعوا فيها . فأُمرتْ المؤمنات بالاحتشام الكامل ، وألا يتركن لهبوب الريح أو سرعة السير فرصة لبعد الملابس عن الجسم . وبذلك التصوُّن يصددْن الرغبات الجامحة ، ويحمين أنفسهن من السفلة . ثم قيل لهؤلاء الفاحشين : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » (١) .

---

(١) الأحزاب : ٥٠ . (٢) الأحزاب : ٥٢ . (٣) الأحزاب : ٥٩ .

والحق أن المدنيّة الحديثة يَسَّرت الفتن للقريب والبعيد والراغب والعازف . والمحور الذى تدور عليه حياكة الملابس هو الإغراء الحرام ، ولا مكان هنالك لتقوى القلوب .

ومع النداءات الموجهة للرسول ﷺ وجهت ستة نداءات للمؤمنين .

يتناول أولها الموقف عند هجوم الأحزاب على المدينة . كان موقفا شديد الحرج ، فإن جموع الكفار أقبلت من أطراف الجزيرة يبغون اقتحامها ، وساعدتهم فلول المنافقين واليهود داخلها ، ووقع المسلمون بين شقّىْ الرحى يكافحون للنجاة وهم فى هذا البحر الطامى كالمشرف على الغرق «إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » (٢) . وتساند المسلمون وراء الخندق الذى حفروه ، وهم يجرون يمينا أو يسارا لسدّ الثغرات وإعانة المواقع المهدَّدة . ولولا صدق الصلة بالله لعجز المدافعون عن الصمود . إنهم لم يرتاعوا ويفقدوا رباطتهم بل كانوا كما قال الله « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا»(٣) .

إن منطق أصحاب العقائد غير منطق طلاب المنافع .

والحق أن المدافعين عن المدينة حرسوا حدودها وأحكموا الذود عنها ، فلم تلحْ ثغرة لراصد !!

أما المهاجمون فقد خامرهم اليأس وهم يدورون حول المدينة لايجدون منفذا ، ثم هبت عليهم رياح نكباء أطارت خيامهم وأكفأت قدورهم وأيأستهم من المقام ، فقرروا الرحيل « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا » (٤) .

وكان تعقيب النبى ﷺ على ماحدث «الحمد لله وحده صدق وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » (٥) . وشعر المشركون بعد معركة الأحزاب أن المدينة لاتُنال !! فلم يفكروا فى غزوها ، واكتفوا من الغنيمة بالإياب .

والنداء الثانى للمؤمنين فى هذه السورة « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبّحوه بكرة وأصيلا» (٦) . وأرى أن هذا النداء للجماعة قبل أن يكون للأفراد . فالأمة الإسلامية صاحبة رسالة

---

(١) الأحزاب : ٦٠ ـ ٦١ .
(٢) الأحزاب : ١٠ ـ ١١ .
(٣) الأحزاب ٢٢ ـ ٢٣ .
(٤) الأحزاب : ٢٥ .
(٥) حديث شريف .
(٦) الأحزاب : ٤١ ـ ٤٢ .

عالمية يجب أن تنتصب حارسة لها ومدافعة عنها . وهذه الرسالة تقوم على الانتهاء إلى الله ، وإعلاء شعائره واليقين بلقائه . وهذه معان لاتعرف الآن فى أمة من الأمم ؛ فالقاسم المشترك لأنشطتها جميعا : رفع مستوى المعيشة ، وتجميل هذه الحياة الدنيا ؛ أما الكلام عن الآخرة فلغو أو هزل ! وقد فشلت الأديان القديمة فى تعريف الناس بالله والإعداد للقائه . . وشملت الدنيا عبادة التراب !!

وعندما ترفع أمتنا راية عبادة الله ، تكون أهلا لقوله بعدئذ « هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما » . [1] إن صلاة الله وملائكته إنما تكون لأمة تذكر الله وتُذكّر به وتجعل ذلك وظيفتها . وقد ارتفع المسلمون إلى هذا المستوى قرونا كانوا فيها الأمة الأولى فى العالم ، ثم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فهم الآن فى مواطئ الأقدام . .

والنداء الثالث حكم فقهى فرعى « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أنِ تمسّوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها . . »[2]. وأصول الأحكام وفروعها سواء فى وجوب الطاعة ، مادام النص بها قائما . .

أما النداء الرابع ، فهو لتنظيم الدخول فى البيت النبوىّ . إن سواد المؤمنين يحبون رسول الله أكثر مما يحبون أنفسهم ، وقد يحملهم ذلك على التكاثر عنده . ثم هناك مَنْ لديه فراغ يحار كيف يقضيه ! ومن يحبون التسلية أو مقاربة العظماء . وقد استدعى ذلك هذا الإرشاد الحكيم :

« يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبىّ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادْخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث . . » [3] . وهذا تنظيم مأنوس فى بيوت الكبار ، وقد تكون ذات أجنحة شتى ! أما بيوت النبىّ فهى غرف محدودة الطول والعرض، ملحقة بالمسجد !! فما بد من تنظيم زيارتها . .

والمؤسف أن من ذوى اللكاعة من رأى إحدى أمهات المؤمنين ، فقال إذا مات محمد تزوجتها !! أفلا يُـحْمىَ البيت الكريم من مسالك هؤلاء الرعاع ؟

لذلك شرع نظام الحجاب « . . . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما »[4] .

---

(١) الأحزاب : ٤٣ . (٢) الأحزاب : ٤٩ . (٣) الأحزاب : ٥٣ .
(٤) الأحزاب : ٥٣ .

إن المرأة داخل بيتها تتخفّفُ من ثيابها ولاتتكلف زِيًّا معينا ، فلا يجوز لأحد أن يقتحم عليها حصنها ولا للأعين أن تسترق النظر إليها .

ولإيذاء الرسول صور شتى يألفها المنافقون ومرضى القلوب ، ولعل أخطر هذه الصور ماحدث عند حصار المدينة .

« قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد . . » (١) .

ومن هؤلاء متتبعو العورات فى شوارع المدينة ومبتغو الريبة فى الناس . . وقد قال الله لرسوله فى شأن هؤلاء « ولاتطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله »(٢) . وقال فى الحكم عليهم « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذابا مهينا . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير مااكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا »(٣) .

ولما كان السيل حربا للمكان العالى ، ولما كان أشراف الناس غرضا للسفهاء ، فقد حُذِّر المؤمنون من هذه المسالك .

وجاء النداء الخامس يحمى أعراض الأنبياء وسيرتهم من تطاول الرعاع « يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » (٤) .

وتأكد ذلك فى النداء السادس « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم . . . » (٥) .

وخلال السرد لما يتعرض له النبىّ الكريم من صنوف الأذى جاءت هذه البشرى العالية تسوق له العزاء والتأييد ، والرفعة والتسديد : إنه فى كلاءة الله وحمايته « إن الله وملائكته يصلون على النبىّ يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (٦) .

ثم ختمت سورة الأحزاب بخلاصة وجيزة عن عمل البشر على ظهر الأرض . إنهم تميزوا على غيرهم بحرية الإرادة ، وبالتكليف الذى يميز الأخيار والأشرار. إنهم ليسوا دواب محكومة بغرائزها الدنيا ، ولا أرواحا محكومة بخصائصها العليا . إنهم جنس خاص يستطيع التسامى والإسفاف ، يستطيع أن يتجه يمينا إلى الجنة أو يسارا إلى النار . وأمانة التكليف حملها الإنسان ، وهو يستطيع الوفاء بحقوق الله وحقوق الناس ، كما يستطيع خيانتها والعبث بها .

---

(١) الأحزاب : ١٨ ـ ١٩ . (٢) الأحزاب : ٤٨ . (٣) الأحزاب : ٥٧ ـ ٥٨ .
(٤) الأحزاب : ٦٩ . (٥) الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١ . (٦) الأحزاب : ٥٦ .

وهذا ما أشارت إليه الآية :

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا »[1] . والآية تمثيل لما عرض على البشر من تكاليف ، ترجح بها موازين وتطيش أخرى .

(١) الأحزاب : ٧٢.

سُورَةُ سَبَأٍ

سورة « سبأ » رابعة السور المبدوءة بحمد الله . والحمد كما قلنا ثناء وشكر وتمجيد لله تعالى ؛ فهو مالك السموات والأرض ومافيهما ، وحصاد هذه الدنيا راجع إليه يبتّ فيه بعدله ورحمته. وهو صاحب العلم الشامل المحيط « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منهاوماينزل من السماء ومايعرج فيها » (١) . إنه يعرف كل بذرة توضع فى أعماق التربة وكل ثمرة تخرج ، وكل قطرة تنزل من السماء وكل خفقة ريح تصعد إليها . إن أرجاء الكون صفحة واحدة أمامه لايخفى منها شيء. وعندما تثور عاصفة ترابية ، فهو يعلم حركة كل ذرة ، واندفاعها إلى أعلى أو أدنى ، وأين تستقر!

وعندما تثور عاصفة حرارية فى وجه الشمس، فهو يعلم أين تهيج ومتى تهبط ،وأثر ذلك فى أنحاء الأثير وعالم الكهرباء والأصوات !

على أن هناك عروجا للأرواح والملائكة ، ووجودا آخر موارًا بالحياة لاندرى عنه إلا قليلا . . «عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » (٢) .

وسورة « سبأ » تشبه سورة الفرقان فى أنها استعرضت شبهات الكفار ، ووردت عليها واحدة واحدة .

وأول هذه الشبهات عند كفرة اليوم والأمس استبعاد القيامة « وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم . . »(٣) . والحق أن استبعاد البعث غباء شديد . فما يمنع الخالق أن يعيد الخلق ؟ هل عجز عنه أولا حتى يعجز عنه أخيرا ؟ ومتى أفلت الناس من أصابع القدرة ؟ إن الله يُنيمهم ويوقظهم ويجيعهم ويشبعهم كل يوم. ولكن العقل الإنسانى قد يعمى عن البديهيات . . !!

إن البعث حق ، ليعرف المختلفون هنا حقيقة مادار بينهم من خلاف ، ويلقى كل امرئ جزاءه .

---

(١) سبأ : ٢ . (٢) سبأ : ٣ . (٣) : سبأ ٣ .

نعم، سيلقى المحسن الإحسان ويلقى المسئ الإساءة. وسيعلم أهل الكتاب الذين كابروا محمدا وكذبوا أتباعه أنهم كذبوا على الله وخاصموا رسالة كان يَنْبغى أن يتعاونوا معها ويستريحوا إليها . .

وتكذيب الآخرة جريمة شاعت بين الأولين والآخرين . والناس فى عالمنا المعاصر لايلقون بالا للحديث عن الآخرة ، ولايبدون اهتماما إلا للحياة المحسوسة ، وذاك ناشئ من جهلهم بالله وعبادتهم لأنفسهم .

ولذلك كررت السورة شبهة منكرى البعث ، واستغرابهم لحديث الرسول عنه « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جِنَّةٌ بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » (١) .

الدلالة على رجل يؤمن بالبعث ويحذر منه مدعاة للعجب ! هذا منطق الكفر كما أبانته أوائل السورة ، ثم تكرر مرة ثالثة فى أواخرها « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لماجاءهم إن هذا إلا سحر مبين » (٢) .

وندع مؤقتا الاسترسال مع هذا الحوار لنذكر قصتين تتصلان به :

الأولى قصة النبى داود الذى اشتغل بصناعات الحديد !

إن التدين الجاهل يحسب التخلُّف فى الدنيا أمارة على التقدم فى الآخرة . وهذا فهم منكر؛ فإن الدخول إلى الإيمان يكون من باب العلم الحاذق ، لا من باب القصور البليد . وهذا ماشرحته الآيات فى قصة داود ، وما نلفت إليه أنظار الأمم الغفيرة التى انتمت إلى الإسلام وعاشت تتسول الصناعات من خصومه ، فكانت عارا على دينها . . .

« ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوِّبى معه والطير وألَنّا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدّر فى السّرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير » (٣) .

وداود جمع فى سيرته بين عملين متباعدين : التغنى بآلاء الله وأمجاده بصوت رخيم كانت الطيور ترجع صداه وتشارك فى مزاميره ، والمهارة فى الصناعات العسكرية والمدنية التى تحوّل الحديد إلى سيوف ورماح ودروع و إلى أوان شتى من جفان وقدور . . !!

إن الفقه فى الدنيا جزء من العقل الذى يفقه الآخرة ، ولن يستطيع نصرة الإيمان أبله ولاقاعد. وعندما تحوّل المسلمون إلى عالم ثالث أو رابع ، نال منهم خصومهم ، وأمسوا معرّة لدينهم !!

---

(١) سبأ : ٧ـ٨.	(٢) سبأ : ٤٣ .	(٣) : سبأ : ١٠ـ١١ .

ويظهر أن التماثيل لم تكن محرمة فى شريعة سليمان بن داود، ومن ثم صنعها . على أنها لما اتخذت أوثانا من دون الله حرم الإسلام نحتها . ونحن مع بقاء تحريمها لأن البشر نزاعون إلى الوثنية مهما كثرت علومهم ، والأوثان فى بعض الكنائس مزار للابتهال ، ولذلك جرَّد الإنجيليون كنائسهم منها .[1]

ولقد كان داود وسليمان أنبياء ملوكا ماشغلتهم سلطة عن واجبات العبودية ، ولذلك جاء فى الآية « . . . اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور»[2] . تلك هى القصة الأولى فى السورة .

أما القصة الثانية فعن « سبأ » وذراريه : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور »[3]. وسنذكر خبرهم إن شاء الله .

آفة الأكثرين من الناس أنهم يحسبون الغنى دليل الرضوان الأعلى ، وأن المال إذا قلّ عند آخرين فلأنهم ليسوا موضع القبول ! ونسوا أن الله يختبر بالعطاء والحرمان : بالبأساء والضراء حينا، والنعماء والسراء حينا آخر . . وأن النجاح فى هذا الاختبار يجىء من موقف المرء نفسه بإزاء مايلقى من أقدار الله « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »[4] .

وقد سقطت « سبأ » فى الامتحان عندما استهانت بنعمة الله وكفرتْها « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور »[5]؟

« ألم تر إلى الذين بدَّلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوار »[6]؟

وعندما تزول النعمة تذهب الوحدة والصحة والأمَنَة ، وتجىء أضداد هذه الأحوال وأصحابها لها أهل ، ومانزل بهم عدل لأنهم « ظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »[7] .

وأبرزت سورة سبأ أن الساقطين فى امتحان النعماء كثيرون ، وأن أمما بطرت معيشتها ، فكان أول مافعلت : مخاصمة الوحى، ومعاداة الرسل، والزعم بأن مالديهم يكفى ويشفى !!

« وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين »[8] .وإذا كان المال فتنة الأمم الأولى، فقد بقى فتنة الأمم

---

(١) وهم طائفة المذهب البروتستانت ـ أتباع مارتن لوثر.
(٢) سبأ : ١٣ . (٣) : سبأ : ١٥ . (٤) الأنبياء : ٣٥ .
(٥) سبأ : ١٧ . (٦) إبراهيم : ٢٨ . (٧) سبأ : ١٩ .
(٨) سبأ : ٣٤ـ٣٥ .

المعاصرة . وبدل أن يحسن الواجدون التصرّف فيما أوتوا ، طغوا على الفقراء والضعفاء ، فنشأت مذاهب اجتماعية تستأصل حق التملك ، ونشبت الحروب بين شتى الطبقات .

وعند التأمل ، نجد العراك على الحطام الفانى ، ونرى أن معالم الدين قد اختفت ، وزادت الآفاق ظلمة ، ونشأت فلسفات تعبد الحياة وتنسى الآخرة . . ولانجاة إلا بالعودة إلى الدين الحق . «ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين . وماكان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ »[(١)] .

وبعد هذه القصص والإفادة من سردها، استأنف النظم الكريم سرد شبهات الجاهليين للقضاء عليها . وهنا نرى لونا من أدب الجدال لانظير له ! يتنزل فيه عارض الحق إلى مستوى خصمه ، ويناشده أن يعى وأن يقبل الصواب « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »[(٢)] .

مَن الجدير بالعبادة : الرازق أم المرزوق؟

إن آلهتكم أحجار لاتعى ! فكيف يلتمس لديها رزق ؟

أحدنا يخطئ لامحالة ! ترى من يكون ؟

وبعد إرخاء العنان للخصم على هذا النحو، زادالمشركين تخجيلا عندما قال « قل لاتسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم . . »[(٣)] .

وجاء فى هذه السورة حوار بين الرؤساء والأتباع ، وهو حوار تكرر فى سور كثيرة ليكشف العلاقة الرخيصة بين بعض الناس وبعض آخر . هناك من يحبون لفَّ الناس حولهم ، وخفق الأقدام وراءهم على نحو ما قال الشاعر :

ترى الناس إن سرنا يسيرون حولنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقَّفوا

وهناك من يعشق أن يكون ذيلا ، ولا يحسن إلا الجرى وراء الكبراء . . وتعمل عناصر الغنى والفقر والقوة والضعف عملها فى إحكام الخطط التى ينفذها هؤلاء جميعا . وتلمح مثلا لذلك فى علاقة السحرة بفرعون « فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذًا لمن المقربين »[(٤)] .

وقد تفرست فى مسيرة الأحزاب المناوئة للإيمان قديما وحديثا . فوجدتها تتحرك على هذا المحور. إغراء الطمع ونداء الحاجة !!

---

(١) سبأ : ٢٠ ـ ٢١ . (٢) سبأ : ٢٤ . (٣) : سبأ ٢٥ ـ ٢٦ .
(٤) الشعراء : ٤١ ـ ٤٢ .

وتكشف السورة هنا هذه الخبايا فى ذلك الخطاب المتبادل : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين»(١) . ولكن الحوار لايطول لأن خزنة جهنم تحسم الموقف !

وفى ختام السورة يأمر الله نبيه أن يكشف عن طبيعة الرسالة الإسلامية ، وهو يجادل الكفار وينسف شبهاتهم « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » (٢).

إن التفكير الواعى العميق أساس هذه الرسالة ، سواء فكَّر المرء وحده أم استعان بأصدقائه المهم أن يستيقظ العقل النائم فيرى آيات ربه فى آفاق العالم الذى يعيش فيه ، ومحمد عليه الصلاة والسلام مرسل الصيحة التى تنبه الفكر الخامل ، وترشد الشعوب التائهة . وما فعل ذلك طلبا لجاه أو مال . إنه تحمَّل العَنَتَ ، وبذل نفسه دون رسالته وفاء للحق وفناء فيه .

« قل ماسألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلاّ على الله وهو على كل شىء شهيد» (٣).

إن الصادِّين عن الحق اليوم سوف يؤمنون به عندما تتحقق نذره ، ويواجه المشركونماينكرون: «ولو ترى إذ فَزعوا فلا فَوتَ وأخذوا من مكان قريب » (٤) . أى لايبذل جهد فى القبض عليهم. «وقالوا آمنا به وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد» (٥) لقد آمنوا بعد فوات الأوان ، وانتهاء الامتحان، وظهور النتائج . . . ولو عقلوا لعرفوا الله واتبعوا المرسلين !

---

(١) سبأ : ٣١_٣٢. (٢) سبأ : ٤٦ . (٣) : سبأ : ٤٧ .
(٤) سبأ : ٥١ . (٥) سبأ : ٥٢ .

سورة فاطر

سورة فاطر آخر السور المبدوءات بحمد الله . وإسناد الحمد لله من الباقيات الصالحات ، وهو شائع فى أثناء السور وخواتيمها . ومن أولى من الله بالحمد فى الأولى والآخرة ؟

« الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع . . . »(١) .

الفاطر الخالق والملائكة أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة ، شأنهم الخير والطاعة والعلم والقدرة على الأعمال الشاقة ، ومسكنهم السموات . هكذا قال صاحب المقاصد . وظاهر أنهم ينفذون مراد الله فى مخلوقاته ، فهناك ملائكة للموت ، وأخرى للحياة والولادة ، وأخرى للإحصاء والرقابة . وقدراتهم التى زوّدهم الله بها متفاوتة تفاوتا بعيدا .

والآية هنا تجعل الأجنحة مثنى وثلاث ورباع . وفى السنة تكون الأجنحة مئات حينا ، وألوفا حيناآخر !!

« يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شىء قدير »(٢) .

وسورة فاطر تشبه سورة النحل فى أنها إحصاء للنعم ، وبيان فضل الله على خلقه فى طورى الإيجاد والإمداد . وقد بدأت بهذا القانون القاطع « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم »(٣) .

والبشر أحوج أهل الأرض إلى معرفة هذا القانون ، فهم يحسبون منابع الخيرات تسيل بعيدا عن الله ، وهم يتوهمون قوة فى الأصفار التى لاوجود لها ، وهم يضطربون يمنة ويسرة بمشاعر رعناء !

فما نقول فيمن يخشى حمامة ويجرؤ على الأسد ؟! أهذا صاحب عقل ؟

ولذلك جاءت الآية عقب هذا القانون « يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون »(٤) .

---

(١) فاطر : ١ . (٢) فاطر : ١ . (٣) فاطر : ١ .
(٤) فاطر : ٢ .

مَنْ غير الله مصدر النعم ؟من المُفضل على عباده بما يثلج صدورهم ؟

فى الحديث الشريف « اللهم ما أصبح بى من نعمة ، أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لاشريك ،لك فلك الحمد ولك الشكر » (١) .

إن الإيمان لا يتم إلا بهذا الشعور الغامر ، الشعور بأن مَنْ « له ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم» . (٢) هو ولىّ النعم وسائق الخيرات . . .

إن شيوع الشرك بين الناس مصدره موت هذه العقيدة مما جعل الناس يهابون الذباب وينسون ربّ الأرباب . وهل يعربد الجبارون فى الأرض إلا لفراغ الأفئدة من هذا الإيمان ؟

ومن ثم تكرر نداء الناس مرة ثانية ليلتفتوا إلى هذه البديهية « يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » (٣) .

إن الله ألهم محمدا هذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهو يتلوه على الناس ليرشدوا فمن استجاب نجا « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور » (٤) وقد رفض المشركون عقيدة التوحيد والبعث ، ولقى الرسول من قومه عنادا وخصومة ، فقيل له مرة أخرى :

« وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير. ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير » (٥) .

لكن هذا الأخذ لايتم على عجل ، فإن الله يمهل العباد أمدا قد يطول ، حتى يصحى النائم ويعقل الأحمق . « ولو يؤاخذ الله الناس بماكسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا» (٦) . يعلم من استفاد من الإمهال فتاب ، ومن اغترّ به فهوى .

وقد كشفت الآيات قبل ذلك أن هناك من يحسب الإمهال إهمالا، فلا يزيده الصبر الإلَهى إلا عمى عن الطريق : « أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون »(٧) .

---

(١) حديث شريف .
(٢) الأنعام : ١٣ . (٣) فاطر : ٥ـ٦ . (٤) فاطر : ٤ .
(٥) فاطر : ٢٥ـ٢٦ . (٦) فاطر : ٤٥ . (٧) فاطر : ٨ .

لقد كان النبى شديد الأسى لكفر من كفر إنه يبذل جهده تذكرة وتبصرة ، ولكن لايهلك على الله إلا هالك كره الحق وآثر الغىّ .

ومن هنا جاء النداء الثالث والأخير فى هذه السورة « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد. إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وماذلك على الله بعزيز »[١] .

إن الله لايعزّ عليه شىء، فهو قدير على محو العالم بما فيه ومن فيه ، والإتيان بعالم آخر أزكى وأتقى . . !

وأمام الناس خيار بين الجور والعدل ، بين الذل والعز ، بين الوفاء لله والغدر بعهده « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور »[٢] .

وتمضى السورة تكشف طورى الإيجاد والإمداد ، فالله مرسل الريح تثير السحب، وهو منشئ البحرين : هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج .

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا . . . »[٣] .

ومع ذلك فأعداد من الناس تنطلق فى دروب الحياة كالكلاب الضالّة لاتعرف لها ربا ولا تؤدى له حقا ، ولاتزال تائهة حتى يخترمها طلق نارى ينتهى بعده تشرُّدها وتمرُّدها .

يكاد الإجماع ينعقد بين الخبراء بالأديان على أن الإسلام قام على الفكر فى الكون والبصر بالحياة، وأنه دعوة حارة إلى التأمل فى العالم وتدّبر آياته وقواه وكشف أسراره وقوانينه .

إن التفكر فى ذات الله مستحيل، فلم يبق سبيل إلى معرفة عظمته إلا من متابعة آياته فى مخلوقاته، وهى دليل لايكذب على علمه وقدرته وجلاله وجماله. إنه على مسافة خطوات محدودة من الأرض ترى زروعا مختلفة الطعوم والألوان والروائح تخرج جميعا من طينة واحدة ، فإذا رفعت عينك إلى السماء وجدت شمسا ساطعة وقمرا منيرا ونجوما مبعثرة فى الآفاق على أبعاد سحيقة تدل على عالم ضخم فخم . .

وليس هذا كله إلا أثر رب كبير . ومن هذا المنطلق ،تتلو قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور »[٤] .

---

(١) فاطر : ١٥ـ١٧ . (٢) فاطر : ١٠ . (٣) فاطر : ١١ .
(٤) فاطر : ٢٧ـ٢٨ .

وسياق الآية ظاهر فى أن المقصود بالعلماء هنا علماء النبات والحيوان وعلماء طبقات الأرض ، وعلماء الفيزياء والكيمياء، فضلا عن علماء الطب والهندسة والفلك . لقد تتبعنا أقوال هؤلاء وسمعنا حديثهم عن الله تبارك وتعالى ، فإذا هم يذكرون عظيما أهلا للتحميد والتمجيد ، والإفراد بالعبودية .

وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد . . .

وعلى هذا المحور تدور معانى القرآن. فالإيمان وليد عقل ذكىّ باحث ، والدين ليس إلا عقلا مؤمنا وقلبا استقرت إلى الله وجهته ! وقد حملت الأمة الإسلامية حقائق الدين فى إطار هذا المعنى ، وطلب منها أن تمثله بين الناس. قال تعالى :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير » (1) .

وقد سبق العرب غيرهم فى حمل رسالات الله إلى الناس ، وكان بنو إسرائيل آخر الأجناس التى بلغت الوحى ، ولكن أثرتهم غلبتهم ، فاستغلّوا الوحى لخدمة شهواتهم ودعم غرورهم ، فغضب الله عليهم وصرف عنهم الوحى إلى آخر الدهر . واختار العرب لأداء هذه الأمانة !!

وقد بينت الآية هنا أن العرب انقسموا ثلاث فرق ، فرقة ظالمة لنفسها بالعصيان والتفريط ، وفرقة مقتصدة تكتفى بما تيسر لها من صالحات وقد تخلطه ببعض السيئات ، وفرقة أسلمت لله وجهها، وأسرعت فى مرضاته فسبقت سبقا بعيدا .

والحق أن قيمة أية أمة والحكم عليها يتبعان الجو السائد، ويرجعان إلى غلبة إحدى هذه الفرق على صاحبتيها !! والأمر خطير إذا كانت كثرة الأمة من الظالمين لأنفسهم أو من المقتصدين . .

إن العقاب الإلّهى يكون شديدا ، وقد تخسر الأمة كلها العناصر التى رجحت كفتها ، وأورثتها فضل الاختيار ، فهل يعى المسلمون هذا ؟

وهل نستطيع نحن المسلمين تربية أنفسنا وإبلاغ رسالتنا إذاجئنا إلى هذه الآية ومايشبهها فقلنا: « أمة محمد أورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يُغفر له ، ومقتصدهم يُحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»(2)، كما روى عن ابن عباس! إن شيوع هذه المجازفات

(1) فاطر : ٣٢ .

(2) حديث شريف .

أفسد العوام ! وجعل المسلمين آخر الأمم حضارة وجدوى ! ونحن نستصحب هذا الشعور المرير عندما نقرأ قوله تعالى بعد ذلك « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ولايحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا» (١) . لقد تكرر هذا المعنى ثلاث مرات فى القرآن الكريم ، هنا فى فاطر وفى سورة الأنعام وفى سورة الصافات . والمراد فى المواضع كلها التنديد بعرب الجاهلية الذين ذهبوا بأنفسهم ، وازدروا أهل الكتاب الأولين ، وقالوا لو أن لنا كتابا لكنا أهدى منهم ، فها قد جاءكم كتاب، فماذا فعلتم به ؟ أشهد أن سلفنا الصالح طوّفوا بالوحى الآفاق ، وكانوا بسيرتهم وخلائقهم نماذج تُغْرى باعتناقه، لكن العرب سرعان ماغلبتهم طبائعهم النزقة ؛ فانحرفوا عن صراط الله ، واستهانوا بوصايا القرآن وأغرقوا فى طاعة هواهم . ونسمع الآن منهم فخرا بقوميتهم ، ونرى انسلاخا عن الميراث الذى اصطفاهم الله له ، فما يرقبون بعد هذه الرِّدَّة ؟ إن علاقة الناس بالله أساسها ولاؤهم له أو تمردهم عليه، ولذلك يقول محذرا « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وماكان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا» (٢) .

ألا ليت العرب يعلمون .

---

(١) فاطر : ٤٢ ـ ٤٣ . (٢) فاطر : ٤٤ .

سورة يس

« يس »[1] حرفان من حروف الهجاء ، وليسا اسما للنبىّ عليه الصلاة والسلام. والقَسَم التالى «والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين »[2] ، قَسَمٌ بقوة البرهان على صدق الرسالة ! فإن الدليل الصحيح ينطق بصحة الدعوى .

وهذا القرآن معجزة شاهدة بأن محمدًا حق ، وأنه مرسل من لدن الله بكتاب مستقيم الهداية منزه عن الافتعال والانحراف « تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون»[3] .

والمعجزات المادية لاترتفع إلى مستوى الإنارة العقلية . والذين ورثوا العكوف على الأصنام لاتفطمهم عن عبادتها عصا موسى ولاطب عيسى ، وإنما يشفيهم من عماهم كتاب يحرك عقولهم، ويزيح عنها الأوهام على شرط أن يتحركوا ويعوا . وهناك ناس يعيشون فى عالم السدود والقيود سجناء وراء جدران لايرون فيها شيئا « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحون»[4] .

والمقمح من استقر القيد تحت ذقنه، فاعوجَّ رأسه إلى فوق فما يحسن الرؤية « وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لايبصرون»[5] .

والتقليد الأعمى يخلق أجيالا من هذا النوع المتحجِّر لايصلح بشىء !! ولاتجدى معه النذر «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم»[6] .

وسورة يس ـ وتسمَّى قلب القرآن ـ يمكن أن نقول إنها مكونة من مقدمة وثلاثة فصول :

أما المقدمة ، فهى ـ كما رأيت ـ حديث عن القرآن ومستمعيه ، ورادِّيه أو مؤيديه .

وأما الفصول الثلاثة ، فهى أدلة منوَّعة على صدق مادعا إليه .

أولها دليل تاريخى تضمن قصة موجزة عن قرية تشبه مكة ، ناوأت المرسلين وضاقت بالوحى .

وثانيها دليل عقلى فتح الأنظار على الكون علوه وسفله ، واكتشف من نظامه وانسجامه ، مايدل على عظمة خالقه .

---

(1) يس : ١ .
(2) يس : ٢ـ٣ .
(3) يس : ٥ـ٦ .
(4) يس : ٨ .
(5) يس : ٩ .
(6) يس : ١١ .

والدليل الثالث تربوى يأخذ من حقيقة البعث والجزاء مايكبح الغرائز ويزيح الغفلة ، ويسوق النفوس إلى الحق بمشاعر الرغبة والرهبة .

من المقدمة والأدلة الثلاثة تتكون سورة يس ومادعت إليه من توحيد الله، والتأمل فى ملكوته والاستعداد للقائه للخلود فى جواره . .

ويبدأ الدليل الأول بقوله تعالى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . . »[1] . ولايعنينا اسم القرية ، وإنما يعنينا ماوقع فيها من أحداث .

إن أعداء المرسلين يحسبونهم جاءوا لاستلاب سلطانهم وأخذ مابأيديهم ولذلك سرعان ماتبرّموا بهم وتهدّدوهم وتشاءموا من مقدمهم « إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسَّنَّكُم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون »[2] . ومنذ نوح وأعداء الأنبياء يحسبونهم طلاب رياسة ، ويظنون دعوتهم شَرَكاً لمآرب خاصة .

ولذلك قالوا لهم ماقيل لنوح « مانراك إلا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين»[3] .

لكن الله يخلق رجالا يعشقون الحقيقة ، ويضحون من أجلها ويعانون فى سبيلها ،كما قال شوقى :

إن الذى خلق الحقيقة علقما لم يُخل من أهل الحقيقة جيلا

وفى هذه القرية أقبل رجل من بعيد ينصح الناس مؤكدا أمرين .

١ ـ أن الرسل ناس متجردون لاينشدون جاها ولا مالا .

٢ ـ وأن الله الذى يدعون إليه هو الحق المبين، وماعداه وَهْم لاوجود له ، يضر ولا ينفع .

« ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون »[4] .

لكن هذا الناصح الأمين فشل فى إقناع الضالين . ولم تذكر القصة أقتل أم مات، لكنه بعدما انتقل إلى ربه ، ورأى ما أعدّ له من كرامة ، قال حزينا على حالهم « ياليت قومى يعلمون بما غفرلى ربى وجعلنى من المكرمين »[5] .

---

(١) يس :١٣ . (٢) يس : ١٨ ـ ١٩ . (٣) هود : ٢٧ .
(٤) يس : ٢٠ ـ ٢٢ . (٥) يس : ٢٦ ـ ٢٧ .

وأنَّى لقومه أن يثوبوا إلى رشدهم ؟ فماذا حَدث ؟ هل عبَّأت السماء قواها لتعاقبهم على كفرهم؟أمرهم من ذلك أهون : « وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وماكنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون »(١) .

إن غرور الناس فاجع العقبى ، ومايلقون به الرسل من إهانة وتكذيب فادح الثمن . وتشتد العقوبة مع كبر الجريمة ، ولذلك قال جل شأنه : « ياحسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروْا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون»(٢) .

إن مستقبل الحضارة التى تظلنا مقلق ، لأنها ترفض ذكر الله ، وتنسى الإعداد للقائه ، وهى تبحث عن حتفها بظلفها .

فى الفصل الثانى من السورة المباركة سورة يسٓ نجد بضعه أدلة على عظمة الله واستحقاقه كل كمال .

أول هذه الأدلة قوله جل شأنه « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون»(٣) .

إننا نعطى الأرض أسوأ مالدينا وتعطينا أحسن ماعندها ! ويقول الفلاحون إن أجود البطيخ ماكان سماده خرء الحمام ! وفضلات البشر تساق إلى الحقول، فإذا هى تنتج كيزان الذرة وسنابل القمح ، وعيدان القطن والكتان ، وصنوفا لاحصر لها من الفواكه والثمار .

من الذى أخرج من الحمأ المسنون هذه الخيرات السنيَّة؟ « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون»(٤)!

ونصعد من الأرض إلى السماء فى إطلالة خاطفة على نظامها الفلكىّ ! إن الظلام يسود أرجاء الكون ، وأشعة الشمس تتحول إلى ملاءة بيضاء عندما تستقبلها الأرض . فاذا جمع الله الأشعة عادت الظلمة الأولى . ولذلك جاء التعبير عن الليل والنهار بهذه الألفاظ « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون »(٥) .

وربما بدا للناس أن الشمس والقمر فى مدار واحد. وهذا خطأ ، فلكليهما مداره، ولن يلتقيا ، وإنى أتصوّر أحيانا هذه الكواكب، فأتساءل: مايمسكها فى فضائها؟مايدفعها فى مجراها وبأى طاقة تسير؟من أحكم، نظمها وهى ألوف الألوف، فضبط مكانها وزمانها وشروقها وغروبها ؟

---

(١) يس : ٢٨ـ٢٩ . (٢) يس : ٣٠ـ٣١ . (٣) يس : ٣٣ـ٣٤ .
(٤) يس : ٣٦ . (٥) يس : ٣٧ .

ونحن البشر فى زاوية من الكون الكبير نرقب آيات ربنا ، ومنا المؤمن ومنا الكافر !

نعود مرة أخرى إلى الأرض لنرمق البحار ومايسبح فيها من جوارٍ كالأعلام، ونتلو قوله تعالى : «وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله مايركبون » (١) !!

إن البحر أكبر من البرّ أربع مرات ، وعالمه أوسع مساحة من عالمنا ، وقد عرفنا أن للأجسام الطافية فيه قانونا مضبوطا، فهى تجرى أو تغوص بقدر، وعندما يتعرض الناس لأخطاره فلا مغيث لهم إلا الله ، فهل يذكرون ذلك عندما يأمنون ؟

هذه الأدلة الثلاثة السابقة تبعتها أدلة أخرى فى نهايات السورة مثل قوله تعالى « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون» (٢).

إننى أنظر إلى الجزارين فى الأسواق قد علّقوا فى دكاكينهم قطعانا من الغنم والبقر . . وأرى الألوف تلتهمها ، وهى لاتدرى شيئا عمن سخّرها !! ماهذه الغفلة عن الله . . ؟

والفصل الأخير من تفسير السورة يتضمن حديثا عن البعث والجزاء ، وهما من عمد التربية الدينية ، ولكن الحضارة الحديثة تغفلهما وتستهجن الحديث عنهما ، وتخيل للناس أن مصيرهم لايعدو مصاير الدواب النافقة ، لاحسّ ولاحساب .

ويبدو أنه كما تجىء المنيّة بغتة، تقوم الساعة بغتة دون ترقّب من الناس أو محاذرة !!

وهذا ما تشير إليه الآيات : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يَخِصّمون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون» (٣) . أى أنها تقع وهم مشغولون فى أسواقهم ومجامعهم، كما ذكر الحديث « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبا بينهما فلايتبايعانه ولايطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها . . . » (٤).

ووقوع الساعة على هذا النحو لايعطى فرصة لعمل شىء ولا التوصية بشىء ، ثم ينشر العباد إلى ربهم للحساب بعد أن تهمد كل حركة على ظهر الأرض ، ويواجه الناس ماقدموا . . .

« فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون» (٥) .

---

(١) يس : ٤١ـ ٤٢ . (٢) يس : ٧١ـ ٧٢ . (٣) يس : ٤٨ـ ٥٠ .

(٤) حديث شريف . (٥) يس : ٥١ ـ ٥٢ .

وفى الآيات وصف رائق لأهل الجنة يشرح ماينعمون به ويُحبرون فيه .

أما أهل النار فيسمعون التبكيت على ما أسلفوا « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألاَّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم. ولقد أضلّ منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . . »[1]؟

ومع أن أساس هذا الفصل هو البعث والجزاء، فقد حَوَى معانى أخرى من دلائل العظمة الإلّهية ، ومظاهر النعمة التى خُصَّ بها بنو آدم .

ثم عاد الكلام مرة ثانية إلى أدلة البعث فى صورة حوار طريف « وضرب لنا مثلا ونسى خَلْقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم»[2] .

إن الذى بدأ الخلق أولا لايعييه أن يعيد الخلق كرة أخرى !!

ثم لفت القرآن نظرنا إلى حقيقة علمية فى عناصر الكون . إننا نتنفس فنأخذ من الهواء «الأوكسيجين» ثم نرده « كربونا » ، ويتنفس النبات فيأخذ الكربون ويرسل « الأوكسيجين» . ويتراكم غاز الكربون الذى يأخذه النبات ويتجمد فى كيانه جذوعا وأغصانا وأوراقا ، لاتلبث أن تكون حطبا محترقا « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون »[3] .

إن هذه الوظائف الطبيعية من آيات الله الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . وهذا السلوك ظاهر فى النبات الذى يخرج من التربة حيا وسط عناصرها مدة « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون »[4] .

---

(١) يس : ٦٠_٦٢ . (٢) يس : ٧٨_٧٩ . (٣) يس : ٨٠.

(٤) يس : ٨٣ .

سورة الصافات

« والصافات صفًّا فالزاجرات زجرًا فالتاليات ذكراً »[١] .

هذا وصف لموكب الوحى وهو نازل على قلب خاتم الرسل يقوده جبريل الأمين وتحفّه الملائكة الكرام . . وهو قسم لتوكيد الحقيقة الكبرى فى هذا الوحى : وحدانية الله سبحانه .

ومع أن جبريل هو المسئول عن الوحى ، فإن ملائكة كثيرين تنزل معه تشريفا للرسالة وتنويها بخطرها « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون»[٢] . وهى إلى جانب ذلك تطرد الشياطين المتطفلة على أخبار الوحى ليبتعدوا عن مساره!

ويبدأ الذكر من عند الرحمن تبارك اسمه كما جاء فى الحديث « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها ، خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ـ أى يسمع لخفق أجنحتها صوت كصلصلة الحديد على الحجر ! « حتى إذا فُزّع عنْ قلوبهم» ـ ذهبت الرهبة ـ «قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلىّ الكبير »[٣] .

وَوُصف الإله الواحد بأنه « رب السموات والأرض ومابينهما ورب المشارق» [٤] . أى مطالع الشمس ، وهى تختلف زمانا ومكانا فى فصول السنة الأربعة .

وقد تضمن صدر السورة حقيقتين :الأولى التوحيد والأخرى البعث ، وكلتاهما مرفوضة للمشركين « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون»[٥]؟

وتكذيب الحقيقة لايجدى ، فالحق فارض نفسه حتما . وفى تقرير الجزاء الأخير يرسم القرآن صورتين من مشاهد القيامة ، ويعجل بعرضهما فى الدنيا لعل المنكرين يعتبرون « وقفوهم إنهم مسئولون . مالكم لاتناصرون . بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين »[٦] .

---

(١) الصافات : ١ ـ ٣. (٢) النحل : ٢ . (٣) سبأ : ٢٣ .
(٤) الصافات : ٥ (٥) الصافات : ٣٥ـ٣٦ . (٦) الصافات : ٢٤ـ٢٩ .

إن السادة والأتباع يتخاصمون فى الآخرة ، ويرمى كل منهم بالتبعة على الآخر . يقول الضعاف خدعتمونا بقوتكم وسلطتكم ، ويقول السادة لهم بل كنتم أغبياء لاتبصرون الحق ! فتحملوا مسئوليتكم معنا . . « فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين » (١).

تلك هى الصورة الأولى .

أما الثانية ، فترى ملامحها فى قوله تعالى : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إنى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين » (٢) .

والمنظر مألوف فى دنيا الناس ، يحاول كل صديق أن يجر صاحبه إلى مذهبه . ولولا أن المؤمن كان قويا لانزلق وضاع ، ولذلك يقول وهو يرى صاحبه فى وسط النار « ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون» (٣) .

والتعجيل بمشهد من عالم الغيب يتدبره الناس فى عالم الشهادة مألوف فى القرآن الكريم ، وقد سبق مثل ذلك فى سورة الأعراف على نطاق واسع .

وإنك لترى هنا الفرحة بالنجاة تغمر أعطاف الرجل المؤمن ، بعدما أنقذه إيمانه من عاقبة السوء التى التهمت صاحبه . إنه فى الجنة يمرح فى نعيمها مع إخوانه ، لكنه يتذكر رجلا كان ينكر الله واليوم الآخر ويريد أن يتعرف حاله ، فلما رآه تضاعف شعوره بما هو فيه من نجاة ونعماء .

ثم يقول الحق « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين» (٤) .

وشجرة الزقوم جاء ذكرها فى عدة مواضع ، فى الواقعة عند قوله تعالى : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم» (٥) .

وفى الدخان فى قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم» (٦) .

وفى الإسراء « . . . والشجرةَ المعلونةَ فى القرآن » (٧) .

قيل إنها من أشجار الصحارى ، تظهر بالأماكن المجدبة كريهة الرائحة صغيرة الورق مسمومة ذات لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورّم ومات منه غالبا . . وهذا من باب التمثيل . فإن أشجار

---

(١) الصافات : ٣٣ـ٣٤. (٢) الصافات : ٥٠ـ٥٦ . (٣) الصافات : ٥٧ـ٦١ .
(٤) الصافات : ٦٢ـ٦٥ . (٥) الواقعة : ٥١ـ٥٢ . (٦) الدخان : ٤٣ـ٤٦ .
(٧) الإسراء : ٦٠ .

جهنم لن تكون ذات نضرة وظلّ وجنى طيب ، بل ستكون خبيثة المطعم والمنظر على نحو مايتسامع الناس به من شجر البوادى . والواقع أن الشجر المعجب عندما ييبس مايصلح إلا حطبا . ومن عجائب قدرة الله أن تجعل الأغصان والأوراق والجذوع مخازن للوقود ، وأن تجعل من الشجر الأخضر نارا . .

وقد جعل الله شجر الزقوم طعام أهل النار ! « فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوْبًا من حميم »[1] .

لم هذا العذاب الأليم ؟

« إنهم ألْفَوْا آباءهم ضالّين . فهم على آثارهم يهرعون»[2] .

إن التقليد الأعمى والسير وراء ما خلَّف الآباء من أعراف ومبادئ وراء هذا العذاب الموجع . والحقيقة أن أغلب الناس يلتزمون مواريثهم على مابها ، ويهاجمون مايخالفها من دعوات ونظم ولايفكرون فى موازنة ولاتمحيص ، وقد يقتلون معارضيهم تعصبا وظلما ، أو ينتصبون لمشاكستهم والقضاء على أفكارهم « ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين»[3] .

فى وسط سورة الصافات ذكْر لستٍّ رسالات ساقها الوحى إلى النبى عليه الصلاة والسلام تسلية له وتثبيتا لفؤاده .

أول المرسلين نوح وهو أول أولى العزم ، وقد تحمل فى ذات الله بلاء طويلا ؛ وإبراهيم وهو الذى سمانا المسلمين من قبل ، ووضع أصول الفطرة ؛ وموسى وهو صاحب الكتاب الذى قدم الدين عقيدة وشريعة ودينا ودولة ، وفيه من رسالة محمد شبه . وهؤلاء الثلاثة أصول ، تفرع منهم ثلاثة آخرون :

لوط على ملة إبراهيم ، وهو ابن أخيه .

وإلياس ويونس وهما من أنبياء بنى إسرائيل ، وكتابهما التوراة التى نزلت على موسى . .

ومن اللطيف أن قصة نوح هنا تبدأ من نهايتها ! فقد ظل يدعو قومه تسعة قرون ونصفا فلا يجد إلا الصدود والضيق ، فلما شعر بالهزيمة صاح : رب إنى مغلوب فانتصر ، فجاءته النجدة!

والقصة فى سورة الصافات تبدأ من هذا الدعاء « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين»[4] .

---

(١) الصافات : ٦٦ ـ ٦٧ . (٢) الصافات : ٦٩ ـ ٧٠ . (٣) الصافات : ٧١ ـ ٧٣ .
(٤) الصافات : ٧٥ ـ ٧٩ .

والمقصود أن الله خلّد لنوح الذكر الحسن ، وقال له بعدما أهلك أعداءه « اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك »[1] .

وقد شرحنا أن نوحا كان رسولا لقومه ، وأن الطوفان الذى أهلكهم محلىّ ، فلا صلة لمصر وفارس به ، بله أوروبا وإفريقيا وغيرهما !

أما إبراهيم فقد نهض بعقيدة التوحيد التى جاهد من أجلها نوح ، وساق الأدلة لقومه على خطئهم فى عبادة الأصنام، وبدأ الحديث عن كفاحه بقوله تعالى : « فنظر نظرة فى النجوم. فقال إنى سقيم . فتولّوا عنه مُدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لاتنطقون »[2] .

والآية تحكى أنه فكر فى عمل يبطل به هذه الوثنية، فتظاهر بالمرض فتركوه وحده، فذهب إلى الأصنام فى مَجْمعها وجعلها حطاما « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون»[3] . وجعل الفأس فى عنق الصنم الكبير لينسب إليه أنه هو الذى هشم إخوانه من الآلهة !!

وظاهر أن إبراهيم مثّل هذه الخطة ليفضح بها غباء قومه وسوء رأيهم فى عبادة أخشاب أو أحجار لاتملك لنفسها شيئا !! وعندما يسخر إبراهيم من قومه فيقول لهم : إن كبير الآلهة ارتكب هذه الفعلة ، فهو لايكذب بداهة ، وإنما يبكت ويؤدّب .

وما رُوى من أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات فى هذه القصة وغيرها ، فهو عجز فى الرأى وحمق فى الفهم. وقد بدأ أهل الكتاب بهذه الأوهام، ثم تسللت إلى مَرْويّاتنا ، وهى مستبعدة عند المحققين . فإبراهيم أشرف من أن يكذب ، والقصة المروية عنه لاتتحمل هذا اللغو !!

ولعل أروع مافى سيرة إبراهيم موقفه من ابنه وموقف ابنه منه . لقد رزق به على كبر وبعد دعاء. فلما شَبَّ وأضحى غلاما وقرّتْ به عينه، أوحى الله إليه أن يذبحه قربانا إليه !! « فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى »[4] .

ما حال هذا الشيخ وهو يكلَّف بذبح ابنه أحب أهل الأرض إليه بعد مافرح به وأمّل الخير فى صحبته ؟

إنه لو فجعه أحد فيه لقتله الغمّ، فكيف وهو الذى يكلّف بالإجهاز عليه ؟

ولكن إبراهيم عبد الله ورسوله وخليله ، وهو لايعرف الحياة إلا فى رضاه، ومايستطيع أن يعصى له أمرا مهما كان شاقا ، فحدث ابنه بما كان ، وكان غلاما صالحا لايقل عن أبيه يقينا وصدقا «قال

(١) هود : ٤٨ . (٢) الصافات : ٨٨ ـ ٩٢ . (٣) الأنبياء : ٥٨ .
(٤) الصافات : ١٠٢ .

يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» [1] !!

سلم الأب فى ابنه وسلم الابن فى نفسه . وعندما بدأ التنفيذ ووضع السكين على العنق، جاءت النجدة ونزل الفداء « وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين» [2] !

والقصة شاهد على أن الاختبار الإلّهى للبشر جادٌّ وطويل ، وأن الإيمان ليس لغوا على الألسنة ولكنه صبر وتسليم . .

ونتجاوز القصص الأخرى فى السورة لنقف عند قوله تعالى: « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون» [3] ؟ إن هذا ثانى أمر بالاستفتاء .

أما الأمر الأول « فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب» [4] . وهذا الاستفتاء بعد حديث استعرض آفاق الكون ومشارقه ومغاربه، مبينا سعة الملكوت وعظمة الخالق . وظاهر أن فكرة الألوهية عند المشركين كانت هزيلة ضيقة ، فما قدروا الله حق قدره ، بل جعلوه فى ضعف أبى البنات !!

وكان أحدهم يعاف أن تولد له بنت ، فيئدها ، ومع ذلك فهو يجعل الملائكة إناثا وينسبهن إلى الله . . . « أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون» [5] .

إن الله ليس له أولاد لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة ، كما أنه ليس هناك إله للخير وإله للشر « إنما هو إله واحد » [6] . والزعم بأن إلّه الشر أخ لإلّه الخير كذب ، ولاتشيع هذه الخرافات إلا بين الضالين .

وقد كان العرب يزعمون أنهم لو أوتوا كتبا مثل ما أوتى اليهود والنصارى، لكانوا خيرا منهم «وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرًا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين » [7] .

فلما آتاهم الله الكتاب كفروا به . . وقد آمن السابقون بعد لأى، وسادوا العالمين بالكتاب المبين .

ثم انحرفت خلوف عن هداياته فوقع لهم ماوقع « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » [8] .

---

(١) الصافات : ١٠٢ . (٢) الصافات : ١٠٤ـ١٠٦ . (٣) الصافات : ١٤٩ .
(٤) الصافات: ١١ . (٥) الصافات : ١٥٠ . (٦) النحل : ٥١ .
(٧) الصافات : ١٦٧ـ١٦٩ . (٨) الصافات : ١٧١ـ١٧٣ .

ولكن النصر الموعود يجىء بعد زمان يتم فيه التمحيص وتستوى فيه الزروع، ولذلك قال « فتولّ عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون . فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين »[1] .

وأكد هذا الزمن مرة أخرى، فقال « وتولّ عنهم حتى حين »[2] . إنه لابد من الصبر .

(١) الصافات : ١٧٤ ـ ١٧٧ . (٢) الصافات : ١٧٨

سورة ص

« ص والقرآن ذى الذكر »[1] ذى المكانة والشرف ، يهبهما لمن تبعه كما قال فى آية أخرى «لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم»[2] .

وقد يكون الذكر مايُذهب النسيان والغفلة ، ويورث الانتباه واليقظة « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر »[3] .

لكن هناك متكبرين على الحق ، إذا عُرض عليهم أخذتهم العزة بالإثم ، وهؤلاء عقباهم الهلاك، مهما طال المدى !

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلٰها واحدا إن هذا لشيء عجاب»[4] . وقد قيل للرسول تصبيرا وتسلية « اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب»[5] .

وهذا أمر جدير بالتأمل . هل عانى داود وسليمان فى شأن الدعوة مايتدبره الرسول ﷺ ويأخذ منه الأسوة ؟

والجواب أن هناك أنبياء ملوكا وأنبياء من سواد الناس ، وربما تُوهِّم أن المرسلين الملوك مراحون من الأعباء ، وأن الرسل الضعاف الفقراء هم المتعرضون للبلايا . . !

فشرح الله لنبيه أن الكل سواء فى المحنة . وأن أشد الناس بلاء الأنبياء على اختلاف حظوظهم من الدنيا، وذكر نبيَّيْن ملكين هما داود وسليمان وبيّن ما أصابهما فى أثناء الدعوة من متاعب .

وبدأت قصة داود من قوله تعالى « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق . . »[6] . وشرح المظلوم قصته « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . . »[7] . وسكت الظالم سكوت إقرار وهزيمة . وتكلم داود قائلا « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض. . »[8] . وشعر داود أنه

---

(١) ص : ١ . (٢) الأنبياء : ١٠ . (٣) القمر : ٤٠ .
(٤) ص : ٤ ـ ٥ . (٥) ص : ١٧ . (٦) ص : ٢١ـ٢٢ .
(٧) ص : ٢٣ . (٨) ص : ٢٤ .

المعْنىّ بهذه القضية ، فقد كانت له زوجات كثيرات ، ومع ذلك خطب فتاة يبدو أن آخر كان يريدها لنفسه ، فلما ظهر هو طاشت كفة الآخر ، وكيف يبقى وقد نافسه ملك نبىّ ؟ لقد ضمها إلى زوجاته وعاد الآخر محروما .

ولم يرض ربّ العالمين بما حدث ، فأشعر داود بخطئه ، وأثَرَتِه « وظن داود أنما فتنّاه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »(١) .

إن داود ـ فى رأينا ـ كان من الأغنياء الشاكرين . ونحسب أنه توسَّع فيما أباح الله له توسعا امتدت فيه نفسه ورغباته ، وما كان له أن يمضى فى خطبة امرأة تقدم لها آخر !! حتى لو كان هو السابق ، فالأفضل أن ينزل عن حقه . وأيا ما كان الأمر فقد أشعره الله بذنبه ، وعفا عنه . ثم تتابعت النصائح الإلهية ترفعه إلى المكانة التى تليق به « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »(٢) .

إن هذا النبى الملك أخطأ وغسل خطأه بدموعه .

وقد عثر فى طريق الدعوة عثرة كادت تودى به ، لكن الآلام ردّته إلى الله تائبا مقبولا . هل حصّنه الملك والجاه عن خوض هذه التجارب ؟

إن التكذيب والإنكار اللذين عاناهما محمد أسهل من هذا البلاء . . وقد رفع الله شأن محمد بكتاب تضمن صحائف الوحى الأول والأخير ، واستودعه حِكَما تعصم من الزلل ، وتقود إلى الله ، وتعانق الحق « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »(٣) .

وقد اتهم اليهود نبيهم بالزنا والقتل . زعموا أنه زنى بامرأة « أوريا » ، وتآمر على قتله حتى يملك المرأة بعد اغتيال رجلها . . ولكن قرآن محمد هو الذى أنصف الرجل الشريف ، ونفى عنه هذه الموبقات !

إن الأنبياء الملوك ليسوا نفرا من الناس أذهب طيباته فى الحياة الدنيا . بل إنهم بذلوا مايملكون فى سبيل مرضاة الله .

وقد رأينا سليمان يعدّ جيشه لمحاربة اليمن وملكتها بلقيس حتى تدع عبادة الشمس وتدخل فى عبادة الله الواحد وتعلن إسلامها له « ألاّ تعلوا علىّ وأتونى مسلمين»(٤) .

وفى هذه السورة يقول الله سبحانه « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب »(٥) . وقد

---

(١) ص : ٢٤ـ٢٥ .
(٢) ص : ٢٦ .
(٣) ص : ٢٨ـ٢٩ .
(٤) النمل : ٣١
(٥) ص : ٣٠ .

أعد سليمان جيشا من الفرسان للقتال فى سبيل الله ، وكان يستعرض الخيل ليطمئن إلى أهبتها ، وربما استغرق هذا وقتا منه ، ولكنه يعلم أن تربية الخيل للجهاد قربى تستحق العناية والإقبال « إذْ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال إنى أحببت حُبَّ الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردُّوها علىّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق»[١] . إنه مسح عطف وإعزاز ، وليس قطع دابرها بالسيف كما ذكر بعض الجاهلين . .

وليت قومى يحبّون أدوات الحرب على هذا النحو! إذن لنجوا من الخزى العظيم الذى حل بهم مع فراغ اليد من السلاح !

وحكوا أن سليمان عزم على الطواف بمائة من نسائه ـ وكنّ ألفا كما تحكى التوراة ـ قال : يُنجبْن مائة فارس يجاهدون فى سبيل الله !! وطاف بالمائة فكانت الحصيلة سَقَطَ جنين رمىَ به على كرسيّه! قالوا وذاك معنى الآية « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب»[٢] .

وفى نفسى شىء من هذه الرواية ؛ فلا الطاقة تسع ، ولا الوقت يكفى ! ولا كل نكاح يثمر ، ولا كل ثمرة تكون فارسا مجاهدا !! إن شيئًا مًّا حدث لا أستطيع تحديده جعل سليمان يرجع إلى ربه تائبا مستغفرا .

كان سليمان ملكا كبيرا ، والذى نلفت النظر إليه أنه نال هذا الملك من الخدمة الصالحة والعبودية الخاشعة والتوبة السريعة والفقه العميق . ولقد وصفه ربه بذلك كله ،عندما قال فيه «نعم العبد»[٣] . ومن منطلق هذه العبودية ، ومن إحساسه بمدى عطاء الله ، طلب المزيد !

إن بصيرته انفتحت على اسم الوهاب ، فرأت البشر وغيرهم يمرحونِ فى فضول الهبات العليا ، ورأت البر والفاجر يستمدان من عطاء الله ، فطمحت نفسه إلى قطرة من هذا البحر الدافق ، فدعا : «رب اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب»[٤] .

والحق أنه مع النظر إلى سيْب الله لايقف الطماح عند حدّ ، فبحر العطاء يفيض ولايغيض . ومعنى لاينبغى لأحد من بعدى ـ فيما أرجح ـ لايبلغه أحد من المنافسين لى ! وكان لسليمان خصوم يطمعون فى ملكه .

والرأى الآخر: مُلك لايحصل بشر على مثله . . ! فى حاضر أو مستقبل . « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص »[٥] .

---

(١) ص : ٣١ـ٣٣ . (٢) ص : ٣٤ . (٣) ص : ٣٠ .
(٤) ص : ٣٥ . (٥) ص : ٣٦ـ٣٧ .

وقد بقى لسليمان هذا الملك يديره ويتسلط عليه حتى جاءه الموت فوقع من على كرسيّه ، وهو يسخر الجن والإنس لأمره ! وقد وعده الله بمستقبل فى الآخرة خير مما لقى فى الدنيا « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »(١) .

وتضمنت « ص» نبأ أمير آخر من رجال المال والأعمال أصابته نكبة جائحة ذهبت بصحته وماله، هو أيوب عليه السلام . « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربّه أنى مسّنى الشيطان بنصب وعذاب»(٢) .

يعنى أن الشيطان يريد أن يلقى فى نفسه سوء الظن بالله والسخط على ما أصابه ، فإن الشيطان لايصيب الناس بالأمراض الحسية .

وفى سورة الأنبياء « وأيوب إذ نادى ربّه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين» (٣) .

فهو يطلب رفع الضر حتى يسدّ أبواب هذه الوساوس. « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب »(٤) .

وقد ساق الله لأيوب الشفاء مما ابتلاه به « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب »(٥) . يعنى أصحاب العقول الذين يستفيدون من العبر ويتوثق رباطهم بالله . .

ثم ذكرت السورة أسماء ستة من الأنبياء ، منهم واحد من أولى العَزْم هو إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب ، ووصفتهم بأنهم أولو الأيدى والأبصار .

وهذا الوصف يعطى أن التدين قوة وبصيرة ، وليس وهنا وغباء ، إنه إنسانية رفيعة « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار »(٦) .

والثلاثة الباقون هم إسماعيل واليسع وذو الكفل ، وكلهم من الأخيار .

والآيات من أول قوله تعالى « . . . واذكر عبدنا داود ذا الأيد»(٧) تفيد أن الذكر الحسن نعمة يفيئها الله على الصالحين من عباده ، يرفع بها قدرهم ويستبقى أُجْرهم . وقد قيل : الذكر للإنسان عمر ثان . والمفروض أن المسلم يطلب بعمله وجه ربّه لاوجه بشر ، فإذا تقبله الله أحبه ووضع له الحب فى القلوب والثناء على الألسنة .

وليس ذلك فقط ! بل هناك الجزاء الهنىء « هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب. جنات عدن مفتحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب» (٨) .

---

(١) ص : ٤٠ . (٢) ص : ٤١ . (٣) الأنبياء : ٨٣ .
(٤) ص : ٤٢ . (٥) ص : ٤٣ . (٦) ص : ٤٦ـ٤٧ .
(٧) ص : ١٧ . (٨) ص :٤٩ـ٥١ .

أما أعداء الله وخصوم دعوته ، فلهم جزاء آخر « هذا وإن للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد »[1] .

وعلى عادة القرآن الكريم فى ذكر مشاهد القيامة ، ومايدور من حوار بين الأتباع والرؤساء يقول الله لأهل جهنم « هذا فوج مقتحم معكم » ـ من أهل الكفر ـ « لامرحبا بهم إنهم صالو النار »[2] .

وظاهر أن المقتحمين من الأتباع ، وأن الذى رفض الترحيب بهم الرؤساء . ولم يرحبوا بهم وقد أيدوهم فى كفرهم ؟ وطالما حفُّوا بهم وهتفوا لهم !! « قالوا بل أنتم لامرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار »[3] .

وتشعر بالعجب عندما يقول الطغاة وقد تذكروا الدنيا ، وتذكروا ماكانوا يفعلون بالمستضعفين من المؤمنين « وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدّهم من الأشرار . أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار »[4] . إن هؤلاء المستضعفين لهم شأن آخر « فى جنات ونَهَر »[5] .

أما المتحاورون من أهل النار، ففى الدرك الأسفل « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار »[6] . .

ويرتبط آخر السورة بأولها فى قوله تعالى : « قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار »[7] فهذا راجع إلى قول الكافرين عن رسول الله « هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا »[8] . إنه ليس للوجود إلا سيد واحد ، وماعداه عبد له ، وقد قرر محمد هذه الحقيقة بأجلى بيان ولكن الناس غافلون « قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون . ماكان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين »[9] . يقول الرسول للناس من أين لى العلم بما يدور فى الملأ الأعلى من حوار ؟ إننى أتلقّى مايجيئنى ، كقول الله له « وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين »[10] .

إن الله اختار محمدا ليلقى على قلبه هذا الكتاب ، فيشرح حقيقة التوحيد ، ويرفض كل أنواع التعدد ، ويعلّق الناس برب واحد تعنو له الوجوه وترجع إليه الأمور « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين »[11] .

---

(١) ص : ٥٥ ـ ٥٦ . (٢) ص : ٥٩ . (٣) ص : ٦٠ .
(٤) ص : ٦٢ ـ ٦٣ . (٥) القمر : ٥٤ . (٦) ص : ٦٤ .
(٧) ص : ٦٥ . (٨) ص : ٤ ـ ٥ . (٩) ص : ٦٧ ـ ٧٠ .
(١٠) القصص : ٤٤ . (١١) ص : ٨٦ ـ ٨٨ .

سُورَةُ الزُّمَر

الزُّمَر الجماعات المختلفة من الناس ، ولم ترد هذه الكلمة إلا فى السورة التى سميت بها .

والواقع أن السورة تضمنت أحوالا شتى لأفواج متباينة من الخلق ، قوبلت كل زمرة بأخرى حتى تكونت من هذا السرد بضع عشرة مقابلة شملت السورة كلها ، وتدور حول التوحيد وخصائصه وآثاره .

فالشرك رذيلة شاعت بين الأولين والآخرين، وشانت سلوكهم. ألا تعجب لرجل عاقل يسجد لحجر ويتهيَّبه ؟

ألا تعجب لطيار يظن نجاته مربوطة بحدوة حصان فيها سعده أو نحسه؟

إن المآخذ على مسالك البشر كثيرة ، وأولها الجهل السيئ بالله !

وكان المفروض أن نحسن الظن بخالقنا . وأن ننسب إليه الكمال المطلق ، لكننا جعلنا لله شركاء مغموصين ، وصنعنا لها تماثيل ترمز إليها ، وقال التائهون الذين فعلوا ذلك « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (١) .

إن هذه الأصنام أصفار جسّدها الوهم، ومكانتها أن ترمى فى زاويةَ القمامات . إن شأن الألوهية أعلى من هذا الإسفاف ولو صنع الله شيئا يكون وسيطا بينه وبين خلقه، لاختار بديلا أرقى «لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار » (٢) .

ليس بين البشر وربهم وسيط ، إن اتصالهم به مباشر ، إن كل امرئ يستطيع مناجاة ربه فى أى وقت وفى أى مكان .

ولو حدث ـ فرضا لمستحيل ـ أن يتخذ الله ولدا ، لاختار من خلقه بشرا كريما أو ملكا كريما ، وسيكون هذا المختار مخلوقا لاخالقا ومربوبًا لاربًّا ، ومحكوما عليه لاحاكما على أحد .

إن للألوهية أَوْجها العالى ، وللمخلوقين كلهم مكان العبودية الضارعة الخاشعة .

ولكن المشركين ـ وثنيين أو كتابيين ـ يتجاوزون هذه الحقيقة ، ولايعرفون الفارق بين المخلوق والخالق ، ولايصح التوحيد إلا بتصوُّر إله واحد ، ماعداه عبد له . . !

---

(١) الزمر : ٣ . . (٢) الزمر : ٤ .

والقرآن الكريم سيد الكتب التى حررت هذه الحقيقة ، وأطالت النَّفَس فى توكيدها . . . وفى سورة الزمر تنويه متكرر بهذا المعنى

١ ـ « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين»(١) .

٢ ـ «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . . »(٢) .

٣ ـ « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون» (٣) .

٤ ـ « إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه . . . » (٤) .

٥ ـ « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب . . » (٥) .

٦ ـ « بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » (٦) .

وفى صدر سورة الزمر حديث طويل عن الله الخالق ، وعن مظاهر خلقه فى السموات والأرض، والإنسان والحيوان . وهذا الحديث تمهيد لما بعده من مقابلات بين أصناف الناس توضح سرائرهم ووجهاتهم .

وأولى هذه المقابلات قوله تعالى : « إن تكفروا فإن الله غنىّ عنكم ولايرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولاتزر وازرة وزر أخرى . . . » (٧) .

والواقع أن البشر مغمورون بنعمة الله ، فهم يعيشون على أرضه ، ويتنفسون فى هوائه ويأكلون من خيره ، ثم ينسون كل هذه الأفضال ويتصرفون معه كأنه لم يُسْد إليهم جميلا !!

وقد تمرّ بهم محنة فيجأرون طالبين النجدة ، فإذا أنقذهم من ورطتهم سرعان ماينسون الإنقاذ الذى ظفروا به « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختّار كفور » (٨).

إن شكران النعمة دليل بصر سليم وطبيعة مستقيمة ، وقد ذكر الله نوحا فقال « إنه كان عبدا شكورا»(٩) .

وذكر إبراهيم بأنه كان « شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم» (١٠) .

وقال نبينا يتحدث عن سر اجتهاده فى العبادة « أفلا أكون عبدا شكورا» (١١)؟

---

(١) الزمر : ١ ـ ٢ . (٢) الزمر : ٢٣ . (٣) الزمر : ٢٧ .

(٤) الزمر : ٤١ . (٥) الزمر : ٥٥ . (٦) الزمر : ٥٩ .

(٧) الزمر : ٧ . (٨) لقمان : ٣٢ . (٩) الإسراء : ٣ .

(١٠) النحل : ١٢١ . (١١) حديث شريف .

والمطلوب من الناس أن يعرفوا هذه الحقائق، فلا يستخدموا أنعم الله فى معصيته . . .

والمقابلة الثانية فى قوله تعالى : « أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون . . »[1] .

وظاهر أن الطرف الآخر فى المقابلة محذوف تقديره هل يستوى قائم الليل ونائمه ؟

أو هل يستوى من يشغل ليله بالعبادة ، ومن يشغله باللهو والبحث عن اللذة الحرام ؟

وسنرى فى المقابلات القادمة أنه كثيرا مايحذف أحد الطرفين مراعاة لبلاغة الأداء وترغيبا فى قيام الليل.

قال الرسول الكريم «عليكم بقيام الليل فإنه دأبُ الصالحين قبلكم ومقربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد»[2] .

وفى صدق النية على القيام، روى أبو الدرداء عن النبى ﷺ « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتِب له مانوى ، وكان نومه صدقة عليه من ربه ! »[3].

وقيام الليل من النوافل المؤكدة . وأحسب أن ماورد فى السورة هنا قد يكون المعنىّ به السهر فى أداء الفرائض المكتوبة ورفض النوم عنها . .

وربما كان ـ إلى جانب رعاية الفرائض ـ أن يختار المرء بعض ليالٍ يسهرهن فى الدراسة والدعاء والترتيل ، ويعطى البدن حقه فى ليال أخرى .

وقدرات الناس تختلف جدا فى هذا المجال . وأعرف من يسهر الليل، ثم يكتفى برقاد ساعة ويصحو ناشطا . وأعرف من لا يملك وعيه إلا بعد نوم مستغرق ! ولله فى خلقه شئون .

والمقابلة الثالثة بين صنفين متباعدين .

الأول الأتقياء المحسنون الذين أخلصوا دينهم ومشوا فى آثار نبيهم وتأسَّوْا به وهو يقول : « قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »[4] ، فسجنوا هواهم وأسلموا لله وجوههم . .

وبين صنف عبد الحياة الدنيا وعاش يلهث وراء شهواتها ناسيا لقاء ربّه ومُكرِّسا عمره للحاضر المنقضى . وفى هؤلاء يقول الله : « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين »[5]!

إن ألوفا من الناس يكدحون بجبروت ليرتفعوا مع أسرهم فى هذه الحياة ، ويُوفِّروا ما استطاعوا من مال وجاه ، فإذا جاء يوم البعث حشروا عرايا صعاليك ، لم يغن عنهم ماكسبوا شيئا .

---

(١) الزمر : ٩ . (٢) حديث شريف (٣) حديث شريف .

(٤) الزمر : ١٣ . (٥) الزمر : ١٥ .

وقد لُخِّصت هذه المقابلة فى قوله تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . . » (١) .

والمقابلة الرابعة ذكرت أحد الطرفين وطوت الآخر لأنه مفهوم من السياق . قال تعالى : « أفمن حقّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار » (٢)؟

والمعنى : أفمن أساء فاستحق الهوان كمن اتقى فاستحق التكريم ، إن من حقت عليهم كلمة ربك لاينقذه أحد !!

وعرف الطرف الثانى فى المقابلة من قوله تعالى مباشرة « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لايخلف الله الميعاد » (٣) .

والمقابلة الخامسة تشبه سابقتها فى حذف أحد طرفيها . قال تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله . . » (٤) .

وتقدير الكلام أفمن انشرح بالحق صدرا كمن ضاق صدره بالحق وكره الدخول فيه والعمل به؟

والصدر إذا انشرح أقبل المرء بشغف على العمل ، كما قال البوصيرى :

وإذا حلّت الهداية روحا نشطت للعبادة الأعضاء !

أما المنحرفون عن الله فهم يستثقلون الصلاة و يستكثرون الزكاة ويفرون من الجهاد .

وقد شرحت الآية التالية هذه المقابلة الخامسة « الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »(٥) .

فالقرآن الكريم مصدر الذكر الحكيم والهدى المستقيم والعصمة من الباطل والارتباط بالحق .

والمقابلة السادسة تراها فى الآية الكريمة « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون » (٦) .

والمعنى أفمن صان وجهه عن عذاب القيامة بالإيمان والإحسان كمن نصب وجهه لتلقِّى هذا العذاب بكفره وظلمه ؟

وطبيعة البشر أن يباعدوا السوء عن وجوههم ، ولكن العذاب المحيط الذى يتعرض الظلمة له يفجؤهم بما لايستطيعون ردَّه . وقد زادت الآية التالية بأن العذاب قد يعجل لهم فى هذه الدار «فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (٧) .

---

(١) الزمر : ١٧ ـ ١٨ . (٢) الزمر : ١٩ . (٣) الزمر : ٢٠ .
(٤) الزمر : ٢٢ . (٥) الزمر : ٢٣ . (٦) الزمر : ٢٤ .
(٧) الزمر : ٢٦ .

والمقابلة السابعة بين التوحيد والإخلاص ، بين من يعملون ابتغاء وجه ربهم ومن يطلبون وجوه الآخرين من أصنام أو رؤساء أو جماهير .

وعبادة غير الله تشمل أولئك جميعا . بل أستطيع الجزم بأن هناك أقواما خلت قلوبهم من الله كل الخلوّ وامتلأت باسترضاء هذا أو اصطناع ذاك ! ومبدأ « عبادة البطل » يدخل فى هذه الدائرة .

وكذلك مبدأ « كسب الأصوات » .

إن المؤمن حين يصلى يخضع لله وحين يزكى يعطى لله ، وحين يجاهد يفنى فى الله . لقد توحدت وجهته واستراح ضميره « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون » [1] .

وقد شرح الشاعر ذلك بقوله :

اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه . . !!

والمقابلة الثامنة فى قوله تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذْ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين . والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون» [2] .

ظهر الأرض حافل بالأوهام والأباطيل ، وما أشدَّ غربة الحق فى هذه الدنيا . وأجدر الناس بالتقدير والتكريم من عرف الحق وعرّفه لغيره ، وقال الصدق وأيد الصادقين .

أما شرار الناس فهم الذين يفترون على الله الكذب ، وإذا قادهم أحد إلى الصدق تمرّدوا عليه ورفضوا اتباعه .

وقد وعد الله حزب الحق بأنهم « لهم مايشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين . ليكفّر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » [3] .

ولم أر بشرى أعذب وقعا وألطف أثرا من هذه البشرى النديّة السخيّة .

ويجىء فى سورة الزمر هذا التساؤل المثير « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه . . » [4] .

إن الله هو الخافض الرافع الضار النافع المعز المذل الذى لا معقب على حكمه ، ولا رادّ لأمره ولا مُجير عليه ، فكيف لايكفى عبدا توكل عليه ؟

وبمن يحتمى الناس دونه ؟

وهذا المعنى أساس المقابلة التاسعة فى السورة ، فإن غير الله لايستطيع إصدار أمر ولا إمضاء

(١) الزمر : ٢٩ . (٢) الزمر : ٣٢ـ٣٣ . (٣) الزمر : ٣٤ـ٣٥.
(٤) الزمر : ٣٦ .

حكم ، بل لايستطيع الدفاع عن نفسه ، فكيف يحمى الآخرين « قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون» (١).

ومن ثم يردد الموحدون ـ فى وجه المشركين ـ هذا النداء « قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » (٢).

أما المقابلة العاشرة فتصف بعد الشقة بين الموحدين والمشركين ، ونحن نحسب أن المخطئ يعرف أنه مخطئ ، وأن عابد الوثن يعرف أنه عاكف على قطعة حجر .

إن جماهير المخطئين تحسب نفسها على صواب « أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا » (٣). وهى تذود عن باطلها بضراوة ، وتعتقد أن غيرها هو المبطل ! وتدبر هذه الآيات فى وصفهم «وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون»(٤) !

ماذا يصنع الرسول مع هؤلاء ؟ « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون » (٥).

وأغلب سكان هذه الكرة غرقى فى أوهامهم ، ولذلك فإن العبء على دعاة الحق ثقيل . فلتكن خدمتهم له شكر ما هداهم الله إليه ومهد لهم الطريق !

والمقابلة الحادية عشرة تفهم من قوله تعالى : « فإذا مسّ الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون » (٦).

هذه مقابلة بين الإنسان ونفسه على حاليه من بأساء ونعماء ، إنه إذا أُحْرِج جأر بالدعاء وسأل الله النجدة وأحسّ بعجزه ، وكان عبدا منيبا !

فإذا تغيرت الأيام وتكاثرت لديه النعم ، شعر بحوله وطوله وقال : هذا النجاح وليد مالدىّ من ذكاء !

فأين كان هذا الذكاء بالأمس ؟ !

ولم لم تعتمد عليه فى إذهاب ماتشكو؟

---

(١) الزمر : ٣٨ . (٢) الزمر : ٣٩ـ ٤٠ . (٣) فاطر : ٨ .
(٤) الزمر : ٤٥ . (٥) الزمر : ٤٦ . (٦) الزمر : ٤٩ ـ ٥٠ .

إن هذا الذهول والعقوق باب الضياع ، فليلزم المرء حدود عبوديته . . والإسراع فى التوبة من عزائم الإيمان ، أما تسويفها والإبطاء فيها فهو دليل عجز عن جبر ما انكسر ، أو هو صحو مشوب بنوم واسترخاء ! وفى تنشيط القدرة على الخير

يقول الرسول ﷺ « أتبع السيئة الحسنة تمحها»[1] . وقد ييأس الإنسان من نفسه ، ويستسلم للشيطان ، ويستكثر أخطاءه ويستبعد النجاة منها ، وإطفاء لهذه الفتنة جاء فى هذه السورة «قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا . . » [2] .

وعقدت المقابلة الثانية عشرة بين من يحدوهم الأمل فى عفو الله فيمضون فى طريقه ويسارعون فى مرضاته، وبين من يتقاعسون ويتكاسلون فيفوتهم الخير ويندمون حين لايجدى ندم « أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين» [3] .

وعندئذ يقال له « بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين»[4] .

ويقول الله تعالى مقابلا بين الصدق والكذب فى العقائد والمسالك والأخلاق : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين . وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون» [5] .

وهذه هى المقابلة الثالثة عشرة ، وقد عبر عن التقوى بالصدق فى قوله تعالى : « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . . . » [6] . وعبر بالتقوى والصدق معا عن معالم البر كلها « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» [7] . والحقيقة واحدة فى هذه الآيات جميعا .

وتختم السورة بهذه المقابلة الحاسمة ، فبعد الحساب العدل والمساءلة الدقيقة يرسل كل فريق من الناس إلى مستقره العتيد « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا . . . . » [8] .

« وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا . . . » [9] .

أما أهل جهنم فسيعلمون بعد فوات الأوان أنهم نسوا الله فنسيهم .

وأما أهل الجنة فسيستأنفون فى ديار النعيم ماشغلوا به فى الدنيا من ذكر وشكر « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » [10] .

وفى ظلال النعمة الوارفة والسعد المقيم يتجاوب هتاف الملائكة مع تسبيح المؤمنين « وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين »[11] .

---

(١) حديث . (٢) الزمر : ٥٣ . (٣) الزمر : ٥٦ .
(٤) الزمر : ٥٩ . . (٥) الزمر : ٦٠ـ ٦١ . (٦) المائدة : ١١٩ .
(٧) البقرة : ١٧٧ (٨) الزمر : ٧١ . (٩) الزمر : ٧٣ .
(١٠) يونس : ١٠ . (١١) الزمر : ٧٥ .

سورة غافر

سورة المؤمن أولى السور السبع المبدوءة بهذين الحرفين « حم » ، وتسمى الحواميم . قال ابن مسعود : « آل حم ديباج القرآن » ! وقال ابن عباس : « إن لكلّ شيء لُبابا ، ولُباب القرآن آل حم . . » . والواقع أن المرء يشعر بالدهشة والتعجب لوفرة دلائل التوحيد فيها ، وسرعتها إلى امتلاك زمام القلب .

وهذه السورة بدأت بقوله تعالى « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم »(١) .

واسما العزيز والعليم من أسماء الله الحسنى ، وآثارهما تمتد إلى الكتاب النازل من لدنه جل شأنه . قال ابن كثير أى تنزيل هذا القرآن من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ، ولايخفى عليه الذرّ وإن تكاثف حجابه ! !

« غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول »(٢) .

من سنن القرآن الجمع بين الوعد والوعيد ، ليظل الإنسان محكوما بمشاعر الخوف والرجاء : «اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم »(٣) .

إن الإنسان محتاج دائما إلى منشطات الأمل وكوابح الغرور ، فإن يأسه من النجاح يقوده إلى السقوط ، واغتراره بما عنده يمنعه السبْق .

وقد حكى ابن كثير قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس يفد إلى عمر بن الخطاب ، فافتقده عمر لما غاب عنه ، فقالوا له ، ياأمير المؤمنين تتابع فى هذا الشراب ! ! فدعا عمر كاتبه ، فقال اكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان . سلام عليك . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » . ثم قال لأصحابه : ادعو الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه .

فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده ويقول : غافر الذنب وقابل التوب شديد

---

(١) غافر : ١ ـ ٢ . (٢) غافر : ٣ . (٣) المائدة : ٩٨ .

العقاب ، قد حذرنى عقوبته ووعدنى أن يغفرلى . ولم يزل يرددها على نفسه ، ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع .

فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زلّ زلة، فسدّدوه ، ووثقوه أى لاتجعلوه يفقد الثقة فى نفسه وادعوا الله له ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه . .

وقد أثبت هذه القصة لأنه يوجد فى عصرنا مقنطون من رحمة الله يحسنون إرسال طلقات التقريع والإهانة، وكأن غايتهم إهلاك المرء حيث زلّت قدمه !! بينما يوجد من أعداء المسلمين من يلتقط العاثرين ليخرجهم من الملة بعد مايعدهم المغفرة !!

ومن اللطائف أن هذه السورة تسمّى سورة « غافر » ،وهى تعلن حربا على الجدال السيئ والمكابرة بالباطل والتعامى عن الحق . قال تعالى : « مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمّت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » (١)؟

وتكررت كلمة الجدال خمس مرات فى هذه السورة، كاشفة الغطاء عن أسلوب المبطلين فى معاملة الحق . إنهم أصحاب عناد ، وليسوا أتباع دليل ، يستولى على نفوسهم قَهْر الخصم وفَرْض النفس على أية صورة .

ولذلك يقول الله فيهم « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (٢) .

ووراء كل نزعة عدوانية وسياسة باطشة مجادلون بالباطل يعرفون الحق ويرفضون اتباعه . وقد تعرض الأنبياء لأذى أولئك الأشرار ، كما تعرض أتباع الأنبياء فى كل زمان ومكان لجوْرهم وكبرهم .

ولكن الحياة الأرضية فترة اختبار يجب أن يتحمل الصالحون آلامها مهما فدحت ، وإن ملائكة الرحمن لترقبهم من عليائها وتدعو لهم بالثبات والسداد . ومن هنا جاء فى هذه السورة : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » (٣) .

وفى سورة مؤمن آل فرعون آيتان فى صدرها عن المجادلين بالباطل المعادين للإيمان . والآية

---

(١) غافر : ٤ ـ ٥ . (٢) الأعراف : ١٤٦ . (٣) غافر : ٧ .

الثالثة جاءت على لسان الرجل المؤمن الغيور، وهو ينصح أهله الفراعنة ويحاول كفكفة شرهم. إنه يقول لهم: « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به . . . »[1].

إن يوسف وهو من دعاة التوحيد شرح أصول الدين الحق ، وهاجم الوثنية السائدة وحكم مصر حكما حافلا بالعدل والرخاء ، فهل دخل الناس أفواجا فى دينه ؟ كلا مازالوا فى شك مما جاءهم به حتى مات .

فلما أرسل الله من بعده موسى تكررت المأساة وامتد حبل الكفر على نحو أغلظ « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار »[2].

والرجل المؤمن من آل فرعون محام من أقدر المحامين عن قضايا الإيمان ، يرقّ حينا ويشتد حينا ويسفر حينا ويستخفى حينا ليستغرق أطول وقت ممكن فى خدمة الحقيقة وتجليتها فى بيئة يبسط فرعون فيها سلطانه ويفرض عليها عنفوانه . ودفاعه الموفق ، وإن كان عن رسالة موسى إلا أنه دفاع عن رسالات الله كلها . وقد اقتبس منه أبو بكر بعض كلماته ، وهو يردّ عدوان المشركين عن صاحب الرسالة الخاتمة . .

ضمور المعرفة مع تضخّم الهوى بلاء لا آخر له ، وعلاجه تكثير المعارف حتى يتسع الأفق النفسىّ ، وتقوية الضمير حتى لايلين للشهوات . والأفراد والجماعات فى ذلك سواء .

وفى سورة المؤمن نجد القرآن الكريم يكرر مرتين الأمر بالسياحة فى أرجاء الأرض وفى أغوار الزمان ، حتى يستفيد الإنسان مايصوّب فكره ويسدّد خطاه . قال تعالى : « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واق »[3].

والواقع أن التاريخ البشرى حافل بالعبر ، وله قوانين تشبه قوانين الكون الطبيعىّ ، ودراسة أحوال الأمم فيه تقيم المائل وترشد الحائر . وفى آية أخرى يقول جل شأنه « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون »[4].

ويكشف القرآن عن أسباب هذا الجماح المُرْدِى ، واصفا إياه بأنه الغرور بالعلم القليل ! وهذا

(١) غافر : ٣٤ . (٢) غافر : ٣٤ـ٣٥ . (٣) غافر : ٢١
(٤) غافر : ٨٢ .

الاغترار هو سر الجدال والمكابرة « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون »[1] . إن كثيرا من المخطئين لايعرف من نفسه أنه مخطئ ، بل يحسب نفسه راسخا فى الصواب ! ومايفيق إلا على قارعة تقصم كبره « إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير »[2].

وهذا هو الموضع الرابع الذى تكرر فيه الجدال فى هذه السورة ، ومواجهة هذا الموقف تحتاج إلى صبر طويل وتوبة إلى الله واستعانة به .

وهو معنى قوله تعالى « فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشىّ والإبكار »[3] .

على أن هذا الصبر لاينبغى أن يرتبط بتربّص العقاب للمجرمين ، فإن عقوبتهم قد تتأخر ، وقد تجىء بعد موت المجاهد !! فليؤدِّ واجبهُ بهمّة ، وليفوِّض النتيجة إلى علم الله وقدره ، ولذلك تكرر الأمر بالصبر فى قوله بعد ذلك « فاصبر إن وعد الله حق فإما نُرينَّك بعض الذى نعدهم أو نتوفَّينك فإلينا يرجعون »[4] .

وفى أوائل هذه السورة أمر بدعاء الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وتجاوز غيره من الآلهة المزيفة ، وإن التفت حولها جماهير: « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء . . . »[5] .

والآية تصيح بأمجاد الله صياحا يزعج الذاهلين ، ويذر فى نفوسهم إحساسا غامرا بالبعث والجزاء ، ويشرح وظيفة الرسل بأنها الإعداد الروحىّ ليوم اللقاء .

ويتكرر هذا المعنى فى السورة ثانية عند قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين»[6] .

هل عبادة الله هدف ثانوى فى هذه الحضارة ؟ إنها ليست هدفا قط ! قد تكون خاطرا غابرا عند بعض المتدينين المتخلفين !

ولذلك وردت فى هذه السورة ثلاث آيات مفتتحة كلها باسم الجلالة ، تعريفا به وتذكيرا بحقه .

١ ـ « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون»[7] .

---

(١) غافر : ٨٣ . (٢) غافر : ٥٦ . (٣) غافر : ٥٥ . (٤) غافر : ٧٧ .
(٥) غافر : ١٤ـ١٦ . (٦) غافر : ٦٠ . (٧) غافر : ٦١ .

إن صباحا جديدا يطلّ على الإنسان نعمة يستقبلها الرسول ﷺ بالحمد والثناء قائلا : « الحمد لله الذى ردّ إلىّ روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره »[1] . فهل نتنفس هواء اليوم الجديد شاعرين بأن الحياة منحة نقدرها لصاحبها ؟ أم نستأنف ما يملأ الدنيا من لغو ولهو ، ونريق أعمارنا على التراب ؟

٢ ـ « الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم . . . »[2] .

لست أدرى كيف تستقر الأرض بنا وهى تلفّ كل يوم حول نفسها ، فى الحين الذى تقطع فيه جزءا من دورتها حول الشمس ؟

إن الذى يمسك بها وبالسماوات لا يأذن بخلل ولا اهتزاز . وقد شهدت زلزالا لم يستغرق نصف دقيقة كدنا نفقد فيه وعينا . إن القدرة الضابطة لحركة الأفلاك تطمئن النمال فى جحورها ألا خلل ولافوضى « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته . . » .

٣ ـ « الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع . . »[3] إلخ .

كنت أرقب درسا فى عالم الحيوان فسمعت المذيع يقول : يقدر العلماء الحشرات الزاحفة والطائرة فى هذه الغابة بنصف مليار حشرة ! كان هذا الإحصاء مفاجئا لى ! قلت كم عدد الأنعام والطيور والحشرات فى القارات الخمس؟ إن بينها قانونا من التوازن الطبيعى يضبط حياتها ومماتها ، وعلاقاتنا بها « ويريكم آياته فأىّ آيات الله تنكرون »[4]؟

إننا نحن البشر معجبون بأنفسنا ، وقد نغتر بذكائنا وقدراتنا ، لأننا لاندرى من يسكن الكون معنا . لكن هذه السورة تجىء إلينا لتقول لنا « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون »[5] .

فلنتواضع ، ولنكسر سورات هذا الغرور .

بعض الناس قد يستريح إلى عقيدة مّا أو منهج مّا ثم يمضى فى طريقه لايلوى على شىء! لعله يؤثر الصمت أو يكره الجدال أو ييأس من إقناع الآخرين بصحة ماعنده وبطلان ما عندهم وهذا الصنف قليل فى الدنيا ، أو كان يمكن أن تتسع له الحياة قديما فيحيا وحده ويموت وحده!

أما فى عصرنا فإن العلاقات العامة فرضت نفسها على الناس ، فما يستطيع أحد أن يعيش فريدا . . كان المثل المضروب قديما (السلطان من لايعرف السلطان) أما الآن فهذا متعذر فإن من لايعرف السلطان سيسعى السلطان إلى معرفته وفرض نفسه عليه . . !!

---

(١) حديث شريف .

(٢) غافر : ٦٤ . (٣) غافر : ٧٩ ـ ٨٠ . (٤) غافر : ٨١ . (٥) غافر : ٥٧ .

إن الحكم الآن صنع شبكة من العلاقات المادية والأدبية تمنع أى فرد من أن يعيش فى قوقعة ومعنى ذلك أنه لابد من الحوار والأخذ والرد وعرض وجهات النظر والاعتماد على الدليل فى الإقناع والاقتناع وإعطاء الرأى المعارض حق الحياة مادام مصحوبا بالإخلاص والتجرد . ويضيف الإسلام إلى ذلك دفع السيئة بالحسنة « ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بمايصفون»[1] وترك اللجاجة تأخذ مجراها حتى يبتَّ فى مصيرها القدر فماذا تفعل لأناس يقولون لله « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »[2]!

وأنا احترم حرية الرأى إلى أبعد حد ولكنى أكره الغباء والافتراء ومساندة الدعوى بالعصا واستغلاق العقل بحيث تعجز كل مفاتيح الحقيقة عن فتحه! إن المكابرة رذيلة بغيضة !! وقد ووجه الإسلام من أول تاريخه بمجادلين طوال الأنفاس يرفضون الله الواحد ويستريحون إلى أوثان متعددة ، يأنف أحدهم من السجود لقيوم السموات والأرض ويذل أمام حجر أصمّ!

وقد استعرضت سورة غافر أحوال هؤلاء المجادلين فى خمسة مواضع كان آخرها قوله تعالى : «ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا . .»[3] إن ردّ القرآن الكريم ليس تكذيبا له وحده ، إنه تكذيب لكل وحى نزل ، إنه تكذيب لموسى وعيسى ومحمد . .

وقد نظرت إلى المتدينين فى الغرب فإذا هم غثاء فى تيار الحضارة الحديثة ، يكرهون الإسلام لأن آباءهم كرهوه ، فهل آمنوا بموسى وعيسى ؟ وهل استعدّوا بشىء للقاء الله ؟ كلا إنهم جزء من الحضارة التى تعبد اليوم الحاضر وتكره اليوم الآخر ، إن أقطار الغرب استباحت الشهوات والمظالم ، واحتفت بالجنس الأبيض وتجهمت لسائر الأجناس .

وما أنكر أن المسلمين فرطوا فى تراثهم وخافوا رسالتهم ولكن ذلك ، لايمنع من التنبيه إلى الهاوية التى تجرنا إليها حضارة أضاعت الصلاة واتبعت الشهوات .

---

(١) المؤمنون : ٩٦ . (٢) الأنفال : ٣٢ . (٣) غافر : ٧١ .

سورة فصلت

« تنزيل من الرحمن الرحيم »[1] من ينابيع الرحمة تنزلت آيات الكتاب ، فهى هداية تقى الناس شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم ، وتحميهم من خطل الأفكار وفوضى الغرائز ، وطغيان القوى وعوج الأهواء ! إن الوحى المبارك فيه الخير كله والعدل كله « كتاب فُصِّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا »[2] .

أهل الوعى يدركون فضل هذه الآيات التى تَعِد الأتقياء بالرضا ، وتتوعد الأغبياء بالشقاء ، وما أقل الواعين فى الناس !

ولذلك قالْ « فأعرَض أكثرهم فهم لايسمعون»[3] .

وعروبة القرآن سمة الوحى المعجز ، فلو ترجمت معانيه إلى لسان آخر ماكان المترجم قرآنا . إن الله اختار لغة العرب لتكون وعاء وحيه ، واصطفى أهل هذه اللغة ليقودوا الناس إلى الخير .

وفى الجاهلية الأولى لم يقبل الناس على الإسلام أول الأمر، بل كان إعراضهم عنه قاسيا جافيا ، ومازال محمد بهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى عرفوا الحقيقة وافتدوها بالنفس والمال ، وهدموا دولاً ظلت دهرا طويلا تحمى الطاغوت وتفرض العدوان . .

أما عرب الجاهلية المعاصرة فقد انحدرت إليهم خِسَّتان : تقاليد آبائهم أيام انحلال الحضارة الإسلامية ، وتقاليد الغرب الماديّ الغارق فى ملذاته وأوهامه !

ولا أعرف ناسا أوضع من ملاحدة العرب ، وأبعد عن الفكر والإنصاف ، ويمكن أن يُردِّدوا مقالة أبى جهل وأضرابه « وقالوا قلوبنا فى أكنَّة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون »[4] .

وقد شاء الله أن يحمل العرب رسالة الإسلام . وأن تفصَّل هداياته بلسانهم ، وقال « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد »[5] .

---

(١) فصلت : ٢ . (٢) فصلت : ٣ـ٤ . (٣) فصلت : ٤ .
(٤) فصلت : ٥ . (٥) فصلت : ٤٤ .

ذلك ، ويعتبر عربيا أىُّ امرئ من القارات الخمس استعرب وجاد فى لغة القرآن . فالعروبة ليست دم جنس معين ، وقد أسلم قديما من الفرس والروم من خدم القرآن ولسانه أكثر ممن ولد فى بطحاء الجزيرة !

والمهمّ ألا تكون على القلوب أغشية وألا تكون على الحواس علل تمنع من حسن السمع والنظر . .

وأى امرئ سَوىّ يستطيع بعدئذ أن يتبع محمدا وهو يناشد البشر أجمعين « قل إنما أنابشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون» (١) .

هل الاستقامة على الصراط والاستغفار من الخطأ تكاليف شاقة ؟ وهل توحيد الله والرحمة بالفقراء واجبات صعبة ؟؟

إنها كذلك عند أولى الأثرة والكبر ! ومصير هؤلاء كالح ، ولذلك هدد القرآن العرب ـ الأولين والآخرين ـ بالويل إذا طال إعراضهم عن الحق وجفاؤهم لرسوله ، إنه مصير آبائهم الأقدمين من عاد وثمود ! « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . » (٢) .

إن عاقبة الأخلاق القبيحة متشابهة وإن تباعدت السنون .

لماذا هلكت عاد ؟ « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة » (٣) .

ولماذ هلكت ثمود ؟ « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى . . » (٤) .

إن بطر الحق وغمص الناس عند عاد ، وإيثار الغىّ على الرشاد والباطل على الحق عند ثمود ، هو ما أودى بهما . . فهل ينجو غيرهم من هذا المصير إذا تخلق بهذه الأخلاق ؟ كلا إن الله لايصلح عمل المفسدين . إننى أنظر إلى عرب اليوم وموقفهم من الإسلام فيغلبنى التشاؤم . . !

ثم إن عذاب الدنيا لايغنى عن عذاب الآخرة « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . . »(٥) .

إن السمع والبصر نعم أسداها الله للإنسان كى يعرف من عظمة الخلق عظمة الخالق ، وكى

---

(١) فصلت : ٦ ـ ٧ . (٢) فصلت : ١٣ . (٣) فصلت : ١٥ .
(٤) فصلت : : ١٧ . (٥) فصلت : ١٩ ـ ٢٠ .

يطلّ بعقله على الكون الكبير، فيقول الله أكبر . . فإذا عزل المرء سمعه وغطّى بصره ، ولم يتخذ طريقا إلى الله ، فإن هذه المشاعر المهدرة ستكون أول من يشهد عليه ويعين على عذابه ، يوم يلقى فى النار ويواجه مصيرا لم تلق الحيوانات مثله !

ويلاحظ أنه بين عرض الدعوة وجزاء مكذِّبيها وقع اعتراض معنوى طويل تضمن الكلام عن نشأة الخليقة ونظام الملكوت الضخم : « قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين» [1] .

إن الإنسان من هذه الأرض نشأ وعلى خيراتها يحيا ، ومنذ استخلفه الله فيها جعله ملكا على عناصرها ليكون عبدًا لربّه الذى سوّاه ونفخ فيه من روحه . . لكن الإنسان نسى وطغى .

والظاهر من كلام العلماء أن الله أبدع المجموعة الشمسية أولا « خَلَق السموات والأرض وجَعَل الظلمات والنور» [2] .

ثم أنشأ البشرية بعدما مهد الأرض لسكناها ، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها . وهنا ، وفى مواضع أخرى لُفت الإنسان إلى أقرب شىء إليه ، إلى الأرض التى عليها يعيش ، ويؤمن إن شاء أو يكفر! وذكر هذه الحقائق عقب عرض الدعوة مفهوم ، فتدبُّرها أساس الإيمان ، والتعامى عنها سبب البوار .

فى وسط سورة « فصلت» حديث عن عوالم أخرى تتصل بالإنسان وهويهمّ بالخير أو بالشر. إنه حديث عن الجنّ ووساوسها والملائكةوإلهاماتها ، والماديون ينكرون ذلك كله ، وليس لديهم دليل إلا وقوفهم عند الحسّ .

ونحن نحترم المادة وماوراءها ونعترف بعالم الجن والملائكة والبشر جميعا .

من الجن مؤمنون أخيار، ومنهم شياطين تلازم المرء وتنتهز غفلاته لتغريه بمعصية الله والتهاون بحقوقه .

وقد انتهز إبليس ـ كبير الشياطين ـ خور ـ آدم وغفلته وأزّه على الأكل من الشجرة المحرمة ، وحلف له كاذبا أنه ناصح أمين ! وأكل آدم وطُرد من الجنة ، والسبب الأول نسيانه وضعف عزيمته . والسبب الثانى تربّص الشيطان به وانتهازه الفرصة لخديعته .

وكذلك فعل الشيطان مع خصوم الإسلام صدر الدعوة قال تعالى : « وقيَّضْنا لهم قرناء فزينوا

---

(١) فصلت : ٩ ـ ١٠ . (٢) الأنعام : ١ .

لهم مابين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين . وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون» (١) .

إن الكافرين رفضوا القرآن وكرهوا سماعه ، وأغراهم الشيطان أن يحدثوا ضجيجا فى مجلسه حتى لايخلص إلى القلوب ، وهذا منتهى الفشل فى مواجهة الحق والعجز عن مجادلته . وكل صادٍّ عن الحق يُغْرِيه الشيطان بمثل هذه الأفعال .

ويوم الحساب يندمون على هذا الهوس « وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلّانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين »(٢) .

أما أولو الألباب الذين شرحوا بالحق صدرا واتجهوا إلى نصرته، فإن الملائكة تحفُّهم وتؤنس وحشتهم وتعينهم على تخّطى العقبات : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون» (٣) .

ويرى أغلب المفسرين أن هذه الآية تتنزل على المحتضَرين وهم فى آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة ، لتطمئنهم على ماتركوا من أحبّة ولتشرح صدورهم بما سيلقون من رضوان ! !

ولابأس بهذا القول، وهو لاينفى مايدل عليه السياق من أن الملائكة تهبط على المؤمنين فى أثناء جهادهم فتلهمهم الرشد وتعينهم على الحق . وقد صحّ أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لرجل أحسن الثناء على الله : أعانك عليها ملك كريم ، وقال لحسان بن ثابت وهو ينافح عن رسول الله : روح القدس يؤيدك .

إن الملائكة تعين على الحق كما تعين الشياطين على الباطل ، والأساس فى الثواب والعقاب هو اتجاه الإنسان ، وكسبه واكتسابه . . .

والشيطان ماهر فى جَرّ الإنسان بعيدا عن الله وفى تعمية الصراط المستقيم أمامه ، فكانت الدعوة إلى الله عملا يذكّر الناس وينشط الكسول . والمفروض أن جهاز الدعوة يحرس الحقائق ويردّ الشياطين ويطارد الأوهام والأهواء « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » (٤) .

والرسل أئمة الدعاة على امتداد الزمن، ونشاطهم ركن فى دعم الإيمان وانتصار الخير ، وأول مايتجهون إليه تعريف الناس بربهم وتحبيبهم فيه . وقد جاءت آيات فى السورة لتحقيق هذا المعنى

---

(١) فصلت : ٢٥ـ٢٦ . (٢) فصلت : ٢٩ . (٣) فصلت : ٣٠ .
(٤) فصلت : ٣٣ .

«ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهنّ»(١) .

« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . . »(٢) .

« إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وماتحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه»(٣) .

والمحزن أن أجهزة الدعوة الإسلامية معطوبة ، وقد تكون فى بعض الأعصار والأمصار معدومة، وتفريط العرب فى خدمة الدعوة لايمكن الدفاع عنه ، وانشغالهم بأهوائهم وعصبياتهم أسقط دولتهم وأضاع رسالتهم، ويمكن أن تساق فيهم الآيات .

« إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا . . »(٤) .

«إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز. لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . »(٥) .

إن حمل العرب لرسالة محمد هو حمل لرسالات الأنبياء قاطبة . فهم فى الدنيا يمثلون الوحى من الأزل حتى النهاية « مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك . . »(٦) .

أما أهل الكتاب فقد أضاعوا مالديهم ونسوا قواعده « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم»(٧) .

ومن الغريب أن القوم أنشط من المسلمين المعاصرين فى خدمة مواريثهم . . ولهم مطارات لتنقيل الدعاة بين الشرق والغرب !!

وقد ختمت السورة بآيات تَعْنى العرب المحدثين والعرب القدامى جميعا « قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به مَنْ أضلّ ممَّن هو فى شقاق بعيد »(٨)؟

ثم يقول تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد» (٩)؟

إن كل يوم يجىء يزيد أشعة القرآن وَهَجًا وحقائقه قوة ، ويزيد نبوة محمد رسوخا وصدقا . لقد دعا إلى التوحيد الخالص، فهل اكتشف إله جديد غير مرسل الأنبياء المعروفين؟ ولقد وضع نظما للفرد والمجتمع والدولة ، فهل وجدت فى هذه النظم ثغرة ؟ إنه مايعيبها إلا التعطيل والإهمال «ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط»(١٠) .

(١)فصلت : ٣٧ . (٢) فصلت : ٣٩ . (٣)فصلت : ٤٧ . (٤) فصلت : ٤٠ .
(٥) فصلت : ٤١ ـ ٤٢ . (٦) فصلت ٤٣ . (٧) فصلت : ٤٥ . (٨) فصلت : ٥٢ .
(٩) فصلت : ٥٣ . (١٠) فصلت : ٥٤ .

سورة الشورى

بعد خمسة من حروف الهجاء فى أول سورة الشورى، قال الله لنبيه « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم»[1] . إن الأنبياء يبعثون بلغات أممهم ، والكلمات تتكون بداهة من هذه الحروف المأنوسة ، وقد نزل القرآن على محمد بلسان عربى مبين، ثم بلغه النبىّ ﷺ كما أنزل إليه ، وفسّره خلقا وسلوكا فى سيرته المشرقة .

وكذلك فعل أصحابه وتلامذته من بعده، فهل محَوْا الشر من الأرض، وهل صوَّبوا كل خطأ؟

لقد بذلوا الجهد ، ولكن الأرض مذ دب عليها البشر نسيت الوحى أو تناسته ، وكانت كوكبا متمردًا فى ملكوت يسبح بحمد خالقه « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم» [2] .

وقد ذُكر الوحى وحَمَلتُه أول السورة وآخرها ، وذكر خلالها ماكلفت به الأمة العربية من واجبات بعد ما اصطفاها الله لختام الوحى ، وشُرحت علاقتها بأهل الكتاب الأولين .

«وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير » [3] .

ومعروف أن الإسلام دين عام خالد ، وأنه للقارات الخمس إلى آخر الدهر ، ولكن لابد من نقطة ارتكاز يبدأ منها انطلاقه ، فكانت نقطة البداية « أم القرى ومن حولها » . أما ميدان البلاغ فهو العالم كله شرقه وغربه ، وقد أدى محمد وصحابته واجبهم ، ومامضى نصف قرن على البعثة حتى كان الإسلام قد بلغ المشارق والمغارب ، وأسقط أعلام الأمم المستكبرة التى استعمرت آسيا وإفريقية !

فما خبر حَمَلة الوحى الأول ؟

أما اليهود فقد انقطعت صلتهم بالدعوة إلى الله ، وجعلوا الدين ميراثا قوميا يتأكّلون به

---

(١) الشورى : ٣. (٢) الشورى : ٥ . (٣) الشورى : ٧ .

ويفخرون ، وأما النصارى فقد غلبتهم على حقائق الوحى فلسفات التعدد والفداء ، والحديث الطويل عن ابن الله !!

وقد جاء الإسلام فأعلن صلته الوثقى بموسى وعيسى ، وقرر أنه يؤكد ويجدد الوحى الذى أُرسلا به « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب»[1] .

والواقع أن دين الله واحد من بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ربٌّ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وعباد خلقهم بقدرته ورباهم بنعمته ليس بينهم من يفارقه وصف العبودية ، وأقربهم إليه منزلة أكثرهم له سجودا ، وأشدهم له رغبة ورهبة . وهذا المعنى شائع فى القرآن طولا وعرضا ، وهو لبُّ دين محمد . .

وقد عرفنا صدق محمد بعدما عرفنا الله بعقولنا ، وبعدما رأينا الوحى المحمدى طابق العقل بما نسب لله من حمد ومجد ، ولم يقصر أنملة فى تقديسه وتوحيده !

إن العقل أفضل مواهب البشر وماجرى على لسان محمد صورة طبْق الأصل لما ينبغى لله من عظمة وخشوع وفق أدقّ مقاييس العقل البشرى .

فلنترك الحاقدين على محمد يكذبونه ، فإن إساءتهم له نابعة من إساءتهم لمولاه !! « وماتفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب »[2] .

فما العمل من هؤلاء الكتابيين الجائرين ؟ لاتنشغل بأحقادهم ولاتتجاوب معهم وامض فى طريقك هاديا ومقسطا « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجّة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير»[3] .

وقد مضى الإسلام فى طريق الدعوة الحسنة والتفكير الواعى، واستجابت له جماهير أهل الكتاب فى آسيا الوسطى وشمال إفريقية ، كما ثاب الوثنيون إلى رشدهم فى إيران وآذربيجان والهند والصين . لقد انزاحت السدود أمام الفيضان ، فانطلق .

ومع ذلك فقد بقى الآن فى أوربا وأمريكا من يكابرون الحق ويحاربون التوحيد ويضيقون

---

(١) الشورى : ١٣ .   (٢) الشورى : ١٤ .   (٣) الشورى : ١٥ .

بمحمد ، ليكن ، فلن يضيروا الله شيئا « والذين يحاجُّون فى الله من بعد مااستجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد»[1] .

وعاد الوحى مرة أخرى يحكى أقاويل خصوم الإسلام وخصوم محمد « أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور»[2]. أى لو كان محمد كاذبا ماتركه الله يفترى عليه وينسب إليه هذا الدين الخطير ، بل لسلبه العقل ، ومحا ما ادّعاه ! وهذا مثل قوله تعالى فى سورة أخرى « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين» [3] .

ولكن الإسلام استبحر وشق طريقه حتى بلغ مابلغ الليل والنهار . ولايزال الأذان فى كل قطر يشهد لله بالوحدة ولمحمد بالصدق ، كأنه ساعة تحصى الزمان لايتوقف لها دقٌّ . ولقد كذب على الله بعض الناس وزوّروا عليه وحيا مضحكا ، فماذا كان مصيرهم ؟ لقد امَّحى أثرهم وانقضى زيفهم ، وبقى الخلود للحق وحده . .

يصنع الإسلام من أفراد الأمة ربّانيين يجعلون الله غايتهم ورضوانه أملهم والاستعداد للقائه شغلهم !

هل معنى ذلك أنه يصنع أمة دراويش ؟

كلا إنه يصنع أمة كدح وجهاد تخدم الدنيا والآخرة معا . والمهم أنها عندما تباشر شئون الحياة تدرك أن الله رقيب عليها ، وأنها مسئولة عن إحسان كل مايخرج من بين أصابعها ، ولها على ذلك خير الدنيا والآخرة « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله . . » [4] .

والفرق واسع بين مجتمع يعبد التراب وآخر يرمق رب الأرباب !

ولذلك فإن السورة هنا ذكَّرت المؤمنين بعظمة بديع السموات والأرض ، وساقت من الآيات مايربط الألباب والقلوب بعظمته « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته . . »[5].

« ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة . . . » [6] .

ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام » [7] .

---

(1) الشورى : ١٦ . (2) الشورى : ٢٤ . (3) الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧ .
(4) الشورى : ٢٥ ـ ٢٦ . (5) الشورى : ٢٨ . (6) الشورى : ٢٩ .
(7) الشورى : ٣٢ .

والآيات المذكورة تشير إلى القوانين الطبيعية التى تحكم البحار ، ومايطفو فى عبابها من سفن ، كما أنها تشير إلى قوانين الجاذبية التى تحكم الأجرام السماوية كلها . ونحن نعلم أن السماوات ملأى بالملائكة المسبِّحة بحمد الله أبدا ، فهل هناك كائنات أخرى ؟ هناك الجن وهو عالم آخر مكلّف مثلنا .

وربما كانت هناك مخلوقات أخرى سوف نجتمع بها يوما ، لاننفى ولا نثبت ، المهمّ أن نحسن العيش على الأرض التى مهدها الله لنا ، واختبرنا فوق ثراها .

والغريب أن الحضارة الحديثة ـ مع تفوقها على الحضارات السابقة ـ عصفت بها الأهواء التى عصفت بالأمم البائدة ، فلم تنجح فى مضمار الفضيلة والعدالة .

وتحذيرًا من ذلك تذكر السورة تسع خصال لابد منها كى ينجو الناس من الغضب الإلٰهى « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى (١) للذين آمنوا (٢) وعلى ربهم يتوكلون . (٣) والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش (٤) وإذا ماغضبوا هم يغفرون . (٥) والذين استجابوا لربهم (٦) وأقاموا الصلاة (٧) وأمرهم شورى بينهم (٨) ومما رزقناهم ينفقون . (٩) والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لايحب الظالمين »[١] .

وربما ضحكت الدنيا للطغاة والمجرمين ، فعاشوا وافرين مُراحين ، فما قيمة ذلك ؟ « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين »[٢] .

من حق الناس أن يروا بينهم أمة تصون الوحى ، وترعى أمره ونهيه وتقيم موازينه فى كل مكان ، والأمة العربية التى شرفت بالوحى الخاتم جديرة أن تتبوأ هذا المنصب !

وقد قامت أول أمرها بحقوقه ، ولكنها على مر الأيام نسيت ، بل جهلت !!

وفى عصرنا هذا رأينا عجبا ، رأينا العرب يبتعدون عن الإسلام ويعتزون بقوميتهم . . وتفرست فى هذه القومية المزعومة ، ووضعت يدى فى جرابها ، فوجدت زهدا فى الإسلام وفى لغته الفصحى على حد سواء !!

وباسم القومية العربية ، ازدهرت الإنجليزية والفرنسية والغامية ، وذيلت لغة القرآن وتقهقرت ، واخترعت آداب خالية من القيم المحترمة ، وفرض على الأمة الكبيرة أن تعيش بلا روح ولا تاريخ ولاشعائر ولا شرائع .

لقد نجح الإلحاد فى طىّ صفحتها المشرقة ، وهو مصرٌّ على سياسته ، وهيهات فلن نقبل ذلك .

---

(١) الشورى : ٣٦ ـ ٤٠ . (٢) الزمر : ١٥ .

وقد استمعت فى هذه السورة إلى تنبيه للعرب وتحذير يقول الله فيه « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لامردَّ له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ . . . »[1] .

ومما يزيد السخط أن عرب اليوم تهى علاقتهم بالإسلام فى وقت يزداد اليهود وغيرهم تعلقا بمواريثهم ، أى أن العقائد كلها تنتعش إلا الإسلام وحده فمحكوم عليه بالانكماش .

بل مطلوب له التلاشى !

وكما بدأت سورة الشورى بالحديث عن الوحى الإلهى ، ختمت بالحديث عنه ؛ فبينت أولا كيف يقع الوحى « وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه على حكيم »[2] .

وليس كل بشر يُرشح للوحى ، بل يصطفى الله له طبائع خاصة ومعادن قوية ، والأنبياء ليسوا سواء فى طاقاتهم واستعداداتهم ، كما أن نجوم السماء ليست سواء فى أحجامها وأشعتها . والذى يكلف بهداية مدينة غير الذى يكلف بهداية قطر غير الذى يكلف بهداية العالم على كر العصور.

وقد بعث الله محمدا بكتاب فيه شفاء الإنسانية على اختلاف الزمان والمكان ، وقد بلّغ الكتاب علما ، وأقامه دولة ، وورثه حضارة ، وتركه حصانة للعالم أجمع من الزيغ والتردى « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور »[3] .

---

(١) الشورى : ٤٧ ـ ٤٨ .　(٢) الشورى : ٥١ .　(٣) الشورى : ٥٢ ـ ٥٣ .

سورة الزخرف

بدأت سورة الزخرف بالآيات «حم . والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون»(١) .

تكرار عروبة القرآن توكيد للرسالة التى حملها العرب ، وهم فى هذا العصر فقراء إلى هذا التوكيد ، فقد نبتت بينهم نابتة تحسب أن العرب أغنياء عن الإسلام !

ويوم يستغنى العرب عن القرآن فسيكونون أذلّ شعوب الأرض !!

إن هذا القرآن عالى المكانة ملىء بالحكمة ، وليس له فى العلم الإلَهى نظير ، على أن الأمم التى كفرت بالوحى خسرت دنياها وأخراها معا ، ولن يكون العرب خيرا منها مآلا .

ويكشف أول السورة عن التناقض العقلى الذى وقع فيه المشركون .

فهم يعترفون بأن الله هو الخالق « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (٢) .

« ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون » (٣) .

فإذا كان الله العزيز العليم هو الذى خلقهم وخلق السموات والأرض ، فما وظيفة الأوثان التى عبدوها؟ وماشغلها؟ وما قيمة أحجار منحوتة لاتعى ولاتضر ولاتنفع ؟

أولى بهم أن يعرفوا الله وحده ، وأن يتجهوا إليه وحده « الذى جعل لكم الأرض مهدًا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون»(٤) .

وقد ادعى المشركون أن لله أولادا هن أجزاء منه !! وهذا كذب ، فليس لله جزء ، ولا يوصف بأنه ولد أو والد .

إنه فرد صمد . وقد ردّ فى هذه السورة على ذلك الزعم قائلا :

« قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون»(٥) .

---

(١) الزخرف : ١ ـ ٣. (٢) الزخرف : ٩ . (٣) الزخرف : ٨٧.
(٤) الزخرف : ١٠ ـ ١١ . (٥) الزخرف : ٨١ ـ ٨٢ .

والغريب أن العرب فى جاهليتهم كانوا يزدرون الإناث ، ومع ذلك فقد نسبوا الإناث إلى الله ، وترفّعوا هم عنها « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون» [١] . وفى سورة الإسراء يقول « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما » [٢] .

ومضى المشركون فى كذبهم فزعموا أن الله هو الذى أراد لهم ذلك الإشراك ! وساقهم إليه ، فكشف أن كفرهم بلادة وعناد « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون . قال أَوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين» [٣] .

إن جحد الحق ينشأ عن شهوات غالبة لا عن أدلة محترمة وكثيرا ما تكمن فى النفوس أهواء تصدّها عن تصديق البديهيات .

وقد كشف القرآن الكريم خبايا المشركين عندما قال « كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر» [٤] .

إن طبائع الحسد والحقد هى التى تتحرك وراء التكذيب والخصومة ، والمتتبع لسير الأنبياء جميعا يلحظ عمل هذه الغرائز الخسيسة فى النيل منهم واعتراض طريقهم . فبعد أن قالوا فى سورة ص « أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب » ، [٥] قالوا هنا «لولا نزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » [٦] !

والقريتان مكة والطائف ، والسؤال لماذا لم ينزل القرآن على عمدة من هؤلاء العُمَد ؟ إن المنطق الطبقى هو المسيطر عليهم ، كأن عمد القرى هم الذين يختارون لأداء رسالات الإصلاح والارتقاء ونقل الأمم من الظلام إلى النور .

وقديما اعترض بنو إسرائيل على تنصيب « طالوت » ملكا عليهم « قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال »[٧] . وجاء الرد عليهم « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء » [٨] .

---

(١) الزخرف : ١٩ . (٢) الإسراء : ٤٠ . (٣) الزخرف : ٢٣ـ٢٥ .

(٤) القمر : ٢٣ـ٢٥. (٥) ص : ٨ . (٦) الزخرف : ٣١ .

(٧) البقرة : ٢٤٧ . (٨) البقرة : ٢٤٧ .

إن تنوير الأقطار وتحرير العبيد ونقل الأجيال من القاع إلى القمة يتطلب معادن خاصة ورجالا من طراز نفسيٍّ رفيع ، ولايرشح لذلك شخص لديه مال كثير ينفقه فى مآربه وملذاته . والبشر من الناحية المادية يرأس بعضهم بعضا ، فالمهندس يأمر العامل والقائد يأمر الجندى .

ولكن ماعلاقة ذلك بزكاة الروح وسناء الضمير وزراعة الخير فى أرجاء الحياة ؟

ولذلك يقول الله تعالى ردًّا على مطالب الجاهليين بتعيين أحد العمد نبيا : « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون» [1] .

إن تفاوت مكانة الناس فى وظائف الدنيا لازم فى ميادين الصناعة والزراعة وغيرهما ولا دخل له فى رسالات المصطفين الأخيار الذين يصنعهم الله على عينه ليربُّوا البشر ويرفعوا مستواهم .

وهناك أمر آخر: أن مايظفر به البعض من متاع الدنيا لادلالة فيه على خير ، فقد يبسط الله الرزق لقوم هم حطب جهنم اويبتلى بالعبودية أمثال عمار بن ياسر وبلال بن رباح ،وهم من ملوك الجنة ، وقد عانوا بلاء شديدا فى هذه الحياة . بل بين الله هنا : أنه لولا أن يخدع الناس جميعا بتنعيم الكفار لجعل الحظوظ تنهمر على أعداء الله !!

«ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسُررًا عليْها يتكئون .وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » [2] .

قد يجد المبطلون أعوانا يتجاوبون معهم وينصرون باطلهم بالمقالات المزوّقة حينا وبالأسنة المشرعة حينا آخر . وفى هذا جاءت الآية « وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوا شياطينَ الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » [3] .

ويقول الله فى هذه السورة « ومن يعْشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطانا فهو له قرين» [4] .

وهؤلاء القرناء يؤلفون الجماعات التى تقاوم الحق وتزرع الأشواك فى طريقه ،وقد أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام أن يتصدَّى لهؤلاء ويتشبث هو وقومه بالوحى الذى شرفهم الله به « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تسألون» [5] .

---

(١) الزخرف : ٣٢ . (٢) الزخرف : ٣٣-٣٥ . (٣) الأنعام : ١١٢ .
(٤) الزخرف : ٣٦ . (٥) الزخرف : ٤٣-٤٤ .

إن هذا الإسلام سياج الحياة للعرب الذين حملوه للناس ، وبلسانهم نزل كتابه ـ وهم إذا أخلصوا له ـ صاروا العالم الأول وأمسوْا قادة الأرض .

فهذا الكتاب صحح ماعرا الديانات الأولى من أخطاء، ورسم للناس كافة المنهاج الذى يكسبون به الحياتين ، فليس فى رسالة موسى وعيسى وغيرهما أن لله شركاء وشفعاء .

« واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون» (١)؟

وإطفاء لفتنة الغنى والملك والجبروت، ساق الله هنا قصة فرعون مع موسى . إن فرعون لم يكن عمدة لبلدة كالطائف ، بل كان ملكا لمصر مهد الحضارات ومجرى النيل العظيم ، وقد جاء موسى يطلب منه أن يؤمن بالله ويكفّ مظالمه عن المستضعفين .

ولكن الرجل المغرور أبى « ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسْوِرة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين» (٢)؟

وكذب فرعون موسى وطارده وقومه حتى بلغوا البحر الأحمر. وعبر بنو إسرائيل البحر يقودهم موسى ، وأراد فرعون اللحاق بهم فغرق ومن معه جميعا ولما أحسّ فرعون الغرق : « قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين»(٣) .

عن ابن عباس ، لما أغرق الله فرعون ونطق بكلمة التوحيد جعل جبريل يأخذ من طين البحر المستقر فى قعره ويدسّه فى فمه ، ثم لفظت الأمواج جثة الملك السابق، ورأى الناس على شاطئ البحر رفاتا مكسوًّا بالوحل وفمًا مليئا بالطين!

أين أساور الذهب فى معصميه ؟ اختفت مع الألوهية المزوّرة .

وهكذا يختفى المبطلون من مغانى الحياة الدنيا لتستقبلهم عرصات الحساب فى الدار الآخرة !

إن حقائق الرجولة شىء والأساور والقلادات شىء آخر !

أذكر أنى رأيت رجلا عملاقا يرتدى الزىّ الفرنجىّ، وسلسلة من الذهب تلتف حول عنقه الغليظ . فاستغربت لأن عهدى بالذهب أنه حلية النساء . سألت رجلا يعرف هذا العملاق ، ماخلقه؟ فقال قليل الوفاء كثير الملق!

قلت : هذا هو الظنّ به ، وتذكرت قول الشاعر:

لابأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافيرا!

---

(١) الزخرف : ٤٥ . (٢) الزخرف : ٥١ ـ ٥٣ . (٣) يونس : ٩٠ .

وطوت السورة قصة موسى وفرعون لتذكر بعدها شيئا من سيرة عيسى بن مريم الذى زعم البعض أنه إله . فقد شغب بعض هواة الجدل ، وأثاروا لغطا حول مصيره عندما قال تعالى للمشركين « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها »[1] .

وبديهة اللغة والعقل أن الآية فى الأصنام المعبودة ، فجبريل الذى عُبد إلها ثالثا باسم الروح القدس ، وعيسى الذى عبد إلها ثانيا باسم الإله الابن لاصلة لهما بالآية ، وكلمة « ما » فى « إنكم وما تعبدون » لغير العقلاء . ولذلك قال تعالى « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدّون . وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون »[2] .

وعيسى بلا ريب من سادات أهل الجنة ، ويظهر أن فتنة مولده من غير أب رشحت لاعتباره ابنا لله ! ! وأشاعت ذلك فى أقطار كثيرة ، فشاء الله أن يعيده إلى الأرض مرة أخرى ليكذب بنفسه أنه إله و يؤكد أنه عبد مرسل .

وهذا معنى الآية « و إنه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم »[3] .

وقد تواترت السنن على نزول عيسى وانضمامه إلى العالم الإسلامى مؤكدًا رسالة التوحيد . .

إن الناس قسمان : عارف بالله معرفة صحيحة ، أو مفترٍ عليه ، والفصل بينهما ليس هنا . ولذلك جاء على لسان عيسى « إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم »[4] .

وعند قيام الساعة يقال للمؤمنين « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون »[5] .

أما غيرهم فلهم مصير أسود « إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لايفتّر عنهم وهم فيه مبلسون »[6] .

لقد كانوا فى الدنيا يكيدون للحق ويمكرون بأهله فماذا جنوا ؟ « أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون »[7] . وذلك كقوله « إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا »[8] .

إن جماهير كثيرة توارثت الضلال وأصرّت عليه ، وعلى الدعاة أن يثابروا فى إرشادهم دون يأس أو ملل ، ولذلك ختمت السورة بهاتين الآيتين « وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون . فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون »[9] .

---

(١) الأنبياء : ٩٨ـ٩٩ . (٢) الزخرف : ٥٧ ـ ٥٨ . (٣) الزخرف : ٦١ .
(٤) الزخرف : ٦٤ ـ ٦٥ . (٥) الزخرف : ٧٠ . (٦) الزخرف : ٧٤ـ٧٥ .
(٧) الزخرف : ٧٩ . (٨) الطارق : ١٥ ـ ١٧ . (٩) الزخرف : ٨٨ـ٨٩ .

سورة الدخان

« حم» [1] الدخان . بدأت السورة بقسم بالقرآن الكريم « والكتاب المبين» ، [2] أى الواضح الجلىّ «إنا أنزلناه فى ليلة مباركة» [3]، هى يقينا ليلة القدر من ليالى رمضان . وأخطأ المفسرون الذين جوّزوا أن تكون ليلة النصف من شعبان!

وإنما بوركت الليلة بما نزل فيها من الوحى الخاتم، فهو وحى عامر بالحكمة والنور والخير الكثير « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته . . .»[4] . « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه . . . »[5] .

وبركة هذا الكتاب أنه يصنع من البشر ملائكة ، وأنه صنع من العرب الهمل أمة ذات حضارة لاتغيب عنها الشمس .

« إنا كنا منذرين» [6] للطغيان السائد ، وهادمى قواعده ، وهذا من قبيل التخلية قبل التحلية ، فما قامت عدالة الإسلام إلا بعد الإجهاز على الممالك الظالمة التى سبقته . ومضت الآيات تؤكد عقيدة التوحيد وحاجة الأولين والآخرين إليها .

ومعروف أن العرب قاوموا أول أمرهم دعوة الإسلام ، وأحرجوا حملتها وأخرجوهم من ديارهم ، فدعا النبىُّ ربه « اللهم أعنّى عليهم بسبع كسبع يوسف» . فأجدبت الأرض وانقطع المطر وجاع المشركون وأظلمت الدنيا فى عيونهم فكأن الجوّ غطاه الدخان ، وملأته غبرة .

فذهب ناس إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يعفو عن قومه !

ولكنهم بعد العفو عنهم وعودة العافية لهم نكثوا !! « إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون. يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» [7] ..

وقد انتقم الله منهم يوم بدر فأهلك رؤساء الكفر وألحق بهم هزيمة مخزية .

ذلك تفسير الجمهور للآيات .

---

(١) الدخان : ١ . (٢) الدخان : ٢ . (٣) الدخان : ٣ .
(٤) ص : ٢٩ . (٥) الأنعام : ١٥٥ . (٦) الدخان : ٣ .
(٧) الدخان : ١٥_١٦ .

وهناك رأى آخر أنا إليه أَمْيَلُ . ربما كان الدخان آية يكشف عنها الغد ؛ وكما يوجل العالم الآن من ثقب « الأوزون» وخطره على الناس، قد تتمخض الآفاق عن مصيبة داهمة وعذاب أليم لما شاع فى الأرض من إلحاد وفسوق ، ولما يلقاه الإسلام من خصومة وجفاء، ولما يوجَّه إلى شخص الرسول من مفتريات .

عندئذ يجأر الناس إلى الله طالبين الرحمة ، ونادمين على موقفهم الخائن من الرسالة الخاتمة . فهل يصدقون؟

أيًّا ماكان الأمر ،فإن الحساب الجامع عند اللقاء الأخير ، يومئذ توفى كل نفس ماقدمت وأخرت ! !

وقد بينت السورة أن حملة الوحى الأول مستهم البأساء والضراء، فإن موسى ناشد فرعون أن يطلق سراح قومه ، وأن يتركهم ينطلقون معه إلى بلد آخر ولكن فرعون أبى إلا حبسهم على الأذى، فماذا كانت عاقبته ومن معه ؟ أهلكوا جميعا « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين »[1] .

والتاريخ يعيد نفسه ، وعاقبة الظلمة فى كل عصر واحدة . والمهم أن أصحاب الدعوات يرتفعون إلى مستواها وتصدِّق أعمالهم أقوالهم ، فإذا آل الأمر إليهم كانوا نماذج للعدل والطهر !

والمحزن أن الصلاح قصير الأجل فى حياة أغلب المتدينين . فسرعان ماتغلبهم أهواؤهم ويحيدون عن تراث أنبيائهم. يقول تعالى فى اليهود « ولقد اخترناهم على علم على العالمين. وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين» [2] .

فماذا فعلوا بعدما تحرّروا وملكوا؟

أظهروا فى الأرض الفساد فمزقهم القدر الساهر . .

واختار القدر بعدهم العرب ، وأورثهم القرآن العظيم،فساروا به أشواطا ثم تخلّوا عنه إلا قليلا، فأدركهم العقاب العتيد المرصد لكل منحرف، فهم الآن شراذم يلغ فى دمها كل جبار !

إن الذين يخلصون للوحى يرثون خير الدنيا والآخرة . ذلك هو وعد الله للمؤمنين الصالحين.

وأصحاب الحضارة الحديثة على قدر كبير من الذكاء، بيد أنهم لا يلتفتون للحياة الآخرة ، ولايخطر ببالهم أنهم ملاقو الله يوما ،وهم يشبهون أهل الجاهلية من عرب الجزيرة الذين كانوا يسخرون من الحياة بعد الموت ، ويعدّونه حديث خرافة . . .

---

(١) الدخان : ٢٥ ـ ٢٨.   (٢) الدخان : ٣٢-٣٣ .

« إن هؤلاء ليقولون . إن هى إلا موتتنا الأولى ومانحن بمنشرين. فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين»[1].

وسيجمع الله الآباء والأبناء ، ويحاسب كلا على ماقدمت يداه ، وإلا كانت الحياة عبثا باطلا ، وكفاحا فارغا هازلا « وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين. ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون. إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين» [2] .

والحق الذى خلقت به السموات والأرض يظهر فى القوانين الدقيقة التى تحكم الذرة والمجرّة ، والنملة والفيل ، والسهول والغابات ، والبر والبحر ! وهناك علوم جادّة تبحث فى هذه الأرجاء كلها ، وتعود بالعجائب الهاتفة بعظمة الخالق . . وكذلك يظهر هذا الحق فى حساب أخير يفصل بين المسلمين والمجرمين ، والذاكرين والغافلين، وذوى الضمائر الحية والضمائر الميتة !

ويمتاز القرآن الكريم بأنه غلب ضجيج الحياة البشرية بوعده ووعيده، وأثبت من صور الدار الآخرة ماينفى الغرور بهذه الدار الدنيا.

وقد ختمت سورة الدخان بأحد هذه النماذج « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون» [3] .

ماذا ينتظر الأشرار ؟ « إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون .كغلى الحميم»[4].

وماذا ينتظر الأخيار؟ « إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين » [5] .

إن الله أنزل القرآن على محمد ليوقظ الغافلين ويصنع به أمة ذات رسالة عظيمة « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون » [6] .

---

(١) الدخان : ٣٤_٣٦.
(٢) الدخان : ٣٨_٤٠ .
(٣) الدخان : ٤٠_٤١ .
(٤) الدخان : ٤٣_٤٦ .
(٥) الدخان : ٥١_٥٣ .
(٦) الدخان : ٥٨_٥٩ .

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

فى الحث على دراسة الكون واكتشاف آياته جاء صدر سورة « الجاثية » لافتا الأنظار إلى ملكوت السموات والأرض وماحوى من عجائب تقود إلى الله سبحانه .

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم ومايبُثُ من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلافِ الليل والنهار» [1] إلخ .

وقد مضت نظائر لهذه الآيات فى سورة البقرة وآل عمران وغيرهما . والمراد دعم البناء العقلى للإيمان ، وإقامته على الفكر السوىّ والبصر الذكىّ !

فهل تكفى هذه الدراسة النظرية لإسعاد الإنسان ؟ لا . إنها جانب واحد . والجانب الآخر استغلال الكون نفسه لمصلحة الإنسان ، فلهذا خلق .

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [2] .

والهيمنة على قوانين الكون كما تنفع الإنسان فى الحياة الدنيا ماديا ، فهى تقدره على إعزاز عقائده والدفاع عنها . وما تأخر المسلمون وذلّوا أمام أعدائهم إلا لتخلفهم فى هذا الميدان !

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون» [3] .

القرآن يقود النفوس بهداياته ، والكون يدل على الله بآياته ، فلماذا يزيغ امرؤ بعد ذلك أو تضل شعوب ؟ « ويل لكل أفاك أثيم » [4] .

ومع هذا التوجيه المزدوج ، فإن الله رحمة منه بعباده أبى تعجيل العقوبة للتائهين ! ووسع لهم الفرصة كى يهتدوا فنصح المسلمين أن يتريثوا فى عرض الدعوة وأن تخفّ وطأتهم على الكافرين :

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون . من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون» [5] .

---

(١) الجاثية : ١ـ٥ . (٢) الجاثية : ١٢ـ١٣ . (٣) الجاثية : ٦ .
(٤) الجاثية : ٧ . (٥) الجاثية : ١٤ـ١٥ .

وإلى جانب العلوم العقلية والكونية توجد علوم نقلية شرعية . والمهم فى هذين الصنفين من العلوم أن تقود البشر إلى سبيل الرشاد . ولكن الذى حدث أن جماهير من دارسى العلوم الكونية لم يحسنوا الإفادة منها ، فغزوا الفضاء وبقوا كافرين بالله ! ورأوا الأجنَّة تتخلق فى البطون ، وبدل أن يعترفوا بالخالق قالوا إن الفاعل مجهول !

وهذا الإلحاد صبغة عامة فى الحضارة الحديثة ، تشمل غرب أوروبا وشرقها ، ويمتد دُخانها إلى بقية القارات . ولهذا العوج العلمى نظير بين حملة العلوم الدينية ، فقد تحولت موروثاتهم إلى دراسات شكلية لاتهذب نفسا ولا تصقل فكرا . إنهم معها كالدواب التى تحمل صناديق الكتب ولا صلة لها بما حوت ! ونصف فساد العالم يرجع إلى قصور رجال الدين وتبلّدهم النفسى !

ولعل علماء بنى إسرائيل أول من أبطل نظرية سقراط (أن الفضيلة هى المعرفة) ، فإنهم لبسوا أردية العلم على أجسام لوّثها الهوى « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم . . . »(١) .

إن العلم الدينى إذا لم يورث الصدق والإنصاف فلاخير فيه ولا قيمة له . ويوجد الآن علماء دينيون وعلماء كونيون ماتت ضمائرهم ، وكان فى مقدورهم أن يُسْدوا للإنسانية الخير الجزيل . . !

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله . . . ! (٢)» .

والذكاء فى فهم الدنيا مع الغباء فى فهم الآخرة يحوّل الإنسان إلى عبد لشهواته ، ويربطه بهذه الحياة وحدها ، ويصرفه عن الاستعداد لما بعدها ، بل يجعله من المنكرين الجاحدين « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون»(٣) .

ولذلك جاء ختام هذه السورة تهديدا بالبعث والحساب ووصفا لمواقف الناس أمام ربهم وهو يسائلهم عما قدموا . .

« ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون» (٤) .

(١) الجاثية : ١٦ـ١٧ . (٢) الجاثية :٢٣ . (٣) الجاثية : ٢٤ . (٤) الجاثية : ٢٧ـ٢٩ .

والمتأمل فى حضارة هذا الزمان يرى التقدم العلمىّ رَفَّه حياة البشر ، ويسَّر لهم الملذّات وعلّقهم بالفترة القليلة التى يقضونها هنا ، وأذهلهم عن الخلود الطويل الذى ينتظرهم هناك . ثم إن أهل الكتاب عجزوا عن العودة بالناس إلى الله ، وانضموا إلى أعدائه فى ضرب الإسلام ومنع تقدمه ، فكانت النتيجة إطباق الفوضى على آفاق الأرض كلها ، وزوال شرائع الله فى سياسة عباده . فلا عجب إذا وجهوا يوم القيامة بهذا الخطاب « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين »[(١)] .

إن العابدين للدنيا قد يربحون قليلا فى العاجلة ، فهل ضرُّوا الله شيئا ؟ إنهم الخاسرون أولا وآخرا .

« فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[(٢)] .

إن آخر السورة طابق أولها فى تمجيد الله وتوكيد اسمين من أسمائه الحسنى وهما العزيز والحكيم .

---

(١) الجاثية : ٣٤ . (٢) الجاثية : ٣٦ـ٣٧ .

سورة الأحقاف

سورة الأحقاف آخر سور آل حاميم . وقد تكرر افتتاح هذه السور بتوكيد نزول الكتاب الكريم من لدن رب العالمين ، وعلى الناس كافة أن يستمعوا إليه استماع التلميذ لأستاذه وطالب الحكمة إلى من يبذلها له ، كى يرشد ويرعوى .

وبينت السورة فى صدرها أن الله يبنى الخلايا فى الأجسام الحية كما يدير الأفلاك فى آفاقها البعيدة لايشغله شأن عن شأن ، وأن لهذا العالم الذى نعيش فيه أجلا ينتهى عنده كما ننتهى نحن عند مجىء آجالنا، ثم نبدأ حياة ثانية نحصد فيها ماغرسنا هنا « ماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمّى والذين كفروا عما أنذروا معرضون»(١) .

إنهم معرضون عن أمرين : عن السنن العلمية التى تضبط مادة العالم ، وعن المصير الذى ينتظر الجميع ليحاسبوا على ماقدموا .

ثم شرعت السورة فى مناظرة بين الرسول والمشركين تتناول عقائدهم ومسالكهم، بدأت بذكر آلهتهم وعجزها التام عن خلق شىء « قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين»(٢) .

ولم يقل أحد إن آسيا من خلق الله وإفريقية من خلق ربّ آخر ، ولم يقل أحد إن الشمس من خلق الله والقمر من خلق رب آخر ، هذا لون ظاهر من السخف المرفوض ! ودعاء غير الله ماوزنه؟ لو بلغ جؤار المشركين عنان السماء مارجعوا بشىء ، إنهم يدعون أصفارا « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون» (٣) .

ويرى المشركون أن القرآن من وضع محمد « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم . . . » (٤) .

---

(١) الأحقاف : ٣. (٢) الأحقاف : ٤ . (٣) الأحقاف : ٥ .
(٤) الأحقاف : ٨ .

إن محمدا عندما تلا كتابه على الناس دفعهم إلى توحيد الله والإخلاص له والتفانى فى مرضاته وذكره بالغدوّ والآصال، فهل يعاقبه الله على ذلك ؟ وكان إمامهم فى العبودية والتوكل والصبر والأمل فى الآخرة ، فهل يلام على ذلك ؟ وماقرأت كتابا منسوبا إلى السماء يحدو إلى ذى الجلال والإكرام ويورث إعظامه ومحبته مثل ماقرأت فى هذا الكتاب الكريم ، فهل ذلك ذنب محمد ؟

إن القول بأن القرآن من وضع محمد يستحيل أن يصدر عن فكر سليم ! وقد أصرَّ على ذلك الجاهلون الماديون الذين ينكرون أن لله وحيا ، وأن له رسلا. فبماذا أجيبوا ؟« قل ماكنت بدعا من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ وما أنا إلا نذير مبين» [1] .

عندما شرع يشقّ طريق البلاغ ، لم يكن يدرى مانتيجة هذه المعركة بينه وبين أعداء الحقيقة ، ولكنه صدع بأمر الله مستندا إليه آويا إلى ركنه الشديد فانتصر بعد لأى ، وظلّ حتى آخر رمق مسبّحا بحمده مشيدا بمجده ، حتى لحق بالرفيق الأعلى . فهل هذه حياة دعىٍّ يفترى على الله ؟ مايكون الصدق إذن ؟

وليس لأهل مكة عذر فى إنكار النبوات ؛ فإن اليهود فى المدينة يتبعون موسى كما يزعمون ، وصالحو اليهود استيقنوا من رسالة محمد ، فلا مساغ لإنكار الوحى جملة ، ولا لإنكاره على محمد خاصة « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين » [2] .

وفى عصرنا هذا جماهير تنكر نبوة محمد ، وأغلبهم لايؤمن بالله أصلا ، فإصلاحهم يبدأ من تعليمهم أم الحقائق ، أى من تعريفهم بالله الخالق تبارك اسمه .

أما أهل الكتاب الأولون ، فصلتهم بكتبهم غامضة ، ويستحيل أن يوجد موحّد صادق المعرفة لله يكره محمدا !! لم يكرهُ رجلا يقول للناس « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون» [3] ؟

إنه يطلب من الناس الإيمان والاستقامة ، ويؤمهم فى هذا الطريق ، فما عيبه ؟

وعند عرض الدعوة على الناس يحدث أن تنقسم الأسر بين مؤمن وكافر فقد يهتدى آباء ويضل أبناء وقد يقع العكس ، ليكن ، فلا اكراه فى الدين ، وقد ينتظم الحق الأقرباء جميعا فتتم النعمة ، وعندئذ يقول المرء « أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين» [4] .

---

(١) الأحقاف : ٩ . (٢) الأحقاف : ١٠ . (٣) الأحقاف : ١٣ ـ ١٤ .
(٤) الأحقاف : ١٥ .

وقد يرفض ولد عاق أن يؤمن بالبعث والجزاء ، ويأبى نصح والديه له . إنهما لن يغنيا عنه من الله شيئا « والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ماهذا إلا أساطير الأولين . أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين» (١) .

ويغلب أن تكون حياة الكافرين ملأى بالمتع عامرة بالشهوات مشحونة بالسهو واللهو، ولذلك قال الله فيهم : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون . . . » (٢) .

وكان عمر يزهد فى ملذات الحياة لهذه الآية . ذكر ابن عطية أن عمر حين دخل الشام، قدم إليه خالد بن الوليد طعاما طيبا ، فقال عمر : هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير ؟

فقال خالد : لهم الجنة !!

فبكى عمر وقال لئن كان حظنا فى المقام ، وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيدًا . . !!

وكان عمر فى إمارته متقشفا لايزيد فى طعامه عن فقراء المسلمين ! ونحن نعلم أن الله لم يحرِّم على عباده الطيبات ،ولكن يُخشى على أهل السرف أن يصيروا أصحاب ترف فينسوا الحقوق والواجبات .

كانت خصومة الوثنيين للإسلام عنيفة فلم يتركوا فرصة متاحة لمقاومته إلا استغلوها . وصابر المسلمون هذا العدوان ، وكان القرآن يشدّ أزرهم ويقوى حجتهم ويسوق لهم من عبر التاريخ مايطمئنهم على مستقبل الدعوة ، مهما كان العدو عاتيا طاغيا . . وفى ذلك يقول الله لنبيه : «واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» (٣) .

هل هو عذاب يوم القيامة ؟ أو عذاب الاستئصال الذى نزل بساحتهم؟

الوعيد يحتمل الأمرين ، وكانت عاد تسكن جنوب اليمن فى الرمال الممتدة قرب « حضرموت» وسبقت الإشارة إلى ما امتازوا به من فراهة وبأس وطَوْل ، وقد سفّهوا نبيهم هودا ونبذوه ، فعاقبهم الله بجفاف حرمهم المطر سنين ، ولكن الأزمات لم تلن قناتهم ولم تكفكف شرهم ، فقالوا لهود «أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» (٤) .

---

(١) الأحقاف : ١٧ـ١٨ . (٢) الأحقاف : ٢٠ . (٣) الأحقاف : ٢١ .
(٤) الأحقاف : ٢٢ .

فلم يبق إلا أن يأتيهم ما استعجلوه ! ونظروا إلى الآفاق فرأوا غيما مقبلا، فاستبشروا بالمطر الذى يرتقبونه من سنين ! « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمّر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم»[1]. لقد هلك الأحياء وبقيت البيوت خاوية موحشة . . !!

وعاد أقوى من قريش فهل تغالب القدر ؟ ألا ترعوى؟

ولكن البشر يمنعهم من الإيمان أنهم أناموا عقولهم وغطوا عيونهم وأصمّوا آذانهم، فصاروا أضلّ من الحيوان الأعجم « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون» [2] .

وقريش تسكن وسط الجزيرة العربية ،وتمر بمدائن صالح المخربة ، وبقرى قوم لوط التى جُعل عاليها سافلها ،وتعرف ماوقع لسبأ وقوم تبّع ، فهل أجدت عليهم أوثانهم ؟ « بل ضلّوا عنهم وذلك إفكهم وماكانوا يفترون»[3] .

وبقدر ماكان عناد أهل مكة تكاثر ضرب الأمثال وسوْق النذر ، والقرآن مشحون بما يُسرِّى الأحزان عن قلب أمير الأنبياء وبما يوفر للدعاة ـ إلى آخر الدهر ـ خطط الدفاع عن الحق ، وإبقاء أشعته هادية !!

ثم ذكرت سورة الأحقاف أنه إذا كان بعض الإنس لم يستجب للقرآن الكريم، فإن نفرا من الجن استمع إليه واهتدى به ،أفلا يدفعهم ذلك إلى التأمل والتروى ؟

والحديث عن الجن ذو شجون. فإن الخرافيّين من الناس يهرعون إلى خيمة الغيبيات ليطلقوا العنان لأخيلتهم وينطلقوا مع عوجهم العقلىّ .

إن القرآن يتحدث عن الشيطان فيقول « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » [4]. فيجىء هؤلاء ليؤلفوا كتبا عن حياة الجن ، وعن التزاوج بينهم وبين البشر ! وعن أسلوب تسخيرهم . . . إلخ.

وبقدر ماينطلقون مع هذا اللغو، يقفون خرسا أمام الحق الذى خلقت به السموات والأرض ، وشمل الذرة والمجرة ، فلا يكتشفون له قانونا ولايفيدون منه شيئا . وهل نهض الغرب إلا بدراسة هذا الحق الذى قامت به السموات والأرض ؟

(١) الأحقاف : ٢٤ ـ ٢٥ . (٢) الأحقاف : ٢٦ . (٣) الأحقاف : ٢٨ . (٤) الأعراف : ٢٧ .

لندعْ ذلك إلى أوانه، ولننظر إلى ماحكاه الكتاب الكريم عن الجن ليسمعه المكذبون من أغبياء الشرك « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضِىَ ولَّوا إلى قومهم منذرين»[1] .

غيرهم من أبناء آدم قال « لاتسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون! »[2] .

أما هؤلاء فقد وَعَوْا ماقيل ثم رجعوا إلى قومهم منذرين. . . !

ونلحظ أنهم قالوا « . . . إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى » [3] ، وذلك لعلمهم أن الإنجيل ملحق بالتوراة ومؤيد لأحكامها ومخفف لبعض شدتها. أما القرآن فكتاب مستقل طوى التوراة والإنجيل معا فى معانيه ، وأنشأ شريعة مهيمنة على ماسبقها من وحى « ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم ». [4] ومضى السياق يعرِّض بقريش ويستخرجها من ظلماتها ويهددها بالبعث والجزاء .

« أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يَعْىَ بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير » [5] .

إن عادا أقوى من قريش والجن أقوى من القبيلين ، فهل يكفكف ذلك من كبرياء الكفر عند البشر؟

وتنتهى سورة الأحقاف بآية تطلب من محمد أن يتأسّى بأولى العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فإنهم عانوا من أقوامهم مثل مايعانى من قومه وبقوا صامدين حتى حكم القدر فى مصايرهم « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . . . » [6] .

إن الكفاح تطول أيامه ولياليه ، فإذا جاءت النتيجة المنتظرة كانت ذكريات الماضى كأنها لحظات ، كما قال الشاعر :

كأنـك لم تُسـبَق من الدهـر ليلة إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب

« كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » .[7] هذا الذى ذكر كله « بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» [8]؟

---

(١) الأحقاف :٢٩ .
(٢) فصلت : ٢٦ .
(٣) الأحقاف : ٣٠ .
(٤) الأحقاف : ٣١
(٥) الأحقاف : ٣٣ .
(٦) الأحقاف : ٣٥
(٧) الأحقاف : ٣٥
(٨) الأحقاف : ٣٥ .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

وتسمى سورة القتال. بينت أن رسول الله ﷺ نبىّ المرحمة ونبىّ الملحمة، وأنه يقتصّ من الظالم للمظلوم، ومن الواتر للموتور ، وأنه لايدع البغى يمشى فى الأرض متكبرا ، بل يرغم أنفه ويقلّم أظافره .

ولكى تعرف جوّ هذه السورة ، سل نفسك أولا : ماذا يُكنّه أهل البوسنة فى قلوبهم للصربيين الذين ذبحوا رجالهم واغتصبوا نساءهم ؟ هل يكنّون إلا البغضاء والمقت ! وماذا يكنّه أهل فلسطين لليهود الذين أخرجوهم من دورهم واسترخصوا دماءهم وحقوقهم ؟ هل يكنّون إلا الغضب والحقد ؟

وماذا تنتظر أن يقوله القرآن الكريم للمغلوب المستباح، إذا لقى خصمه فى الميدان ؟ إنه يقول له « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخْزِهم وينصركم عليهم ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم » [1] . أو ما جاء فى هذه السورة « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلُوَ بعضكم ببعض . . . » [2] .

إن الحرب دواء مُرٌّ ، ولكن لمرض أَمَرّ . وكما قال شوقى :

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء . . . !

وقد بدأت السورة بآيات تضمنت قانونا عاما خالدا « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أَضلَّ أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » [3] .

وكما افتتحت السورة بهذه السنّة المطّردة، تكرر المعنى نفسه فى ختامها ، فقال جلّ شأنه « إن

---

(١) التوبة : ١٤ـ١٥ .　　(٢) محمد : ٤ .　　(٣) محمد : ١ ـ ٣.

الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعدما تبيّن لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم»[١].

وقد كان المسلمون فى ميادين القتال يتلون هذه السورة جماعات بصوت عالٍ . ولما كانت فواصل الآيات تنتهى بميم ساكنة فإن الوقوف الجماعىّ عليها له دوىّ يخلع قلوب الأعداء !

ثم يؤكد الوعد الإلهى نتيجة المعركة داعيا إلى الإقدام والفداء « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم»[٢] . وخلال هذه التعليمات العسكرية يذكر القرآن مصاير الشهداء ، وما ينتظرهم من جزاء « والذين قُتلوا فى سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم »[٣] . ثم يضرب المثل للنعيم المنتظر « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفّى . . . »[٤] إلخ .

وذاك خلال تسبيح موصول وعبادة تقر بها العين « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين»[٥] .

ومع الحديث عن المؤمنين المجاهدين والكافرين المعتدين تطرّق الحديث إلى المنافقين لكشف النقاب عن سرائرهم المريضة ولحماية المجتمع من شرورهم . إن هؤلاء الناس يشاركون المسلمين مجلسهم حول الرسول الكريم ، ويستمعون إلى مايصدر من توجيهات ، ولكن بقلوب مدخولة . وقد يشاركون فى عبادات خفيفة التكاليف ، وقد ينقلون إلى خصوم الإسلام مايدور بين النبى وصحبه ولهم تعليقات تكشف المخبوء من كفرهم « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم»[٦] .

وهذا استفهام مشرب بالتجاهل أو بالسخرية ، بيد أن وجوههم تسودّ وفرائصهم ترعد عندما ينزل أمر بالقتال ، فهم ليسوا أصحاب عقائد يدفعون عنها ، وتعلقهم بمصالحهم الدنيوية يجعلهم جبناء « . . . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت »[٧] .

ووزر المنافقين مضاعف ، فإن هناك كفارا لايدرون عن الإسلام شيئا ويحاربونه بغباوة . أما هؤلاء

---

(١) محمد : ٣٢ . (٢) محمد : ٧ـ٨ . (٣) محمد : ٤ـ٦ .
(٤) محمد : ١٥ . (٥) يونس : ١٠ . (٦) محمد : ١٦ .
(٧) محمد : ٢٠ .

المنافقون فمقيمون بين ظهرانى المسلمين يستمعون إلى الوحى النازل ويرمقون سيرة صاحب الرسالة فمالهم عذر « إن الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعدما تبيّن لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم»[1] .

وفى عصرنا هذا يجدّد المنافقون سيرة المخادعين القدامى . فهم يتلقون التعليمات من مناسر التبشير العالمى أو من مراكز الغزو الثقافى ويندسّون بين الجماهير يثيرون الفتن ويطلقون الإشاعات ويرجحون وجهات النظر المعادية ويخذّلون أصحاب الكفاح : « ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم» [2] .

إن الله كشف أولئك المنافقين ، وهم على كل حال ستكشفهم مسالكهم وتدلّ عليهم أعمالهم . بل إن لأقوالهم رنينا يفضح خباياهم « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم» [3] .

وانتهت السورة بوصاة للمؤمنين ألا يستسلموا مهما اشتدت المعركة وطالت فليقاوموا أسباب الضعف وليتحملوا أعباء القتال « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم»[4] .

ثم قال للناكصين عن البذل الباخلين بمالديهم دون أن ينصروا الحق : « ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْن لتُنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه والله الغنىُّ وأنتمُ الفقراءُ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم» [5] إن المجتمعات الجبانة الشحيحة لاتستحق الحياة والبقاء .

---

(١) محمد : ٢٥ . (٢) محمد : ٢٦ـ٢٨ . (٣)محمد : ٣٠ .
(٤) محمد : ٣٥ . (٥) محمد : ٣٨ .

سورة الفتح

عاد المسلمون من عمرة الحديبية وقلوبهم كسيرة ، كانوا يؤملون فى زيارة البيت الحرام والطواف بالكعبة المشرفة والسعى بين الصفا والمروة ، فلم يتحقق أملهم ، وهاهم أولاء يعودون من مكة بعد مفاوضات شاقة مع المشركين ذاقوا فيها العنت ، وكادت الحرب تنشب بين الفريقين لولا حكمة الرسول ﷺ ، وبينما هم يعودون أدراجهم إلى المدينة ، نزلت سورة حافلة بالبشريات « إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا » [1]. نصر ! نعم ما وقع كان نصرا ! وكان بداية الفتح العظيم .

ماوقع كان بدء انطلاق الدعوة وزوال العوائق من أمامها ، إنه بعد الشروط التى أملاها المشركون على النبىّ ، وقبلها المسلمون كارهين ، اتسعت دائرة البلاغ وزاد الداخلون فى الإسلام ، واعتُرف بالدولة الإسلامية على أنها كيان قائم يأخذ لنفسه ولربه مايريد ، ولم يمض عامان حتى استسلمت مكة لصاحب الرسالة وهو يقود عشرة آلاف مقاتل ، وتحطمت الأصنام التى غبرت قرونا تُعبد من دون الله ، وعلت راية التوحيد ، وأذَّن بلال فوق الكعبة !

إن حكمة الرسول فى الحديبية آتت كل هذه الثمار فيما بعد ، ولذلك بشَّره الله بالمغفرة والنصر ، ثم امتدت البشرى إلى جمهور المؤمنين :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار . . » [2].

أما أعداؤهم فلهم الويل فى الدنيا والآخرة ، سينهزمون ويسقط بينهم علم الشرك ولن تغنى عنهم قوتهم ولاحميتهم ، فإن أحدا لن يغلب الله « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما » [3] .

وقد بعث الله محمدا بالحق ليمحو الجاهلية ، ويبنى أمة تقوم بالتسبيح والتحميد ! وكان الصحابة الأقدمون طليعة هذه الأمة العابدة المجاهدة وقد بايعوا على الموت فى ساعة

---

(١) الفتح : ١ ـ ٣.　(٢) الفتح : ٤ ـ ٥ .　(٣) الفتح : ٧.

الحرج ! ماتخلّف منهم أحد . ولا عجب، فهم يحبون لله ويموتون فى سبيله ، ومن ثم قال الله فيهم « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » (١) .

ولقد صدقوا لله جميعا فأعلن رضاه عنهم ، وكافأهم بالخير العاجل والآجل « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا. ومغانم كثيرة يأخذونها . . . » (٢) .

إن سورة الفتح نزلت مع عودة المسلمين إلى المدينة فطمأنتهم وأراحتهم ، ثم كشفت لهم حقيقة القوم الذين تخلفوا عن الخروج معهم، وعلمتهم مايقولون لهم ومايؤدّبونهم به . لقد قرر المسلمون العمرة ، واستعدوا للخروج، والمنافقون من أهل المدينة يقولون فى أنفسهم : لن يعودوا، ستؤدبهم قريش وتنزل بهم هزيمة نكراء !

والغريب أن هؤلاء المنافقين لم يستفيدوا أى درس من هزيمة الأحزاب الذين فشلوا فى اقتحام المدينة. ويبدو أن النفاق متغلغل فى أعماقهم، فهم يتربصون الدوائر بالمسلمين ،ويفسّرون الأحداث بما يكمُن فى نفوسهم من غلّ ، فإذا أحرجوا لجئوا إلى الكذب .

« سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا .بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزيِّن ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا » (٣) .

والمنافقون أعرف بطبائع المشركين ، لأنهم ذرية بعضها من بعض. وقد أدركوا أن قريشا لن تأذن للمسلمين بدخول مكة ، وأنه إذا دار قتال فسوف ينهزم المسلمون فيه لأنهم قلّة. ولاريب أنهم فوجئوا بعودة المسلمين سالمين ، وأن العمرة المنشودة أُجِّلت للعام القادم ، وأن الله مكر للمسلمين ورتّب الأمور بما يضمن لهم الخير والفوز .

« ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما»(٤) .

ومن رحمة الله أنه أبقى باب التوبة مفتوحا لمن شاء العودة إلى الله من المنافقين ! لكنه اشترط عليهم أن يتركوا عبادتهم للدنيا ، وحرصهم على المنفعة الخبيثة ورغبتهم فى اللعب على الحبلين!!

---

(١) الفتح : ١٠. (٢) الفتح : ١٨ـ١٩. (٣) الفتح : ١١ـ١٣.
(٤) الفتح : ١٤ .

ولن تصحّ توبتهم إلا إذا قاتلوا الكفار الأشداء، وثبتوا فى حربهم .

« قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما »(١) .

مَنْ هؤلاء أولو البأس الشديد ؟

قيل : هم هوازن وثقيف يوم حنين . وقيل هم قبيلة مسيلمة الكذاب بنوحنيفة المرتدون . وقيل هم الفرس والروم . وأيا ماكانوا ، فإنه قتال يحتاج إلى الفداء والصبر، وبذلك يختفى كل أثر للنفاق !

وقد حاول المخلّفون أن يشاركوا المسلمين فى قتال خيبر لينالوا من غنائمها ، ولكن الله أبى ذلك، فما وُصِف اليهود بأنهم أولو بأس ؟ وانتصاراتهم فى هذه الأيام العجاف إنما كانت على علمانيين أو قوميين لايرفعون للإسلام علما ، ولايرجون من الله تأييدا !

« سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لايفقهون إلا قليلا »(٢) .

إن فتح خيبر والاستيلاء على ثروتها جعله الله مكافأة لمن حضر الحديبية، وقد تم لهم ذلك بعد ٤٠ يوما من عودتهم .

كان فتح خيبر بعد زهاء عشرين سنة من بدء الدعوة الإسلامية، وخيبر أقوى وأغنى المستوطنات اليهودية شمالىّ الحجاز ، وبالقضاء عليها سقطت راية اليهود وانتهت الدويلات التى أوَوْا إليها فى هذه البقاع، واستراحت الدنيا من عربدة اليهود حين تقوم لهم سلطة !

إنهم ماخدموا الوحى الذى أنزل عليهم ، ولاشرفوه بمسلك نبيل ، ولاحاولوا إنقاذ العرب من الوثنية التى شاعت بينهم ، بل على العكس ظاهروا الوثنية ضد نبىّ التوحيد وتمنوا أن يعود المسلمون إلى عبادة الأوثان وألاّ تقوم لهم قائمة !

آفة اليهود أنهم جعلوا الدين قومية لهم أو شارة تميزهم عن غيرهم ، وكأن الله رب إسرائيل خاصة وليس رب الناس أجمعين .

وعندما زعموا لأنفسهم منزلة خاصة عند الله لم يقدموا لهذا الإله ما يقربهم عنده زلفى ، بل أشاعوا الخنا والربا وعبدوا الحياة الدنيا ، كأن الدين تركة آلت إليهم ليستكبروا على الشعوب !!

ومع أن النبى العربىّ حاسنهم أول ماهاجر إلى المدينة ونزل بجوارهم ، فقد بيّتوا له الشر

(١) الفتح : ١٦.   (٢) الفتح : ١٥.

وأضمروا الغدر ، فنزل قوله تعالى : «ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير »(١) .

ولقد أتى الله بأمره ، وعاقب اليهود مرة بعد أخرى علّهم يرعوون ! فلما أصرّوا على بغيهم أسقط آخر حصونهم أول السنة السابعة من الهجرة ، وجرّدهم من القوة التى كانوا يعتمدون عليها فى بغيهم ، وجعلهم وأموالهم مغنما للمسلمين الذين كانوا يجرون أقدامهم جرّاً من الإعياء والمسغبة .

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكفّ أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »(٢) .

وقد جعل الله هذا الخير لمن سار معه إلى الحديبية وبايع تحت الشجرة !!

وقد بينت سورة الفتح الحكمة الإلهية فى رفض الرسول مقاتلة المشركين فى مكة . إنه لو قاتلهم لأنزل بهم هزيمة ثقيلة كما قال تعالى « ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لايجدون وليا ولانصيرا»(٣) .

فلم إذن تركهم ؟

لتبقى أولا للحرم مكانته المتوارثة ، ولأمر آخر خطير ، فإن الإسلام فشا فى كل مكان ، واعتنقه ناس كثيرون فى مكة نفسها، ولكن ضغط الكفر جعلهم يُسرُّون إيمانهم مخافة أن يُفتك بهم فلو دارت رحى الحرب وأعمل المسلمون السيف فى أهل مكة لشمل الأذى هؤلاء المؤمنين المجهولين ، وقُتلوا مظلومين .

قال تعالى : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدُخل اللهُ فى رحمته من يشاء لو تزيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما»(٤) .

وعلى كل حال فإن المسلمين الذين منعوا من أداء النسك فى السنة السادسة ، تمكّنوا من أدائه فى السنة السابعة ثم دخلوا مكة فاتحين فى السنة الثامنة !

كم قتيلا سقط خلال هذه السنين ؟ عدد يُحصى على الأصابع !!

---

(١) البقرة : ١٠٩ . (٢) الفتح : ٢٠ . (٣) الفتح : ٢٢ .
(٤) الفتح : ٢٥ .

إن الإسلام ضنين بالخسائر فى الأرواح من الفريقين. ولو أُحصى القتلى منذ بدأ الإسلام دعوته إلى أن أقام دولته ، لكانت أقل كثيرا جدا من القتلى الذين سقطوا فى مذبحة « سان بارثليميوا » فى ليلة واحدة بين الكاثوليك والبروتستانت . .

ولكن ديننا مبتلى بالأفاكين ومروِّجى الإشاعات الفاجرة !!

وفى الأحداث التى وقعت ، من الحديبية إلى مابعدها ، يقول الله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا» [1] .

ثم جاءت هذه الآية التى نطيل النظر إليها « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيدا »[2] .

صريح هذه الآية أن النصر حليف الإسلام فيما مضى ومابقى من الزمان ، وأنه حتى تقوم الساعة سوف تبقى راية الإسلام خفاقة ، كما جاء فى الحديث « أمتى كالغيث لايدرى أوله خير أم آخره »[3] . لكن النصر له مؤهلات لابد من توافرها فى الجيل الذى يحرزه ؛ فمن فقد هذه المؤهلات لم يتحقق له أمل ، ولا يلومن إلا نفسه ولن يضر الله شيئا .

والآية التى ختمت سورة الفتح شرحت خواص الأمة المنتصرة الوارثة قال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . » [4] .

وأقف عند هذه الجملة لأوازن بين وضعين قرأتهما فى أسبوع واحد !

قرأت أن إحدى الحكومات العربية قتلت فى إحدى حملات التطهير ثلاثة عشر أصوليا من المسلمين !! وقرأت كذلك أن الوسيط الأمريكى بين سوريا وإسرائيل عرض على اليهود أن سوريا ستبذل جهدها فى البحث عن أربعة أو خمسة جنود يهود قتلوا أو جرحوا أو أسروا فى لبنان من بضع سنين. إن إسرائيل تريد جثثهم إن كانوا موتى وتريد أشخاصهم إن كانوا أحياء . إن الشعب اليهودى حريص على أبنائه أشد الحرص !!

لقد قارنت الخبرين وعرفت الفرق فى هذا العصر بين الأمتين !! كنا قديما كما وصف الله «أشداء على الكفار رحماء بينهم» [5] . أما اليوم فقد انتقلت هذه الصفة إلى غيرنا ، فما

---

(١) الفتح : ٢٧ . (٢) الفتح : ٢٨ . (٣) حديث شريف .
(٤) الفتح : ٢٩ . (٥) الفتح : ٢٩ .

نتراحم، بل نتزاحم على أسباب الخصام ، فمن ظفر بأخيه أزهق روحه ، وكما قيل :

سريع إلى ابن العم يلطم خدَّه   وليس إلى داعى الندى بسريع !!

فكيف يقترب النصر ؟! وبم تستحق الأمة ميراث الأرض ؟!

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

من حق الكبار أن يوقَّروا ، وأن توفَّر لهم شارات الاحترام ، كما أنه من حق الصغار أن يُرحَموا وأن تحّف بهم أسباب العطف . وقد جعل النبىّ ﷺ ذلك من أركان المجتمع المسلم « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » [(١)] .

والرجل فى سلطانه لايفتات عليه ولايجوز أن يجىء أحد فيحاول فى حضرته إثبات نفسه بالأمر والنهى والتقديم والتأخير والاقتراح والاعتراض !

وفى سورة الحجرات جملة من الآداب التى تزين الأمة وتصون كيانها ، أولها أدب المسلمين مع رسولهم ، ثم آداب المسلمين بعضهم مع بعض ، ثم علاقة الأمة كلها بسائر الأمم .

فى أدب المسلمين مع رسولهم يقول جل شأنه « يأيها الذين آمنوا لاتقدّموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم . يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض . . . »[(٢)] .

وسبق فى سورة النور « لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . . » [(٣)] .

وللرسول ﷺ أسلوب خاص فى ندائه وفى محادثته يتسم بالتواضع وخفض الصوت والتزام الأدب . إنه مبلِّغ عن الله ومترجم عن هداه؛ فتوقيره دين ، وحسبه من المتاعب مايلقى من الكفار والمنافقين . والذين يلتزمون الأدب مع رسول الله لهم عند الله مكانتهم وأجرهم ، أما الجفاة وفاقدو الخلق فلهم شأن آخر .

ومن صدق الإيمان التثبت عند سماع الأخبار ، فرب شائعة لا أصل لها أحدثت فتنة بالغة « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين» [(٤)] .

والمعروف أن الشيطان يرقب أبناء آدم ويستمع إلى حديثهم يحاول أن ينزغ بينهم ، فإذا وجد خطأ صغيرا حاول تنميته ليكون خطيئة ضخمة ، وليجعل من الشرر التافه نارا مستعرة . وأكثر القتال الذى يدور بين الناس يتولد من هذا البلاء . وعلى جماعة المسلمين أن تسارع إلى تدارك

---

(١) حديث شريف.

(٢) الحجرات : ١ ـ ٢ . (٣) النور : ٦٣ . (٤) الحجرات : ٦ .

الموقف وإصلاح ذات البين، فإذا اعتزّ أحد بالإثم وحاول البغى تظاهر عليه الجميع ووقفوه عند حدّه .

وقد رأيت معارك نزفت فيها دماء غزيرة وأعقبها خسار واسع لأن المسلمين ضعفوا عن قول الحق للمعتدى وعجزوا عن ردِّ بغيه فكانت النتيجة أن هانت الأمة كلها وطمع فيها أعداؤها «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين» (١) .

إن ضعف رباط الأخوة الإسلامية نذير شر ، وهو ذريعة إلى تدخل غير المسلمين كى يستغلوا الأوضاع المائلة لمصالحهم الخاصة ، والإسلام هو الخاسر أولا وآخرًا . . !

وسورة الحجرات تلفت أنظارنا إلى أخلاق رديئة يجب البعد عنها .

فمن الرعونة ومن التطاول الباطل أن تسخر من الآخرين حاسبا نفسك أفضل منهم . إنه لايعرف حقيقة الفضل إلا الله تعالى .

ومكانة أى إنسان تقررها معادلات دقيقة بين وراثته وبيئته، أو بين طباعه الخاصة والتيارات التى تحيط به وتهبّ عليه . ومن يدرى؟ فقد تسخر من امرئ نجح حيث رسْبتَ أنت ! فتقدم وتأخرت ! «يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهن . .» (٢) .

ورفض الإسلام اللمز والتعيير والتجسس وظن السوء والغيبة والنميمة . والمؤسف أن أغلب مجالس الناس لاتخلو من هذه الآفات ، ولو كفّ الناس عنها لقضوا نصف أعمارهم صامتين . . !

لو غربل الناس كيما يعدموا سَقَطاً   لما تحصَّل شىء فى الغرابيل !

وعلينا نحن المسلمين أن نعرف رسالتنا بين الناس . إننا لم نُخلق لننظر إليهم من أعلى . إننا أصحابُ رسالة كُلِّفنا بشرحها بالأدب والحكمة والرحمة والحب . وأخشى أن يكون فشلنا فى صبغ العالم بها يرجع إلى سوء عرضنا وفشل أسلوبنا . . ! «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . .» (٣) .

وقد ختمت السورة بشرح حالة الأعراب الذين دخلوا فى الإسلام دون أن يتقيدوا بآدابه أو يلتزموا بأحكامه . إنهم نموذج لأقوام ورثوا الإسلام عنوانا ولم يحملوه موضوعا ، فكانت قلوبهم خالية من اليقين ، وكانت أعمالهم بعيدة عن الصلاح .

---

(١) الحجرات : ٩ .   (٢) الحجرات : ١١ .   (٣) الحجرات : ١٣ .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم . . . »[1].

وقد نبّه الله هؤلاء إلى أن عملهم هو الذى يحكم لهم أو عليهم .

« و إن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا . . . » [2].

فإذا خذلوا الإسلام حين يتطلب النصرة أو تركوا شمائله حين يتطلب الأدب أو ضعف يقينهم حين تعرض الأزمات ، فليسوا بمسلمين ! « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون» [3].

وفى هذا العصر نجد من عامة المسلمين وخاصتهم من يشبهون أعراب الأمس البعيد ، فهم ينتمون إلى الإسلام ولايلبون له نداء أو يؤازرونه فى محنة .

---

(١) الحجرات : ١٤. (٢) الحجرات : ١٤. (٣) الحجرات : ١٥ .

سورة ق

فى سورة قَ حديث عن البعث والجزاء سبقته الأدلة العقلية التى تشير إلى عظمة القدرة وسعة العلم وإمكان النشأة الآخرة !

وقد تدبرت هذه الأدلة وأنا أرقب الطعام الذى أتناوله . إن بعضا منه يتحول إلى طاقة ترفع حرارة الجسم ، كيف ؟ لا أدرى ! وبعض آخر يتحول إلى خلايا تسرى فيها الحياة ، ويتكون منها العظم واللحم ، وتزدحم فيها خصائص الأجداد والأحفاد . كيف ؟ لا أدرى .

ويصف علماء الحياة الخلية بأنها كائن يشبه مدينة بها ميادين وحارات وبها أسلاك كهرباء ومواسير مياه !! مع أن الخلية لاترى بالبصر المجرّد !

والجزء الباقى من الطعام يعود « بالصرف الصحى » إلى الأرض، ليخرج منها مرة أخرى كيزان أذرة أو سنابل قمح أو شماريخ بلح يأكلها الإنسان ويجدّد القصة التى شرحناها آنفا !

فى كل جسد موت ونشور يتكرران فى كل ساعة من ليل أو نهار ! فهل أستغرب إذا قال الله « قَ والقرآن المجيد» [1] ـ لتبعثن ـ « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب . أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد . قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ»[2] .

لماذا تكون إعادة الخلق عجيبة ؟ أليس هو الخالق الأول ؟

ألا نرى التفاعل المستمر بين أجسادنا والتربة التى نعيش فوقها ؟ إن فى كل لحظة بعثا ولكن الكافر بليد ذاهل !

لقد بنى القرآن الإيمان على حركة العقل الباحث اليقظ ، ثم صاغه فى قالب من البيان المعجز.

قال الرواة إن إحدى الصحابيات حفظت سورة « قَ . . » من فم الرسول وهو يخطب بها يوم الجمعة ، لقد أنتقشت الكلمات فى ذهنها ، وثبتت على التكرار ، ثم تحولت فى سلوكها إلى خلق وعبادة ومنهج حياة .

---

(١) ق : ١ .　　(٢) ق : ٢ـ٤ .

والبعث عندنا ليس فكرة نظرية ، إنه شعور حيّ يستولى على الإنسان وهو يفعل أو يترك .

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »(١) .

إن الفارق بعيد بين حياة الإيمان والحياة التى تقدمها الحضارة المعاصرة ، إنها حضارة قلَّما تذكر الله أو تستعد للقائه أو تشعر بإشرافه !

وقد فشلت الأديان السائدة فى إنعاش الضمير الدينى وتعويده رقابة الله . . والموت عند أغلب الأوروبيين والأمريكيين نهاية الوجود ، وسيكون مابعده مفاجأة لم يحسب لها حساب « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» (٢) .

ومن العرب المسلمين (!) من جرفهم هذا التيار ، ومن رفض ضبط الدنيا لحساب الآخرة . فهو يقول مع « الزهاوى » : ولا أبدِّل موهوما بمحسوس ! الآخرة عنده وهم كما هى عند سادته ! وستنتهى الدنيا حتما ويحصد الناس ماقدموا فيها .

وفى سورة ق نجد مشهدين :

الأول للملَك الذى يُحصى على الكافر ماصنع « وقال قرينه هذا ما لدىّ عتيد . ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب» (٣) .

وهنا يقول القرين من الشياطين الذى كان يقوم بوظيفة الإغواء وتزيين الشر « ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد » (٤) يعنى أنه كان فاسدا قبل أن أفسده!

« قال لاتختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد مايبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد »(٥).

وحديث القرين هنا عن صاحبه المجرم قريب مما ورد فى سورة الأنعام « يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجّلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها . . . »(٦) .

أما المشهد الثانى فعن مصير الأتقياء الأخيار « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » (٧) .

ومع أن الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء ، فإن الله قد يعجل بعض العقوبات للمجرمين

---

(١) ق : ١٦ـ١٨ . (٢) ق : ٢٢ . (٣) ق : ٢٣ـ٢٥ .
(٤) ق : ٢٧ . (٥) ق : ٢٨ـ٢٩. (٦) الأنعام : ١٢٨ .
(٧) ق : ٣١ـ٣٤ .

لتكون نكالا وعبرة ؛ فهل ارعوى الطغاة وتابوا ؟ كلا « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص »[1]؟

وعادت سورة ق كما بدأت تتحدث عن العالم وخلقه ، فذكرت أن الله أوجد الكون بقدرته ، ولم يشعر بإعياء فى هذا الإيجاد ! وكيف يشعر بتعب، وأمره بين الكاف والنون ؟ ولو شعر بتعب بعد الخلق ، فكيف سيدير السموات والأرض ويوفر الطعام لأعداد هائلة من الإنسان والحيوان على امتداد العصور ؟ وكيف يسخر النجوم فى مداراتها الرحبة ؟ إنه إذا تعب أولا فسيتعب ثانية وثالثة !! ويفلت من يده نظام العالم ! ولذلك قال « ولقد خلقنا السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ومامسّنا من لغوب »[2] .

والحق أن نسبة التعب إلى الله حماقة وقع فيها ناس تائهون ، ولكن القرآن الكريم نزّه رب العالمين عن هذا اللغو وأثبت له مايستحق من أمجاد ومحامد . .

والقرآن فى بنائه للإيمان يعتمد على العقل الإنسانى ، ورفضه للترهات ، ولذلك ختمت السورة بأن محمدا ليس حاكما عسكريا يغيّر العقائد بالقوة كما يغير الأوضاع المدنية أو الاقتصادية . إنه مذكر صادق وناصح مخلص .

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »[3] !

إن هذا التذكير هو عمل الأنبياء والدعاة إلى آخر رمق . وقد ذكر بعض المفسرين أن ذلك قبل نزول آيات القتال. وهذا ذهول معيب، فإن القتال لحماية الدعوة وصون الحقوق ، وليس للإكراه على الإيمان ! ولم يكن محمد جبارا يوما ما ، ولا أكره أحدا على الدخول فى دينه قط .

---

(١) ق : ٣٦ . (٢) ق : ٣٨ . (٣) ق : ٤٥ .

سورة الذاريات

بدأت سورة الذاريات بعدة أقسام تحتاج إلى التأمل ، أولها القسم بالرياح ، فإننا لوحُرمنا الهواء اختنقنا ومتنا .

وقد تساءلت عما يملأ صدرى من هذا الهواء : هل نتبادله نحن البشر ؟ هل ماتُخرجه رئتاى من هواء يذهب إلى آخرين ؟

إن تيارات الهواء تصعد وتهبط فوق ظهر الأرض، ثم تهبّ الرياح فتذهب بها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ! وقد يذهب ما ملأ صدرى منها إلى شخص آخر فى أوروبا أو آسيا !! من يعلم ذلك ويحدّده ويتابعه ؟ الله وحده !

ثم إن هذه الرياح تحمل السحب التى ينتظرها العطاش من البشر والدواب ، أو تنتظرها الأرض الميتة لتحيا .

ونحن فى مصر لانعوّل على الأمطار فى معايشنا . إن النيل يحمل لنا مايروينا ، لكن من أين ؟ الأمطار الموسمية القادمة من المحيط الهندى تهمى سيلا بعد سيل ، ويتصل عبابها شاقًّا طريقه من وسط إفريقية إلى شمالها ، فنشرب فى القاهرة والإسكندرية من هذا الغيث الذى قطع آلاف الأميال إلى أفواهنا . .

إن الهواء الرقيق الخفيف يحمل هذه المقادير من المياه التى يجرى بها نهر كبيرا «والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع» (١) .

لقد كنت أعجب من أن الهواء فى إطارات السيارة يحمل أثقالا باهظة ، حتى التفت إلى أن أنهار الأرض يحملها هذا الهواء سحُبا قبل أن تنزل إلينا مطرا. وقد أقسم الله بالرياح على أن الجزاء حق ، وأن البشر مسئولون بعد قليل عما قدموا وأخّروا !

ثم جاءت بعد ذلك أقسام أخرى. « والسماء ذات الحبك. إنكم لفى قول مختلف » (٢) .

إن آفاق السماء محبوكة لاتسيُّب فيها ولا فوضى، ومايسبح فيها يتم وفق نظام رتيب .

---

(١) الذاريات : ١ ـ ٦.   (٢) الذاريات :٧ـ٨ .

وندع السماء إلى الأرض « وفى الأرض آيات للموقنين » .[1] قلت : ما أثقلنا على ظهر الأرض ، وما أثقل الأرض نفسها فى الفضاء . ومع ذلك تنطلق بها تحمل لاتنوء ولاتزيغ !

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون . وفى السماء رزقكم وماتوعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون» [2] .

إن جسم الإنسان جهاز بالغ التعقيد ، سبحان من خلقه وصوّره وشق فيه سمعه وبصره . ومع ذلك يجلس على أريكته امرؤ مغرور يقول : لا إله والحياة مادة ! إذا كانت مادة ، فمن بناها وضبطها ووضع لها نظمها؟

إننا ندع وسط السورة لننظر فى خواتيمها جواب هذا التساؤل « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»[3] .

إن الملحد بغبائه وغفلته يوشك أن تدهمه كارثة تودى به ، ولذلك يقول الله له ولمثله « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولاتجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين»[4] .

لكن الكافرين أوتوا من سلاطة اللسان بقدر ماحُرموا من نعمة التوفيق ؛ فهم يصفون الدعاة إلى الله بالسحر والجمود والتخلف العقلى!

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون»[5] .

وطغيانهم هو الذى أودى بهم بعد مرحلة من الابتلاء .

وقد وصفت سورة الذاريات فى وسطها مصاير عدد من هؤلاء الأقوام، وبدأت بحديث عن ضيف إبراهيم المكرمين، وهو حديث يكشف عن سوء فهم الكتابيين للألوهية، وتأثر عقولهم بالفكر الوثنى !

لقد كان ضيوف إبراهيم عددا من الملائكة جاءوا بأنباء سارة عن أن الله سيرزقه بغلام عليم ، كما أخبروه أن الله سيدمّر القرى النجسة التى عجز لوط عن إصلاحها . . .

لكن العهد القديم ساق القصة على نحو آخر ، فذكر أن الله هو الذى تناول الغداء مع إبراهيم ، وأن إبراهيم قدّم لرب العالمين مائدة فاخرة عليها عجل مشوىّ وخبز ، وأن الله أكل حتى امتلأ! !

هذا ماذكره الكتاب المقدس .

---

(١) الذاريات : ٢٠ . (٢) الذاريات : ٢١ـ٢٣ . (٣) الذاريات : ٤٧ـ٤٩ .
(٤) الذاريات : ٥٠ـ٥١ . (٥) الذاريات : ٥٢ـ٥٣ .

أما القرآن المتّهم عند أهل الكتاب ، فقد تنزه عن هذا السياق جملة وتفصيلا ! لأنه لم يقدر الله حق قدره . . . !!

يُقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ماليس بالحسن !

وتحدثت السورة عن فرعون وجيشه ، وكيف استباحوا بنى إسرائيل « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم»[1] ـ ارتكب مايلام عليه ـ لقد رُمِىَ فى البحر كما تلقى النواة ، ماكلَّف القدر جهدا ، ومابكت عليهم السموات والأرض . .

وذُكرت عادٌ التى كانت تتساءل : من أشد منا قوة ؟ « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم»[2] .

لقد بادوا دون مقاومة . . وكذلك غيرهم من القرى الظالمة ، إن الله بعث إليهم من يعرفهم به ويذكرهم بلقائه ويطالبهم بحقوقه ، بيد أنهم عتوا واستكبروا فأبيدوا . .

إن الله لايحتاج إلى خلقه، إنه عنهم غنىّ ،وعندما يكلفهم بعبادته ، فما يكلفهم إلا شكر نعمته والشعور بعظمته والفقر إليه ، فهل هذا تكليف معنت ؟

« وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[3] .

على أن الكنود الذى يبديه الناس نحو ربهم لن يمردون مؤاخذة ، سيلقون مالقيه آباؤهم الأقدمون . « فإن للذين ظلموا ذَنوبا مثل ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون»[4] .

إنه عقاب واحد ومصير مشترك « فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون»[5] .

---

(١) الذاريات : ٤٠ . (٢) الذاريات : ٤١ـ٤٢ . (٣) الذاريات : ٥٦ـ٥٨ .
(٤) الذاريات : ٥٩ . (٥) الذاريات : ٦٠ .

سورة الطور

سورة الطور نموذج لطيف لعمل القرآن الكريم فى النفس عندما يطلع عليها بالهدى، كما يطلع الصبح على الليل فيمحو ظلامه ويضىء أركانه !

كان جبير بن مُطْعم مشركا قدم المدينة بعد هزيمة بدر التى لحقت بقومه ليفاوض فى فكاك الأسرى ، ودخل المسلمون المسجد ليصلوا المغرب وراء نبيهم ﷺ وبقى هو خارج المسجد ! واستمع إلى سورة الطور يقرؤها النبىّ فى الصلاة ، فتغيرت نفسه واهتز الشرك فى ضميره ، وأحس كأن الوحى المتلوّ يسحق بقايا الكفر فى نفسه ويكتسحها اكتساحا .

قال جبير سمعت النبىّ يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية « أم خُلِقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون »(١) . كاد قلبى أن يطير . . !!

وفى رواية أخرى يقول جبير قدمت المدينة على رسول الله لأكلمه فى أسارى بدر . فدُفعت إليه وهو يصلى بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ « والطور . . . » إلى «إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع » (٢) ، فكأنما صدع قلبى . . فأسلمت خوفا من نزول العذاب ! وماكنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب .

لقد ترك الرجل أوثانه ونجا . وما أكثر الذين أخرجهم القرآن من الظلمات إلى النور !

والقرابة قائمة بين الوحى القديم والوحى الجديد ، فمن جانب الطور نودى موسى ليحمل عبء الحرب على الفراعنة ، ومن جانب البيت المعمور نودى محمد ليرسى دعائم التوحيد ، ويقيم الدين على الحقائق لا على الأوهام .

ويبدو أن الرّق المنشور صحائف موسى ، وأن البحر المسجور هو البحر الأحمر حيث أغرق فرعون وقضت اللجج على ألوهية مُزوَّرة ـ وهـذا رأى العلامة ابن عاشور .

وقد تذكر فى تفسير هذه الأقسام التى بدأت بها السورة أقوال أخرى لانقف عندها .

والذى نُريد توكيده أن موسى أخذ التوراة دينا ودولة، كما أخذ نبينا القرآن دينا ودولة .

---

(١) الطور : ٣٥ ـ ٣٧ .   (٢) الطور : ١ ـ ٨ .

أما عيسى فإن إنجيله جاء على هامش التوراة ، ومنطلقا منها مع بعض تخفيفات محدودة . .

ومهما يكن من شىء ، فإن القرآن تضمّن الصيغة الأخيرة للعقيدة والشريعة ، وسُطّر فيه الوحى الباقى إلى آخر الدهر ، وهو الوثيقة الفريدة للوحى الذى تلقاه الأنبياء الأوائل .

وقد أكدت سورة الطور الوعيد لأعداء الوحى ، وهم أهل لمستقبلهم المظلم . . أما المتقون ، فلهم غدٌ باسمٌ ، ونعيم مقيم ، صنعوه بزكاة النفس وطهارة اليد واستقامة النهج .

« إنا كنا قبلُ فى أهلنا مشفقين . فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبلُ ندعوه إنه هو البر الرحيم »[1] وبعدما سبق من وعيد ووعد ، جاء فى منتصف السورة أمر لرسول الله بالمثابرة على الدعوة ، وملازمة التذكير « فذكِّرْ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »[2] . من أين تأتى الكهانة لدين الفطرة ، أو يأتى الجنون لدين العقل ؟

إن شرف الإسلام قائم على أنه إنسانية رفيعة تأبى العوج والخطأ والتصنُّع والشرود !

ولذلك جاء بعد ذلك خمسة عشر استفهاما متعاقبات كأنها خمس عشرة صدمة كهربائية تنقل المرء من حال إلى حال ، وترغمه على التفكير فى الحال والمآل :

١ ـ « أم يقولون شاعر نتربَّص به ريب المنون ؟ قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين »[3] . ليس محمد شاعرا « وما علمناه الشعر وماينبغى له »[4] . وكتابه مشحون بالحقائق لا بالخيالات « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل »[5] .

٢ ـ « أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ »[6] ؟ إن ذوى العقول يترفعون عن اختلاق هذه التهم .

٣ ـ « أم هم قوم طاغون ؟ »[7] ؟ الطغيان هو الباعث الأول على التكذيب .

٤ ـ « أم يقولون تقوّله بل لايؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »[8] . لو كان القرآن كلام بشر فما يمنع البشر من الإتيان بمثله ؟

٥ ـ « أم خلقوا من غير شىء . . »[9] . إن الصفر لايوجد شيئا .

٦ ـ « أم هم الخالقون »[10] ؟ إن الإنسان مخلوق مربوب . وهو لايخلق شيئا .

٧ ـ « أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون »[11] . لقد وجدنا فى عالم ممهَّد لنا لم نصنع من ذراته ولامجراته شيئا .

---

(١) الطور : ٢٦ ـ ٢٨ . (٢) الطور : ٢٩ . (٣) الطور : ٣٠ ـ ٣١ .
(٤) يس : ٦٩ . (٥) الإسراء : ١٠٥ . (٦) الطور : ٣٢ .
(٧) الطور : ٣٢ . (٨) الطور : ٣٣ ـ ٣٤ . (٩) الطور : ٣٥ .
(١٠) الطور : ٣٥ . (١١) الطور : ٣٦ .

٨ـ « أم عندهم خزائن ربك »[١] أغلب الكافرين يتساءلون لماذا اختير الأنبياء من بيننا ؟ ولماذا لم يقع الاختيار علينا ؟

٩ـ « أم هم المسيطرون »[٢] ؟إذا كانت لهم سطوة فليجربوا حظهم ، « إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه »[٣] .

١٠ ـ « أم لهم سلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين »[٤] . إن تيسَّر لهم وحى فليجيئوا به ، وهيهات .

١١ ـ « أم له البنات ولكم البنون »[٥] ؟ إن مشركى مكة يستكبرون أن تكون لهم بنات ، ومع ذلك يقولون إن لله بنات !

١٢ ـ « أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون »[٦] . إن الأنبياء لايسألون الناس شيئا ولايطلبون منهم دنيا .

١٣ ـ « أم عندهم الغيب فهم يكتبون »[٧] . ليس لدى الكفار علم من غيب أو شهادة .

١٤ ـ « أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون »[٨] . قد يطول الصراع بين الحق والباطل ولكن العاقبة للمتقين .

١٥ ـ « أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون »[٩] . ماعدا الله باطل .

وبعد هذه الأسئلة قال الله تعالى : « وإن يروا كِسْفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم »[١٠] . أى إنهم أهل عناد ومكابرة ، لايذعنون للحق وأدلته أبدا .

ولذلك قيل للرسول تربَّص بهم أياما يذلّون فيها للحق ، ويعرَوْن فيها من أسباب القوة ، واشتغل أنت بالعبادة والجهاد « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا »[١١] .

---

(١) الطور : ٣٧ . (٢) الطور : ٣٧ . (٣) غافر : ٥٦ .
(٤) الطور : ٣٨ . (٥) الطور : ٣٩ . (٦) الطور : ٤٠ .
(٧) الطور : ٤١ . (٨) الطور : ٤٢ . (٩) الطور : ٤٣ .
(١٠) الطور : ٤٤ . (١١) الطور : ٤٨ .

سورة النجم

للعلم الإنسانى مصادر معروفة ، أولها العقل ثم الحواس الخمس . وهناك مصدر ثالث اختص به بعض الناس وهو الوحى الصادق . أشار إليه يعقوب عندما قال لأبنائه : « وأعلم من الله مالاتعلمون »[1] .

ومن تلقى شيئا من العليم بكل شيء ، فقد اكتسب علما لاريب فيه ! والله لايهب من علمه لكل إنسان . فالناس معادن ، ولايحمل الوحى إلا عباد مصطفون ، عباد لهم طباع سماوية تأنف من الإسفاف والافتراء ، تأفل النجوم وهم لايأفلون وتغرب وهم لايغربون !

ومحمد من هؤلاء أو قل : هو إمام هؤلاء !

وسورة النجم تصف كيف تلقى الوحى فتقول « والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرّة . . . »[2] .

لقد سبق أن نودى موسى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، ليكون راعيا للناس بعدما رعى الغنم سنين عددا . وهاهو ذا كبير الأنبياء الذى اعتزل الناس فى غار حراء يجيئه الملك فى صورته المهيبة ليبدأ مشوار الدعوة الكبرى .

ماكذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى »[3] ؟

والوحى المحمدى أساسه الحقيقة التى غابت عن كثيرين وحرمت من معرفتها أجيال .

« إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى »[4] .

وهناك أديان أرضية وأخرى سماوية غام أفقها وانتشر فيه دخان من الأوهام والأباطيل ، فشاع حديث عن الله لايليق ، واصطدم العلم والدين ، وهما حقيقة واحدة . وكم من متدين ظلم الوحى بأهوائه « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئا »[5] .

إن الدين علم مقطوع به والوحى حصانة للعقل وضمانة لأحكامه ، وماخالف العقل لايكون دينا ، ولبعض الناس مرويات لاسناد لها يجعلونها دينا وماهى بدين .

---

(١) يوسف : ٨٦ . (٢) النجم : ١ـ٦ . (٣) النجم : ١١ـ١٢ .
(٤) النجم : ٢٣ . (٥) النجم : ٢٨ .

وقد أصيب الإسلام نفسه بأهل إفك نسبوا إلى رسولهم أنه مدح الأصنام ، وسماها الفرانيق العلا !!

وماروى ذلك محدث ولافقيه ، ومن زعم ذلك فالإسلام منه برىء ، إن النجم قد يهوى لكن محمدا ماهوى قط . .

إن الإسلام نزل ليرسم طريق الإحسان للبشر ، ومع أن الله غنى عن خلقه، إلا أنه يحب لهم الزكاة والرشد ، والقرآن منهاج الاستقامة أو معراج الرفعة ، فمن شاء أحسن ومن شاء أساء « ولله مافى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسعُ المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى »[1] .

والآيات مع نشدانها للكمال تفيد أن لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة ، وأن طبيعة الأرض قد تغلب مهبط الروح ، وأن المكلَّف ينبغى أن يشتد تعلقه بالمغفرة العليا ، وأن يكون تعويله على الفضل الإلٰهى . .

والمنتظر من أولى الألباب إذا عرض عليهم الدين أن يقولوا « ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . . »[2] .

وأن تنضم إلى ذلك رغبة فى التسامى ، وكراهية للإخلاد إلى الأرض .

أما أصحاب العناد والسفه ، فهم ينكصون على أعقابهم ، ويرجعون القهقرى « أفرأيت الذى تولّى . وأعطى قليلا وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى »[3] ؟

وليست هذه المسالك صفات شخص بعينه ، فهى تصوير لنموذج الكفر الشائع قديما وحديثا . وقد رأيت ملاحدة العصر فرأيت الإعراض عن الحق والغرور بالباطل والاستعلاء على الآخرين والجمود على القليل المتاح لهم .

والواقع أن الكفر بمحمد تجاوُزٌ للوحى كله والأنبياء عامة « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى »[4] .

لبُّ الإيمان الانتقال من الخلق إلى الخالق ومن العالم إلى ربه الكبير، فالحىّ والجماد يدلان على الله .

(١) النجم : ٣١ـ٣٢ . (٢)آل عمران : ١٩٣ . (٣) النجم : ٣٣ـ٣٥ .
(٤) النجم : ٣٦ـ٤١ .

ومن يتصور أن الحياة داخل الدودة أو داخل الإنسان نفسه جاءت من داخل هذا الكيان نفسه فهو أحمق ، لا الجرثومة ولا الإنسان يحركان أجهزة الحياة داخل إهابيهما !

من قال : إننى آمر قلبى فينبض أو آمر مخيِّ فيومض بالفكر؟

« وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيى . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفه إذا تمنى »[1] .

إن الحياة فى ذواتنا وفيها حولنا وفى أعقابنا من بنين وبنات ، مفاضة علينا من الوحيد الذى يملك ذلك كله وهو الله سبحانه . .

وقد اغترّ أقدمون فهلكوا ولن يكون المتأخرون أفضل عقبى .

وخواتيم سورة النجم آيات قصيرة عالية الصدى، بعيدة المدى، عميقة الأثر، متطايرة الشرر: «وأن عليه النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى . وأنه هو رب الشعرى . وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى . فبأى آلاء ربك تتمارى »[2]؟

هكذا حصد الله المجتمعات الآثمة ولن يعجزه حصاد ما أشبهها فى الإلحاد والإجرام، فهل يعقل ذلك ملاحدة العصر الحديث ؟!

إن محمدًا ليس إلا واحدا من النذر الأولى ، إلى عقائدهم وفضائلهم دعا « مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك »[3] .

فهل عيبه أنه رفض التعدد فى الآلهة ، وأكد أن الله إلّه واحد ؟ هل عيبه أنه رفض الكهانات وكشف أن رجال الدين لايملكون مغفرة لأنفسهم ولا لغيرهم، وأنهم أناس مثلنا أو دوننا ؟ « أفمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون»[4]؟

---

(١) النجم : ٤٢ـ٤٦ . (٢) النجم : ٤٧ـ٥٥ . (٣) فصلت : ٤٣ .
(٤) النجم : ٥٩ـ٦٠ .

سورة القمر

« اقتربت الساعة وانشق القمر »[1] .ظاهر العبارة أن هذا الانشقاق يقع آخر الزمان مع الاضطراب الفلكى الذى يعترى الأفلاك ومسيرتها .

ومن هذا القبيل ماجاء فى سورة القيامة « فإذا برق البصر . وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر »[2] .

ولكن ورد حديث عن ابن مسعود يفيد أن انشقاق القمر وقع على عهد الرسول ﷺ ، ولكن المشركين رفضوا الإذعان له ، وبقوا على مكابرتهم يزعمون أن الرسول ساحرا ! « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكلُّ أمر مستقر»[3] .

يعنون أن جهد الرسول فى هدم الوثنية وزلزلة الأصنام ذهب سدى .فالعقائد كما هى ، وأوضاع الجاهلية مستقرة لم يستطع المسلمون زحزحتها !

مع أن الوحى النازل يدك الباطل ويمحو الظلمات .

«ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر »[4] .

إنه إذا لم يتحرك الضمير داخل الإنسان ويغريه بالإذعان والإيمان ،فلا غناء فى الدعوة مهما كانت بليغة .

ولقد هدَّد الله المشركين بيوم البعث والجزاء ، ثم ذكر لهم أن الأمم الضالة سوف تلقى مصيرا أليما قبل ذلك « ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله» [5] .

ومن هنا شرعت السورة تحكى فى إيجاز شديد عواقب الضلال والعناد من عهد نوح « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر »[6] .

كنت أسمع هذه الآيات من فم قارئ ندىِّ الصوت وقف على كلمة مغلوب وأطال مدّ الواو

---

(١) القمر ١ . (٢) القيامة : ٧ـ١٠ . (٣) القمر : ٣ .
(٤) القمر : ٤ـ٥ . (٥) الرعد : ٣١ . (٦) القمر : ٩ـ١٠ .

ست حركات مليئة بالقهر والضراعة والاستنجاد، خيِّل إلىَّ أنها امتلأت بآلام تسعة قرون ونصف من جهاد الدعوة، وفشل الاستجابة، ونظرت حولى، فرأيت الدموع تطفر من الأعين رقة لعبودية نوح واستغاثته . !

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر »(١).

وبعد قوم نوح جاءت عاد، وكانت قبيلة مغرورة متكبرة، أوتيت بسطة فى الأموال والأجساد ولم تستحح أن تصف رسولها بالسفاهة وهو يدعوها إلى توحيد الله !

«إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر»(٢).

كانت الريح العقيم تجلد الأرض بأجساد هؤلاء العماليق أو تجلد أجسادهم بالأرض، فإذا هم ممدَّدون على الثرى كجذوع النخل التى طاحت رءوسها « فكيف كان عذابى ونذر »(٣)؟

لقد هلك قوم نوح بالماء وقوم هود بالهواء، وهذه عناصر مأنوسة بيننا، ولكن الله إذا شاء أغرق بالماء، ودمر بالهواء !!

«ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »(٤)؟

وجاءت ثمود بعد عاد، وأبرزت السورة الكريمة خطابها لنبيها صالح لأنه شبيه بما قاله أهل مكة لخاتم المرسلين، قالوا « أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى . . . »(٥). وقبل ذلك « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب»(٦).

ما أشبه ذلك بما قالته ثمود عن نبيها « أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذن لفى ضلال وسعر. أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر»(٧) !! أى مترفِّع دعىٌّ. وقتلت ثمود ناقة صالح التى خلقها الله من الصخر معجزة له، فنزل بهم عذاب حوَّل أشخاصهم إلى غثاء كالهشيم الذى يفرش فى الحظائر وتطؤه الدواب « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر»(٨).

وننتقل إلى المدينة الفاجرة التى طغت شهواتها واستمرأت الشذوذ وفتحت له نوادى تقارفه. إن نبيها الصالح لوطا أعلن مقته لهذه الفاحشة، وحاول تهذيب طباعهم، لكنهم أبوا وحاولوا السطو على ضيوفه من الملائكة، فكانت عقوبتهم دمار مدينتهم.

ويرى بعض المحققين أن تفجيرا ذريا جعل عاليها سافلها وأصاب من رأوه بالعمى ! « ولقد

---

(١) القمر : ١١ ـ ١٢ . (٢) القمر : ١٩ ـ ٢٠ . (٣) القمر : ٢١ .
(٤) القمر : ٣٢ . (٥) ص : ٨ . (٦) ص ٤ .
(٧) القمر : ٢٤ ـ ٢٥ . (٨) القمر : ٣١ .

راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر »[١].

واللواطة معروفة فى الحضارة الحديثة ، وقد أعقبت وباءَ الإيدز المهلك .

والغريب أن التوبة منها لم تخطر بالبال ، وإنما النصيحة المبذولة : اقضوا شهوتكم ، واحتاطوا لصحتكم!! ذلك مايقوله رجال الدين وهم ينشرون الغشاء الواقى . . !

وماذا تنتظر ممن نسى الله ؟

وخُتمتْ سير الأوائل بالحديث عن الفراعنة الذين يحكمون الناس قسرا وينشدون الاستعلاء فى الأرض « ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر »[٢].

ثم قيل لمن يعى الخطاب : إن أعداء الإسلام لن يفلتوا من المصير الذى نال أسلافهم ! «أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر . أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولّون الدبر»[٣] .

وقد تحقق هذا الوعيد، ونزلت بالمشركين هزيمة مُذِلَّة فى معركة بدر طاحت برءوس الكفر وأرغمت أنوفهم ، وماينتظرهم فى الآخرة أقسى « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون»[٤].

وختمت السورة بحديث عن يوم الحساب ، يوم يساق الجزاء العدل للفريقين « إن المجرمين فى ضلال وسعر. يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر»[٥].

أما المسلمون فلهم شأن آخر «إن المتقين فى جنات ونهر. فى مقعد صدق عند مليك مقتدر»[٦].

---

(١) القمر : ٣٧-٣٨ . (٢) القمر : ٤١-٤٢ . (٣) القمر : ٤٣-٤٥ .
(٤) السجدة : ٢١ . (٥) القمر : ٤٧-٤٨ . (٦) القمر : ٥٤-٥٥ .

سورة الرحمن

« الرحمن »[1] من أسماء الله الحسنى ، ويكثر أن يقترن باسم الذات « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن. . . »[2] .

ومن آلاء الله العظمى أنه لم يترك البشر دون هداية تقود خطاهم وترسم هدفهم ، فكان هذا القرآن الكريم جامعا لما أودع فى صحف الأنبياء الأولين ومتضمنا أسباب الرشد للناس حتى قيام الساعة ، فهو فى سورة الآلاء النعمة الأولى على صاحب الرسالة الخاتمة « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم »[3] .

وهو نعمة عظمى على كل من درسه وفقَّه الناس فيه « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[4] لأنه يخلف الأنبياء فى تبليغ الرسالة ومحو الجاهلية « الرحمن . علم القرآن »[5] .

ومن خصائص الجنس البشرى نعمة البيان ونقل المعنى إلى الآخرين بألسنة شتى .

ثم بين جل شأنه أن الكون محكوم بسنن ضابطة ، وأن الكواكب لاتتجوّل فى الفضاء كما يحلو لها ، إن لها مسارا مرسوما وسرعة محددة ، وعليها إشراف دقيق!

وكذلك ماينمو على الأرض من زرع له ساق مرتفعة أوْ له ساق تمتد على الثرى ، كلاهما خاضع لنظام محكم « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون »[6] .

إن جنبات الكون تشبه آلات الساعة التى تحصى الزمن « الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان »[7] .

وقد يظهر الفساد فى البر والبحر بسبب فوضى الناس ! وقد يقع ثقب فى طبقة « الأوزون » بسبب الإسراف والطغيان ،بيد أن قياد الكون لن يضطرب فى يد خالقه ! ولن يختل التوازن العام فى قوانين المادة، إلى أن يأذن الله بفناء العالم وإعادة الخلق بعد بدئه وإفنائه . .

---

(١) الرحمن : ١ . (٢) الإسراء : ١١٠ . (٣) النساء : ١١٣ .
(٤) حديث شريف
(٥) الرحمن : ١ ـ ٢ . (٦) الحجر : ١٩ . (٧) الرحمن : ٥ ـ ٨ .

ونحن مكلفون خلال هذه المدة بإقامة العدل سواء فى تبادل السلع أو فى إعطاء كل ذى حق حقه من الناحية الإدارية والاجتماعية « وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان»[1] .

ومن نعم الله على خلقه ثمرات الزروع والنخيل ، فمع الفواكه الحلوة حبوب فى أغلفتها التى تطير مع الريح كالقمح والأرز ، ويعتمد أغلب البشر عليها فى غذائهم، كما أن تبنها تأكله الدواب . . ثم هناك الورد والريحان متعة لمن شاء . . !

وقد تكررت آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان» [2] إحدى وثلاثين مرة خلال هذه السورة ، والخطاب فيها للإنس والجن المكلفين بعبادة الله فى هذه الدنيا . . .

ويمكن تقسيم السورة كلها إلى أربعة فصول :

الأول تكلم عن الخلق والإبداع .

والثانى عن الفناء والبعث وجزاء المجرمين .

والثالث عن أهل السبق من الطائعين .

والرابع عن الذين يلونهم من المحسنين . .

ومعروف أن آدم خلق من تراب ، ثم من طين ، ثم من صلصال من حمأ مسنون ـ مُنْتن ـ ثم من صلصال كالفخار . . وخلقت ذريته من نطفة ثم علقة ثم مضغة إلخ . .

هذه هى النشأة الأولى . . وسيملأ الناس أرجاء الأرض ثم يغلبهم جميعا الموت « كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » [3] . ثم يستيقظون لمواجهة الحساب، ولن يفلت منهم أحد فأما الصالحون فإلى نعيم مقيم، وأما الفاسدون فيقادون إلى عقبى ماقدموا .

« يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام» [4] . وهؤلاء المجرمون يمرون بمراحل شتى ،فقد يناقشون الحساب حينا ويسألون عما فعلوا ـ كما يقع فى دنيانا ـ لكن بعد البت فى شئونهم لايبقى إلا التنفيذ، فيساقون إلى جهنم . .

وفى توبيخ المقصرين ، وكشف مخازيهم تتكرر هذه الجملة المثيرة « فبأى آلاء ربكما تكذبان»[5] . على نحو أخاذ ، فقد تفصل بين الشرط والجزاء وتكشف عقوق المفرطين فى جنب الله قبل أن يُذكر مايُفعل بهم مثل قوله جل شأنه « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان»[6]

---

(١) الرحمن : ٩ .
(٢) الرحمن : ١٣ .
(٣) الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧ .
(٤) الرحمن : ٤١ .
(٥) الرحمن : ٣٦ .
(٦) الرحمن : ٣٧ ـ ٣٩ .

هذه الجملة الأخيرة جواب إذا ، وقبل أن يكتمل الجواب تكررت الآية « فبأىّ آلاء ربكما تكذبان»[1] .

ثم يجىء الوصف المتمم لعقاب الخونة « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام»[2] . وهذه التكرار ناضح بشدة الغضب الإلّهى على من جحدوا النعم وعاشوا يمرحون فيها دون أن يقدروا صاحبها ! كما يقول الأب الغاضب لابنه العاقّ : أنا - أيها الخائن - أهان ؟! أنا يُنسى أمرى ويهدر حقى أيها العاق الخئون . . . ؟!

وتختم سورة الرحمن بوصف رقيق جميل للجنان التى أعدت للمتقين : هناك جنتان لأصحاب الدرجات العلا « ولمن خاف مقام ربه جنتان» [3] .

ويتكرر الفصل بين الصفة والموصوف كما ذكرنا آنفا فى مثل قوله تعالى يصف الحور العين «فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان » [4] « فبأى آلاء ربكما تكذبان» [5] . «كأنهن الياقوت والمرجان » [6] .

إن حقوق النعمة كبيرة ، وحرام على من استمتع بها ألا يقدرها قدرها . . ! وألا يدفع لها ثمنها .

وهناك جنتان أخريان لجماهير المؤمنين « ومن دونهما جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان مدهامتان » [7] .

مع انتشار الخضرة وشيوع الظلال صح هذا الوصف .

وقد وُصف وادى الفرات ووادى النيل بأرض السواد ، لغلبة الخضرة على الأرض ، وهذه الجنان كلها قرة عين لأصحابها ، جعلنا الله منهم .

---

(١) الرحمن : ٤٠ . (٢) الرحمن : ٤١ . (٣) الرحمن : ٤٦ .
(٤) الرحمن : ٥٦ . (٥) الرحمن : ٥٧ . (٦) الرحمن : ٥٨ .
(٧) الرحمن : ٦٢-٦٤ .

سورة الواقعة

والواقعة من أسماء شتى ليوم القيامة ،مثل الحاقة والقارعة والساعة ، ومعالم هذه السورة واضحة ، فهى تبدأ بحديث وجيز عن انتهاء العالم وبدء الحساب ، ثم تذكر صنوف الناس بعد البعث . . وهم أصحاب السبق البعيد ، وأهل اليمين وأهل الشمال .

وتسوق بعد ذلك خمسة أدلة على أن البعث حق ، وأن إنكاره خبال . وتختم بوصف لرحيل البشر عن هذه الدنيا بالموت ، وبوادر تصنيف الأقسام الثلاثة ، السابقين وأهل اليمين وأهل اليسار .

إن كثيرا من الناس تحت مشاغل العيش ووطأة الشهوات وسكرة الحاضر لايحسون إلا وجودهم المادى الغريب . يقول أحدهم وهو ذاهل : ما أظن الساعة قائمة ! ويقول الآخر : إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر !! وقد يحلفون على هذا المجون ، ويؤكدون ألا حياة بعد الموت « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت »[1] .

وترى ميت الغد يشيع ميت اليوم ، وهو يحدّث صاحبه فيما يراوده من أمل ، ويخامره من طمع غير مستفيد من موكب الموت عبرة ! وتمضى القرون وتطوى الجماهير ، والمنكرون يزيدون ولا ينقصون ، وللكفر صوت عال فى المشارق والمغارب .

وبغتة تقوم الساعة ، ويخرس صوت الإلحاد ، ويتبدد صداه « إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة »[2] . إن الإنسان بطبعه مجادل ، عنيد ولكن ماعساه يقول وقد وقع الهول ؟ لقد جفت حلوق الأفاكين ، فمايقدرون على لغو !

« خافضة رافعة »[3] . هناك رؤساء وملوك سيبعثون سوقة وصعاليك لأنهم ما أعدوا لهذا اليوم عُدّة !! وهناك أخفياء مغمورون سيكونون يوم القيامة قمما ! « ورب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة » إنه يوم تصحيح الأوضاع ، وفناء الزور وجلاء الحق !

ومن المفسرين من يرى الخفض والرفع فى سطح هذه الأرض ، كما جاء فى الحديث « يحشر

---

(١) النحل : ٣٨ . (٢) الواقعة : ١ ـ ٢ . (٣) الواقعة : : ٣ .

الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النَّقى، ليس فيها معلم لأحد »[١] .

الكل حفاة عراة قيام لرب العالمين « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعًا صفصفا . لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا »[٢] .

وكلا التفسيرين يكمل الآخر ، ليس بينهما تدافع ، فهناك زلزال اجتماعى يهدم ماشاء الناس من أباطيل ووضعوا من أنساب وألقاب . وهناك زلزال مادى بدأ وصفه فى قوله تعالى « إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباءً منبثا »[٣] .

مع قيام الساعة تهيج زلازل تهد كل شىء ، وتتحول بها الصخور الصلدة إلى ذرّ كتلك الكائنات الدقيقة التى نراها تسبح فى الشعاع ! « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار »[٤] .

ولسنا ندرى كم نبقى هنا قبل أن تتبدل الأرض ؟ عشرات ومئات من القرون ؟ إن تحديد الرقعة الزمانية غير مهم ، المهم هو إستتابة الحصاد الأخير لهذا التاريخ الطويل .

وقد بين الله سبحانه أن أبناء آدم سيتوزعون على ثلاث زمر « وكنتم أزواجًا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم »[٥] .

ذكرت سورة الواقعة أدلة على أن البعث حق، فذكرت خمسة أدلة متنوعة من آفاق الكون ، وتجارب الناس ! !

الأول « نحن خلقناكم فلولا تصدقون»[٦] . لماذا يتهم صاحب الخلق الأول بالعجز عن الخلق الثانى ؟ إننى عندما أنشئ درسًا أتعب فيه ، فإذا أعدته كان علىّ سهلا !

وتنزلا مع هذا الفكر يقول الله فى آية أخرى « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه»[٧] . وليس عند الله سهل وصعب وهين وأهون ، ولذلك أتبع هذا التنزل بقوله « . . وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم »[٨] .

وقد تكرر هذا الدليل فى سور كثيرة ، وهو بديهى لا يرده إلا مكابر بليد « وقالوا أإذا كنا عظامًا

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٣٧٢ الرقاق رقم ٦٥٢١ .
(٢) طه : ١٠٥ ـ ١٠٧ . (٣) الواقعة : ٤ ـ ٦ . (٤) إبراهيم : ٤٨ .
(٥) الواقعة : ٧ ـ ١٢ . (٦) الواقعة : ٥٧ . (٧) الروم : ٢٧ .
(٨) الروم : ٢٧ .

ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خَلْقًا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة . . . »[(١)] .

والقرآن الكريم يلحّ فى طلب النظر . واستقصاء الفكر فى هذا الوجود لمعرفة البدء والعودة ! إننا موجودون يقينًا فكيف وجدنا ؟ والمتأمل فى النشأة الآخرة ، يرى استبعادها حماقة !

« أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الأخرة إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون »[(٢)] . وقد لخصت هذه المعانى كلها فى آية قصيرة « نحن خلقناكم فلولا تصدقون »[(٣)] .

الدليل الثانى : إن الذى خلق العالم لأول مرة لم يبذل فيه جهده ويستنفد قدرته ! إنه كل يوم ، بل كل ساعة ، بل فى كل طرفة عين يتجدد خلقه ! ويبدو ذلك فى تخلق البشر ، واستقبال ذريات جديدة باستمرار . .

ويتقرر هذا الدليل فى قوله تعالى « أفرأيتم ماتمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون »[(٤)] .

والمنى سائل عجيب ! فهذا الماء المهين ـ فى منطق القادر الأعلى ـ تحمل الدفقة الواحدة منه مائتى مليون حيوان منوى . هذا الحيوان الذى لايرى لضآلته يحمل فى كيانه كل خصائص النوع الإنسانى المادية والمعنوية .

ذلك معروف من قديم . ففى قصة الملاعنة التى وردت بسورة النور يقول الرسول الكريم فى المرأة الحامل المتهمة : « إن جاءت به أكحل العينين سابغ الإلتين خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء الذى رميت به . . ! » .

انظر كيف انتقلت الصفات الجسدية من الأب للابن عن طريق الحيوانات المنوية ، وكما تنتقل هذه الصفات العقلية والخلقية !

هل فى الخصيتين مصانع عالمية تديرها عصابة من العباقرة تصنع ذلك ؟ لاشىء هنالك . إن هذه الغدد تأخذ مادتها من الدم ، والدم يجىء من الغذاء ، والغذاء يجىء من الطين !

والمشرف أولا وآخرا على هذه الأطوار هو الله « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان

---

(١) الإسراء : ٤٩ ـ ٥١ .
(٢) العنكبوت : ١٩ ـ ٢١ .
(٣) الواقعة : ٥٧ .
(٤) الواقعة : ٥٨ ـ ٦١ .

من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون» [١] .

والمدهش أن الإنسان يتخلق من حيوان منوى واحد فقط ، والبقية الأخرى من المائتى مليون تذهب إلى دورات المياه ! كأن الله يقول للإنسان المتكبر إن إيجادك ، وإيجاد مليارات مثلك لايكلف شيئا .

قلت لامرئ أحمق يزعم أنه يشتغل بالفلسفة : من صنع الحيوان المنوى الذى اخترقها واستقر فيها ؟ إن كلا من أبويك لايدرى شيئا ! وتجىء أنت تصنع الإلحاد « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون» [٢] .

الدليل الثالث : إن الأرض التى تحيا فوقها حافلة بالروائع ، فأنت واجد بها جنات معروشات وغير معروشات وحقولا وغابات وأنواعًا من الثمار لاحصر لها بين حبوب وفواكه وموالح وزيوت وأنسجه والوانا من الأزهار المختلفة الريح والصبغة . . إلخ .

من منشئ ذلك كله ؟ إن الفلاح يشق الأرض ويلقى البذر ولايدرى شيئًا بعد. إنه يشهد ماتصنع القدرة العليا ، ويستقبل هدايا الله وهو مستسلم ! أما يدفع شىء من هذا إلى معرفة المنشئ المبدع ؟ أما يبعث ذلك إلى إدراك قصة الحياة والموت ؟!

فى سورة الواقعة إشارات إلى مافى الزرع والحصاد من دلائل على البعث الأخير . « أفرأيتم ماتحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لونشاء لجعلناه حطامًا . . . » [٣] . إن إحياء الموات قصة تتكرر فى أرجاء الدنيا . « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها . . » [٤] . وإخراج البشر من الأجداث لايزيد عن إخراج النبات من ظلمات التراب حاملا صنوف المعادن والمواد المذهلة « والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا» [٥] . وفى سور أخرى بيان أكثر «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» [٦] . إن التوبة هنا يقظة عقل : كان غافيا فصحا ، وكان ذاهلا فأنتبه . . .

نعم الخروج للقاء الله ، ومواجهة الحساب مثل هذه الزروع التى خرجت من التربة العفنة السبخة تحمل السكر والدهن والنشا وتتوزع عليها ألوان الطيف . . ثم يدعو إلى إنكار البعث وفى كل حين بعث . .

---

(١) السجدة : ٧ـ٩ . (٢) الواقعة : ٦٢ . (٣) الواقعة : ٦٣ـ٦٥ .
(٤) يس : ٣٣ . (٥) نوح : ١٧ـ١٨ . (٦) ق : ٧ـ٨ .

وقد يتصور الفلاح أن له عملا فيها يتم، فبين الله أنه لو أراد دمّر ما أنشأ وأسلمه إلى أسراب الجراد « لونشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون . بل نحن محرومون» [١] .

إن بعث الأجساد كاستنبات الأرض ، عمل تبرز فيه قدرة بديع السماوات والأرض، ويجب أن يكون مثار إيمان بالبعث والجزاء .

لنتدبر قصة الجزاء الأخروى والزعم بأنه روحانى !

من المعلوم أن الإنسان جسم وروح ، فهل صحيح أن التسامى المنشود للإنسان لايتم إلا بتدمير الجسد ، وتجاهل مطالبه ؟ إننى لم أر فى الكتاب والسنة أى إشارة إلى تعذيب الجسد وإشقائه !

نعم هناك صيام مشروع ، وتعرض للعطش والجوع !! وهناك صلاة قد يطول فيها السجود والقيام ، وقد تتورم فيها الأقدام ! وربما اكتسب الإنسان رزقه من حرفة ينصب فيها ويتصبب عرقه !وربما انتهت حياته بالقتل فى سبيل الله فتزهق روحه ، ويراق دمه ، ويتحقق فيه قول ابن الرومى :

فحب جسما على الأرض إذ هوى ... وحب بها روحا إلى الله تعرج !

لكن ذلك كله فحوى الامتحان الإلهى للإنسان روحًا وجسدا ، وحظ الروح من هذا الامتحان قسيم لحظ البدن ، بل دور البدن هنا الوسيط ،فهو ينقل مايصيبه إلى الوعى ومع الوعى يكون التحمل واتجاه الإرادة إلى مرضاة الله .

ولو وقف الألم مكانه بالبنج مثلا ولم يشعر المرء بشىء حتى الموت ، ماكان له من فضل !

إن الإنسان جنس يتميز بخصائصه ، وقد خلقه الله بيديه ، ولم يخلقه فى أحسن تقويم ، ليجىء رجل أو امرأة فيقول : إن الجسم حقير وينبغى أن يهان ويعذب !

وعندما خلق الله آدم قال له : « اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما . . » [٢]

فأين تعذيب الجسد فى هذه الإباحة ؟!

وخلق الله الرسل ، وجعلهم صفوة خلقه، وقال لهم « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً . . . » [٣] . فأين آثار الحرمان فى هذا التكليف . . ؟

ويسر الله الأرزاق الطيبة للمؤمنين به ، ولم يطلب إلا الشكر على ما أنعم « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون» [٤] . فهل فى هذا حرب على الجسد وتخطيط لإهانته ؟

---

(١) الواقعة : ٦٥ ـ ٦٧ . (٢) البقرة : ٣٥ . (٣) المؤمنون : ٥١ . (٤) البقرة : ١٧٢ .

وبين ـ جل شأنه ـ أن أبناء آدم بعد رحلتهم الطويلة فى أرجاء الدنيا وتوارثهم عمرانها حينًا بعد حين سوف يعودون إلى الله كرة أخرى « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين »[1]

فهل تتحقق هذه العودة بقيام الناس صورا لا أرواح فيها أو بقيامهم أرواحًا لا أجساد لها ؟

هذا تصور أخرق .

الناس هم الناس ، وسوف يحيون بجوارحهم ومشاعرهم التى باشروا بها المعاصى أو الطاعات! وعندما يحاول الذين مردوا على الجدل والمكابرة أن ينكروا مافعلوا ، نطقت أركانهم بتكذيبهم «حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون »[2] .

إن الإنسان الذى أحس المعاناة والتضحية فى دنياه يكافأ بنعيم مقيم فى الآخرة . وروى ابن كثير عن الطبرانى أن النساء المؤمنات أفضل فى الجنان من الحور العين ! قالت أم سلمة : فبم ذاك؟ قال بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله !!

ثم جاء فى هذا الحديث أن النساء المؤمنات يقلن : «نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نيأس أبدا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، طوبى لمن كنا له وكان لنا . . » .

إن الذين جاهدوا فى الدنيا هم المستريحون فى الأخرى . والقول بأن الأجسام تفنى فلا تعود، وأن الآخرة مسرح الأرواح وحدها ، وأن ثوابها وعقابها معنوى يشبه تأنيب الضمير أو راحة الضمير ، قول باطل لا أساس له . .

ويبدو أنه انتقل إلى النصرانية من بعض الديانات الأرضية المخرّفه . وكم سطت الوثنيات على الأديان فقوضت أركانها ومحت معالمها !

والغريب أن الذين يحملون فلسفة الرهبانية وقهر الأبدان هم عنصر الهزيمة والاستسلام فى الحضارة المعاصرة ، وهى حضارة أسرفت على نفسها فى إرواء الغرائز ويسرت للرعاع من فنون الملذات مالم تشهده مقاصير الملوك الأقدمين ، وهكذا تقود الأخطاء إلى الخطيئات !!

وفى دنيانا ننظر إلى جائزة (نوبل) مثلا التى يصبو إليها العلماء الراسخون ! إن فى منحها تقديرا أدبيا تهش له النفس ! لكن التقدير الأدبى وحده لايطعم من جوع ولايؤمن من خوف ، ومن هنا كانت الجائزة المرصدة ثمينة وسخية .

---

(١) الأنبياء : ١٠٤ .   (٢) فصلت : ٢٠ ـ ٢١ .

ونمضى فى شرح قصة الجزاء الهادى لنقول : إن مطالب الجسد محدودة وإجابتها قليلة الكلفة عندما تختفى رذائل الترف والسرف ! فهل هى فوق الجزاء المعنوى ؟ نقول لا . . . وتفاوت المواهب والهمم والجهود يلقى أجزية شتى بعضها أعلى من بعض . . !

قد يكون لك خادم مخلص تعطيه طبق الطعام فينظر إليه قبل أن ينظر إليك ! وهو يشكرك بقوة لكن عينيه لاتعدوان الطبق ومافيه كما وكيفا . . وهناك آخر يعرفك ويقدرك ويعرف الناس بك ويقدرك . فإذا قدمت إليه الطبق كانت نظرته إليك أسبق وأعمق ، وعندما يتناول الطبق منك يتمنى لو منحته كتابًا من تأليفك يزيده بك علمًا ولك تقديرا ! هل يستويان ؟

إن من أهل الإيمان من تشغله أمجاد الألوهية ، فهو معها فى فرح دائم ! أو حضور غالب ، وهو فى سرائه وضرائه ناظر إلى ربه . . . وحسب .

لكن اللذة والألم قوانين نفسية لاينفك عنها بشر ، وعندما يعبر أهل الإيمان عن أحوالهم ، فلن يخترقوا أبدا آداب الشرع ويعتدوا حدود الله .

إذا قال الله « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » [1] ، فلا يجوز لأحد أن يقول : ما الجنة ومانعيمها ؟ إننا نريد وجه الله ! هذا كلام سقيم !

هل يريد أن يرى وجه الله وهو فى ظل شجرة الزقوم ؟ إن كان لها ظل !! إن الله يتجلى برضوانه على عباده المؤمنين وهم يرفلون فى حلل الجنة ويمشون فى ظلها الدائم .

وفيما ذكرنا شرح لقوله تعالى «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم» [2] . إن الرضوان الإلهى أعلى من كل نعيم وأقر للعين من كل لذة ، ولكننا نرفض سوء الأدب مع عبارات الشارع الحكيم .

وعلماؤنا مجمعون على أن ثواب الآخرة وعقابها ماديان وروحيان ، وهناك حشود من الآيات والأحاديث تؤكد ذلك .

قد يخطئ بعض الرجال الطيبين فينظر إلى نفسه وأحواله ثم يصدر حكمًا عاما غامضا فى شئون الناس . وذاك لاينبغى !

نحن نعلم أن عيسى ويحيى لم يتزوجا ، لكن كلا الرسولين لم يشن حربًا على الزواج ، ولم يسن مسالك الرهبانية المستوحشة ، لأنهما لم يبعثا لدمار الحياة ! وعدم زواجهما هو لظروف تخصهما وحدهما . .

---

(١) آل عمران : ١٨٥ . (٢) التوبة : ٧٢ . .

وقد عاش ابن تيمية عزبا ، وكذلك عاش جمال الدين الأفغانى ، ولم يؤثر على أحدهما أنه دعا إلى عزوبة !

هناك نباتيون يكتفون فى غذائهم بما يخرج من الأرض. أعرف منهم العلامة محمد فريد وجدى ، لتكن هذه طبيعته ! فليس أكل اللحم فريضة دينية . . بيد أننا نعترض على هذه الطبيعة إذا حاول صاحبها جعلها دينا . وقد ارتكب أبو العلاء المعرى هذه السخافة عندما قال :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى لتعرف أنباء الأمور الصحائح !

ومضى فى قصيدته يحرم لحوم الأنعام والطير ، بل لقد حرم عسل النحل ، فما جمعته كى يكون لغيرها !! إلخ .

ومن هذا القبيل مايجرى على ألسنة بعض الأدباء اليوم من أن الجنة ليست « سوق خضار » ! يرمى بذلك إلى إنكار الجزاء المادى وتهوين شأنه !!

وقد تأثر به ناس فى تاريخنا القريب والبعيد ، وعدّوه تساميا ، وهو جهل كبير ! إن أنس بن النضر كان يرى ربه ، ويرى جزاءه الموعود ، عندما استنكر موقف المنهزمين فى أحد ، وأقبل وحده يقاتل المشركين ، ويتحمل بجلد عض السيوف فى جلده ، وهو يصيح : إنى أشم ريح الجنة من وراء أحد !

هل هذا المؤمن العظيم رجل واهم؟ وهو الذى قال فيه رب العالمين : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . . . »(١) .

وجعفر الطيار ، الذى احتضن علم الإسلام بيديه ، فما سقط إلا بعد أن انقطعت ذراعاه ، فسارع بطل آخر لحمل العلم الغالى .

لقد كان يتشوف إلى الشهادة وهو يقول « ياحبذا الجنة أو اقترابها طيبة وباردا شرابها ! » .

فهل تطلع الرجل المعنى إلى الراحة فى ظلال الجنة وهم ، أو ضعف فكر ؟ كما يزعم أصحاب الخلل فى فطرتهم ونظرتهم !!

إن أنصاف المتعلمين والمتدينين الذين يتكلمون فى الإسلام وهم بمعزل عن كتاب الله وسنة رسوله ، خير لهم أن يصمتوا وأن يستحوا !

وقد قرأت لبعض القساوسة المبشرين بالنصرانية تهكما بالجنة الذهبية وجهنم النارية ! وتنديدًا

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

بالأجزية المادية التى شرحها الإسلام ! إن هؤلاء الناس متأثرون بأفكار أرضية وفلسفات مقطوعة الصلة بالوحى . ولننظر : ماذا أسدوا للإنسانية من خير بهذا الكلام ؟

هل ارتقوا بالحضارة المعاصرة وخففوا من كثافتها ؟ هل حوّلوا العوام والخواص إلى روحانيين يكبتون الشهوات ويحلقون فى السموات ؟ إنهم أخطئوا فى علاج النفس البشرية ، ولم يعرفوا المفتاح الذى يدور فى أقفالها فتنفتح ! إن مقادير ضخمة من الترهات ، تسكن فى عقول القوم وأفئدتهم ، صرفت أولى الألباب عن الدخول فى الدين ، واحترام مواريثه . .

إن الإنسان الذى هو مادة وروح لايصلح إلا بتعاليم تعترف بمادته وروحه معا . وهذه التعاليم حمل رايتها الأنبياء كلهم ومن بينهم موسى الذى قال معتذرا عن قومه « أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هُدنا إليك » [1] . وقبله إبراهيم الذى دعا ربه قائلا « رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين. واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين » [2] .

ينقسم أهل النعيم فى هذه السورة قسمين . الأول : السابقون بالخيرات .

والثانى : الفائزون بقدر راجح من الحسنات ! أما من بقى فهم أصحاب الشمال . . وأخطأ بعض المفسرين فحسب أن هذه الأصناف الثلاثة هى المذكورة فى قوله تعالى « . . فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » [3] .

إن سورة الواقعة تحدثت عن الناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، أما الآية الموهمة ، فهى تتحدث عن المسلمين خاصة ! وصدر الآية يدل على ذلك « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات» [4] . ووصفت سورة الواقعة أهل السبق بأنهم «ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين» [5] .

ويرى البعض أن الثلة من الأولين تعنى أصحاب الأنبياء الذين سبقوا محمدا برسالاتهم وأن القلة من الآخرين تعنى المسلمين ! ويظنون أن هذا طبيعى لكثرة من سبق من أنبياء وأمم !

والذى نراه أن الوصف هنا لأمة محمد وحدها ، وأن الثلة من الأولين هم سلفنا الصالح ،

---

(١) الأعراف : ١٥٥ ـ ١٥٦ . (٢) الشعراء : ٨٣ـ ٩١ . (٣) فاطر : ٣٢ .
(٤) فاطر : ٣٢ . (٥) الواقعة : ١٣ ـ ١٤ .

الذين نشروا الدين فى أرجاء الأرض بعلمهم وعملهم ! وأن القلة من الآخرين ، هم الغرباء بتقواهم ، وسط قوى مناوئة ، وخصومات مؤذية . .

أما الرسل السابقون ، فقد كانت رسالاتهم مؤقتة ومحدودة ، تمت فى أعصار قليلة ومدن معدودة . .

ونحن نحترم أصحاب موسى المؤمنين بتوراته ، وأصحاب عيسى المؤمنين بإنجيله ، وأين هم من قرون طوال ؟! اختفوا واختفت هداياتهم ، وحل مكانهم من لاصلة له بالسماء .

ونلحظ أن أولى أوصاف السابقين ، أو أولى الميزات التى يربحونها هى القرب من الله سبحانه ، أو هو الرضوان الأكبر ، ولذلك قيل « والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم »[1]. فلنتأمل فى حال أولئك الذين سكنوا فى بلاد الأفراح .

إن الإيمان بالغيب الذى عرفوه فى الدنيا أضحى إيمان شهود ! وعظمة الله التى صدقوا بها نظريا فى الأيام الخالية رأوها معاينة فى هذه الأيام ! ومن ثم فهم يلهجون بالثناء على الله وشكره وتحميده وتمجيده ! وهذا الذكر الموصول يتم دون معاناة أو كلل أو ملل ، بل ينبعث عنهم كما ينبعث الزفير والشهيق من صدورنا فى هذه الحياة . !

وفى الآية « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين »[2].

إنهم يشركون الملائكة فى استدامةالتسبيح دون أى شعور بكلفة « يسبحون الليل والنهار لا يفترون»[3].

وإذا كان فى القوم من قام بالقرآن فى الدنيا وعاش له يحميه ويتلوه ويبلغه ، فإنه يقال له ماجاء فى الحديث الشريف « يقال لقارئ القرآن يوم القيامة اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا » . نعم لقد أضحى مع السفرة الكرام البررة ، بهذه المهارة وتلك الإمامة .

إن أهل الجنة يحلو فى مذاقهم ترديد الباقيات الصالحات فهم يهتفون بها عن حب ورغبة ، ولعلها وسمت بالبقاء والصلاح لأنها تعلو على الفناء ، وكيف تفنى هذه الشعارات ، سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ؟

كانت فى الدنيا قواعد لسلوك المؤمن ، ثم أضحت فى الآخرة شارة أهل النعيم .

ماذا فعل غيرهم ؟ استرخى فحجب .

وقد قيل الأحجار فى طريق الكسالى عوائق وفى طريق الناشطين سلالم ، الأولون ينكصون ،

---

(١)الواقعة : ١٠ ـ ١٢ .　　(٢) يونس : ١٠ .　　(٣) الأنبياء : ٢٠

والآخرون يصعدون ! ومن ثم قيل فى وصف الجزاء المعد للمقربين « جزاء بما كانوا يعملون »[١] .

والكريم إذا وفد عليه ضيوف أكرم نزلهم ، وأجزل عطاءهم ، فأين كان أهل الجنة ينزلون بعد عودتهم إلى الله ؟ إن أقل مايقدم لهم هو أعلى وأغلى ماكان ملوك الأرض يتمتعون به !

ونحن نعلم أن فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ونعلم أن الأسماء التى تطلق على مافى الجنة هى عناوين تقريبية ، وأن ذكرها ضرب من التشويق للعاملين فى الدنيا ، والأمر فوق مانتصور !

المهم أن أهل الجنتين ـ مع مايتقلبون فيه من نعماء ـ ليسوا أهل بطالة وخمول ، إنهم يلهمون الذكر والشكر . ولا ريب أنهم سعداء بتكريم الله لهم ، ولكنهم أسعد بما أتيح لهم من تحية الله ليلا ونهارًا ومناجاته سرا وجهرا .

ونشرح بعض الكلمات التى لانألفها ، والتى وردت فى وصف الجنان :

فالسرر الموضونة ـ هى المضفورة من المعادن النفيسة . « متكئين عليها متقابلين »[٢] ، أى لهم مجالس مؤنسة يواجه بعضهم بعضًا فيها . « يطوف عليهم ولدان مخلدون »[٣] . تخدمهم فتية يبقون ماحيوا فى سن الشباب ! ومع كثرة الشراب فى الجنة من لبن وعسل وماء وخمر فإن الخمر المعنية خمرة أباحها الله لاتصيب بالصداع ولا الدوار « لايصدعون عنها ولاينزفون »[٤] . والنزف هو الهذيان واختلاط العقل وهو أمر معروف بين السكارى .

من العلامات البارزة للجنة الحور العين . والحور العين هن بنات آدم بعد صوغهن فى قوالب أخرى تجعل العجائز شواب والدميمة وسيمة ! أو هن خلق آخر يبدعه الله فى صور فتيات ساحرات العيون يستمتع بهن أهل الجنة . والظاهر أن الحور العين من الصنفين معا ، وأن تغييرات كبيرة سوف تقع فى أجسام الرجال والنساء وفى هيئاتهم ، وهو تغيير الأشرف والأكمل . . فلن تكون لأبناء آدم فضلات ، وسيلتئم شمل الأسرة المؤمنة على الحب والرضا ، مصداق قوله تعالى « جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[٥] .

والواقع أن الجسم الإنسانى ، على روعة ، إبداعه له عوارض محرجة ومزعجة ، ومايتم النعيم إلا بتعديل أجهزته على نحو أسمى وأنظف وأقوى وأجمل .

وربما كان خلقه على مانحس بعض الامتحان الذى فرض علينا فى هذه الدنيا .

---

(١) الواقعة : ٢٤ (٢) الواقعة : ١٦ . (٣) الواقعة : ١٧ .
(٤) الواقعة : ١٩ . (٥) الرعد : ٢٣ـ٢٤ .

ولاتوجد فى القرآن سورة تستوعب كل الأجزية الحسنة المعدة للمتقين ، وإنما تعرض مناظر ، أو تُلتقط صور لجوانب من النعيم تناسب كل سورة ، وتشرح صدور القارئين بما تثير من أشواق وتفتح من آمال .

وفى هذه السورة رأينا لونا من النعم المعدّ للسابقين ولأصحاب اليمين ، وهم أكثر عددًا من الصنف الأول « ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين » (١) . ولبيان بعض الكلمات التى وردت فى ثوابهم ، تظهر صنوف النعيم . فالسدر شجر يثمر النبق ! وينبت مع كثرة الماء ، ولعل ذلك سر نفاسته فى الصحراء ، مع نكهته اللطيفة ، ويصحبه دائما شوك قد يخدش لكنه فى الجنة مخضود لاشوك فيه !

أما الطلح المنضود ، فهو الموز المنسق المركوم فى نظام ، وقيل ثمر يعرفه أهل الغرب وغيرهم ، والظل الممدود ، هو الذى لايتقلص مع وقدة الشمس ، « أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا» (٢) . والماء المسكوب مايجرى تحت القصور فى الجنة أو ماتدفعه النافورات إلى أعلى .

ولما كانت الفواكه فى الأرض موسمية تظهر فى بعض الشهور وتختفى بقية العام ، وصفت فاكهة الجنة بأنها « لامقطوعة ولاممنوعة » (٣) .

والعروب المرأة المتوددة إلى زوجها المقبلة عليه ! والجمع عُرُب . وسواء كن من نساء الدنيا بعد صياغتهن الجديدة أو من الحور المنشآت لأهل الجنة ، فهن متقاربات الأعمار ، وذاك معنى قوله تعالى « عربا أترابا . لأصحاب اليمين » (٤) .

والكلام كله ـ فيما نرى ـ من البشريات لأمة ـ محمد ﷺ . فالسابقون قلة من المعاصرين ، ولكنهم ثلة من الأخلاف كبيرة . . ويجوز غير ذلك .

ثم ينتقل السياق إلى أصحاب المشأمة ، أو أصحاب الشمال ، وهم جمهور الملاحدة والفسقة والمكذبين ممن شاقوا الرسل ، وعادوا الدين كله ، ورضوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها وسخروا مما وراءها ، ولم يعرفوا فى دنياهم إلا مآربهم .

وقد استخدمت مصطلحات فى صفة العذاب « فى سموم وحميم» (٥) تلك الريح اللافحة بحرارتها ، من السم لشدة أذاها وحميم ذلك الماء الساخن الذى يغلى .

« وظل من يحموم» (٦) دخان كثيف أسود لاقيمة لظله ، ولذلك جاء فى موضع آخر «انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . لاظليل ولايغنى من اللهب » (٧) ، وهو من الحمم جمع حممة ، الفحم .

(١) الواقعة : ٣٩ ـ ٤٠ . (٢) الرعد : ٣٥ . (٣) الواقعة : ٣٣ .
(٤) الواقعة : ٣٧ ـ ٣٨ . (٥) الواقعة : ٤٢ . (٦) الواقعة : ٤٣ .
(٧) المرسلات : ٣٠ ـ ٣١ .

وبم استحق أصحاب الشمال هذا العذاب ؟ لأنهم لم يتقوه فى الدنيا بعمل صالح ، بل هم لم يؤمنوا به أصلاً ، وكانت معيشتهم على ظهر الأرض تشبعًا من اللذات المتاحة أو جريا وراءها سواء وجدت أم لم توجد .

وقد وصف الله سبحانه معيشة الكافر فى الدنيا ، وانحصاره فيها وحدها ، فقال « إنه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور »(١) ، يرجع إلى ربه « بلى إن ربه كان به بصيرا »(٢) .

والكافرون يبنون حياتهم على ألا بعث ! وهذا الفكر يكاد يطوى الآن المشارق والمغارب ، وهو أساس الإيغال فى المعاصى والانكباب عليها دون شعور بقبحها أو ندم على اقترافها . .

وذلك هو الحنث العظيم ، أى المعصية الفادحة التى عناها النظم الكريم فى الآيات « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون . قل إن الأولين والآخرين لمجمعون إلى ميقات يوم معلوم»(٣) .

ويعود الكلام مرة أخرى إلى وصف مايلاقيه الملاحدة من عذاب « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم »(٤) . والزقوم طعام مرير قبيح ـ أعاذنا الله منه ـ إذا أكله صاحبه اهتاج إلى طلب الماء فلم يجد إلا ماء يغلى « وسقوا ماءً حميما فقطع أمعاءهم »(٥) . ومع أثره الفظيع فإن أكل الزقوم يتطلب المزيد من الشراب لما يحسه من عطش ! فهو كالبعير الأهيم المصاب فى أمعائه بحمى تحمله على طلب الماء بنهم لاينقضى .

وقد وصف أهل النار بأنهم يملئون بطونهم من الزقوم ثم يبحثون عن الماء بحث الإبل الهيم عما يرويها ، وهيهات « هذا نزلهم يوم الدين »(٦) .

وصور الثواب والعقاب كلها سيقت للترغيب والترهيب ، ودعم تربية سليمة ، لاسيما فى هذا العصر الذى تضافر فيه العلم والفن والإعلام الهازل والجاد على تجهيل الناس بالآخرة ، وصرفهم عن العمل لها .

وإيقاظ مشاعر الرغبة والرهبة لايكفى ! بل لابد من إيقاظ العقل الإنسانى ليفكر ويصدق ويتصرف بروية .

الدليل الرابع الذى ورد فى سورة الواقعة على أن البعث حق ، نجده فى قوله « أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لونشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون »(٧) .

---

(١) الانشقاق : ١٣ ـ ١٤ . (٢) الانشقاق : ١٥ . (٣) الواقعة : ٤٥ ـ ٥٠ .
(٤) الواقعة : ٥١ ـ ٥٢ . (٥) محمد : ١٥ . (٦) الواقعة : ٥٦ .
(٧) الواقعة : ٦٨ ـ ٧٠ .

إن الماء أصل الحياة وأساس بقائها قال تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون»[(١)]. ويكون الماء أربع أخماس الأرض ، وله دورة تستحق التأمل العميق ! فإن الريح تسوق السحب ـ مثلا ـ من المحيط الهندى لتسقط على أرضنا ودوابنا ، ثم يذهب الماء المستعمل إلى مصارفه ومجاريه ويأخذ سبلا لاندريها ليعود إلى البحار والمحيطات مكملا دورة ومبتدئا دورة أخرى لايزيد ولاينقص ! قال تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون»[(٢)].

نعم الذى أوجده قادر على الذهاب به !

« لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون »[(٣)].

إن المشيئة العليا وحدها مرجع الإيجاد والإفناء . والماء ـ وهو الوسيط الطبيعى للحياة هنا وللحياة بعد الموت ـ عنصر طيّع لهذه المشيئة المطلقة ، وقد جاء فى السنة أن « الله ينزل مطرا كأنه الطلُّ فتنبت منه أجساد الناس» وكانوا فى قبورهم هلكى . .

وعذوبة الماء تتم فى الجو ، بين تفاعلات كهربائية تحدث عنها علماء الطبيعة ، يشرف عليها الله وحده .

الدليل الخامس : ـ « أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعًا للمقوين »[(٤)].

هذا دليل كما أرى ـ يكشف عنه العلم الحديث فنحن عندما نتنفس نأخذ «الأوكسجين » ونطرد « ثان أوكسيد الكربون ». وعكس ذلك يفعل النبات ، فهو فى تنفسه يأخذ « الكربون » ويدع « الأوكسجين » . والكربون هو الفحم ! وعجيب أن تكون الخضرة مخزنا للوقود ، وأن يكون رفيف الحياة ستارا لأسباب الاحتراق والتلاشى . إن الشجر فى جذوعه وفروعه وأوراقه الخضراء لايلبث أن يجف ويتحول إلى هشيم تتأجج به النار !

وهكذا نرى الموت فى تضاعيف الحياة .

إن خواص المادة ، مفردة كانت أو مركبة ، لاتزال موضع الدراسة والاستفادة. والمركب الكيماوى قد تظهر له صفات مضادة للمفردات التى تألف منها ، فالماء مثلا نشربه لنرتوى به ونذهب عطشنا ! على حين نرى عنصريه اللذين تكوّن منهما أقرب إلى الإحراق منهما إلى الإرواء !

---

(١) الأنبياء : ٣٠ . (٢) المؤمنون : ١٨ . (٣) الواقعة : ٧٠.
(٤) الواقعة : ٧١ ـ ٧٣ .

نحن نبصر فى الحدائق والحقول آيات النضارة والنماء ، ولانبصر مايتم بعد قليل من مظاهر التلاشى والاحتراق ، وكذلك تتعاقب الأضداد ، وما أيسر ذلك على القدرة الإلهية « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق من تشاء بغير حساب »(١) .

والأخشاب والأحطاب التى تتحول إلى تراب، يتحول ترابها مرة أخرى إلى سماد لأنواع النبات ، كما يتحول النبات الذى نطعمه إلى خلايا حية فى أجسامنا !

والواقع أن الإنسانية كلها أمام موعدين : أحدهما قريب متعجل ، والآخر متراخ متمهل . إنها أمام الموت الذى لايطول غيابه ، ولابد لكل امرئ أن يذوقه ، ثم هى أمام الساعة التى لابد منها وإن طالت الأيام « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون»(٢) . « ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد »(٣) .

والتكرار المتعمد لذكر القيامة ليس تهديداً للحضارات أو وقفًا للعمران البشرىّ ـ كما فهم القاصرون ـ وإنما هو لكسر الغرور ومنع التطلعات الطائشة .

والبشر مازالوا بحاجة ملحة إلى تذكر يوم القيامة ، فإن هذا التذكر يهذب غرائزهم ويكفكف أطماعهم . والعقل العادى إذا علم أن هذا اليوم حق لم يؤثر قليلا على كثير ، ولافانيا على باق ، ولم يزهد فى جزاء الآخرة كما هو مسلك الحضارة المعاصرة !

إن العلم الحديث ربما نجح فى استكشاف بعض أسرار المادة وقوى الكون ، فما دلالة ذلك وماجدواه ؟ إنه لايلغى حكمة الوجود ولارسالة الأحياء على ظهر الأرض،تلك الرسالة التى لخصهاالقرآن الكريم فى هذه الكلمات « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا»(٤) .

بل إن ميدان الاختبار الإلهى يتسع ويعمق بقدر ما انفتح على الإنسان من إمكانات مادية وأدبية .

وقد ختمت سورة الواقعة بلون من التحدى تخسأ أمامه الخلائق : هل يستطيع أحد الإفلات من الجزاء الحتم ؟ هل يقدر البشر مهما سند بعضهم بعضا على أن يدفعوا الموت ، وينقذوا منه قريبا أو صديقا ؟ « فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين »(٥) .

---

(١) آل عمران : ٢٧ . (٢) الأنعام : ٢ . (٣)آل عمران : ٩ .
(٤) الملك : ٢ . (٥) الواقعة : ٨٣ـ ٨٧ .

لن ترجع نفس إلى الدنيا بعدما استوفت الأجل المكتوب لها ، بل سينقسم البشر زمرا وفصائل حسب ماقدموا لآخرتهم ويتوزعون على الدرجات التى اكتسبوها .

« فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم » (١) .

«وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من أصحاب اليمين » (٢) . إنها تحية الملائكة للناجين الناجحين فى معركة الحياة ، تستقبلهم لتكون بشرى سارة يوم عودتهم إلى الله .

«وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم. وتصلية جحيم » (٣) . هؤلاء أصحاب الشمال والمصير الأسود .

هكذا صدق آخر السورة أولها ، ولخص مجملها فهل يعى الناس مايستقبلون من هذه المصاير؟ سواء وعوا أم ذهلوا ، فلن يتغير الواقع « إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم» (٤).

---

(١) الواقعة : ٨٨ـ٨٩ .
(٢) الواقعة : ٩٠ ـ ٩١ .
(٣) الواقعة ٩٢ ـ ٩٤ .
(٤) الواقعة : ٩٥ ـ ٩٦ .

سُورَةُ الحَدِيدِ

سورة الحديد مدنية كلها فيما نرى ، والحديث فيها يتجه إلى الدولة والجمهور معا ! فإن للمجتمع الإسلامى خاصة يعرف بها ، أنه ربانىّ النشاط والوجهة، فمن قبل طلوع الفجر إلى مابعد غياب الشفق ، يهرع المسلمون إلى المساجد حاكمهم ومحكومهم، وتسمع صيحات الأذان فى كل حى تدعو المسلمين إلى الصلاة ، وتنبه إلى حق الله فى التكبير والتمجيد، وتنزهه عما لايليق به !

إن الدولة الإسلامية وإن رفعت شعار لا إكراه فى الدين إلا أنها حريصة على طاعة الله وإنفاذ حكمه والظهور فى الميدان العالمىّ بأن ولاءها لله الواحد القائم بالقسط الرحيم بالخلق ! فلا عجب إذا افتتحت سورة الحديد بهذا الشعار « سبّح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير »[(١)] .

إن العصر الذى نعيش فيه يوسم بأنه عصر العلم. ولا عجب، فقد استطاع الإنسان غزو الفضاء ووضع قدمه على القمر، وهو الآن يدرس كواكب أخرى من أسرة الشمس يحاول الوصول إليها . وقد جزم بأن الشمس وأفراد أسرتها حبات رمال فى فضاء زاخر بالنجوم والشموس . إن العالم ضخم كبير الحجم ذاهب فى الطول والعرض مضبوط بنظام محكم يسيطر على الزفير والشهيق فى أجسامنا ، وعلى المد والجزر فى البحار والمحيطات ،وعلى الكسوف والخسوف بين الكواكب ؛وعلى مساحات تنحسر دونها الأبصار والآلات فى ملكوت فخم مَهيب يُهيمن عليه رب كل شىء ومليكه - « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » .

ألا يسأل المرء نفسه : هل الدجاجة خلقت البيضة التى تضعها ؟ هل البقرة صنعت اللبن الذى يخرج منها ؟ هل الأم أنشأت الولد الذى يتخلق فى أحشائها ؟ هل الفلاح هو الذى سوّى الحبوب والفواكه التى يزرعها ؟

إن هذه كلها أسباب شفافة عن القدرة العليا والحكمة العليا اللتين تبدعان كل شىء « هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير»[(٢)] .

---

(١) الحديد : ١ - ٢ . (٢) الحديد : ٤ .

وظيفة الأمة الإسلامية بين الناس أن تعرف الله وأن تعرِّف به ، وأن تعبده وتيسِّر للآخرين عبادته . فهى تجاهد لتحمى حق العبادة ، وتمنع الفتانين من فرض ضلالهم على غيرهم ! فإذا وجد من يقول للمستضعفين « لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُنَّ فى ملتنا»[1] ، قال المسلمون له والأرض لك ولغيرك ، ومن حقه أن يبقى فيها بالعقيدة التى اختارها ، ونحن مع المضطهد حتى يطمئن !

وتبدأ السورة فى رسم الطريق للأمة الإسلامية حتى تؤدى رسالتها العالمية . فنقرأ قوله تعالى : «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »[2].

الإيمان والإنفاق عنصران رئيسان كى تنجح الأمة فى بلوغ غايتها ، ثم يعقب هذا الإجمال تفصيل ، لاعذر للمسلمين فى الاستمساك بدينهم والعيش به إلى آخر الدهر ؛ فقد جاءهم نبىّ أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وختم بهم الوحى السماوى وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فهل يجوز أن يستبدلوا بدينهم مذهبا آخر من أهواء الناس ؟

إن الحضارة الحديثة تعرض عليهم أن يتركوا الإسلام وأن يعتنقوا أى نزعة قومية ، أو فكرة البعث العربى ، أو أى دين آخر !! المهم أن يتركوا كتاب ربهم وسنة نبيهم !

وقد استجاب البعض لهذه العروض الحديثة وقدموها على الإسلام ، وأخرجوا الألوف المؤلفة من الأجناس التى رضيت الله ربا والإسلام دينا ، وأحدثوا فتنا هائلة أساءت إلى الأتراك والأكراد والفرس والبربر والهنود والزنوج . إنها وثنيات جديدة يمنع منها قوله تعالى « ومالكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم» [3] .

والغريب أن الأمة العربية التى وعى لسانها القرآن من أغنى أمم الأرض ، فأحشاء الدنيا فى يدها ، وأرضها الخصبة تفيض سمنا وعسلا ، وصحراؤها العفراء ملأى بالكنوز والمعادن، فهل سخّرت غناها فى نصرة رسالتها ؟ أم غلبتها الشهوات العاجلة فى هذه الدار الفانية ؟

إن ثروات المسلمين يستفيد الآخرون منها أكثر مما يستفيد المسلمون أنفسهم . وكان الواجب أن تدعم عقيدة التوحيد وحقائق الوحى كما قال تعالى « ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير . من ذا الذى يقرض الله

---

(١) ابراهيم : ١٣ . (٢) الحديد : ٧ . (٣) الحديد : ٨ـ٩ .

قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم» [١] ؟ وحسن التصرف فى المال لخدمة الإيمان شيمة الصادقين من أهل اليقين . أما عبيد الحياة وأهل النفاق، فلهم مسالك سوء ، ولذلك يقال لهم يوم القيامة « فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولامن الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير» [٢] .

الإيمان المقبول أساسه عرفان الله ونكران الذات ورحمة الخلق ورقة القلب ! وهناك قوم ينتمون إلى الإيمان وفى صدورهم صلف وأثرة تستغرب قساوة قلوبهم وخشونة جوانبهم !

قد يكون اليهود ـ بعد نقضهم مواثيق الله ـ نماذج لهذا الإيمان الكريه ، وفيهم يقول الله «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية . . » [٣] .

وقد نهانا الله ورسوله عن متابعة هؤلاء الناس . ومع ذلك فإن التدين السطحى ينتشر بيننا . ترى الرجل يتشبث برأى فى فروع الفقه لايقدم ولا يؤخر ويحسب أنه ملك دون غيره مفاتيح الجنة ، وينظر إلى الناس من عل ويعاملهم بجفاء !!

يعظ القرآن هؤلاء « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم . . . » [٤] . هذا المرض يحبط أعمال الأفراد ، ويحول بين الأمة الإسلامية وأداء رسالتها . إن التواضع والرحمة يزرعان القبول والحب ، أما العجب والفظاظة فلا يثمران إلا الخصام والقتال .

وقد عادت السورة تشرح ميزات الأمة التى تحمل رسالة الخير والحق ، فأكدت ماجاء فى صدرها من حث على الإيمان والإنفاق ، فقال تعالى « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم . . . » [٥] .

قد يكون الشهداء قتلى معارك الجهاد . . وقد يكونون رجال الدعوة الماشين فى أقدام الأنبياء يدلّون على الله ، ويشرحون الوحى . . !

« فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» [٦] كلا المفهومين صحيح . وشارة الصدق فى الإيمان بالله ضبط الموقف من الدنيا . فمن بات واستيقظ مشغولا بها باكيا على مافات منها فلا اعتداد به. إن الناس فى عصرنا يذهلون عن الآخرة ، والحضارة الغالبة تجّهل بها وتصدّ عنها ، والأديان السماوية فاشلة فى إدارة المعركة تحسب أن الفشل فى الأرض طريق النجاح

(١) الحديد : ١٠ ـ ١١ . (٢) الحديد : ١٥ . (٣) المائدة : ١٣ .
(٤) الحديد : ١٦ . (٥) الحديد : ١٨ ـ ١٩ . (٦) النساء : ٤١ .

فى السماء . ولاأدرى كيف يصح ذلك فى دين يبنى الإيمان بالله على التأمل فى الكون ودراسة قوانينه ؟

انعقد أخيرا مؤتمرًا للمياه فى دول الخليج حضرته دولة إسرائيل (؟ !) لماذا ؟ لأن الدولة اليهودية تملك الخبرة ! أما نحن فخبرتنا محدودة . . . يظهر أننا خبراء فى حب المال والجاه وحسب !

وسورة الحديد تنبه إلى أن المسلمين شركاء فى سباق عالمى محموم لاينجح فيه إلا من استعدّ له وتهيأ لمراحله وقدَّر الفروق بين خطواته وخطوات خصومه . . « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . . »[1] . ما هذا السباق ؟

إن أهل الإيمان يعرضون مالديهم وينصرونه ، وأهل الكفر يعرضون مالديهم وينصرونه . هكذا شاء الله أن تدور رحى النشاط فى الأرض « ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض . . . »[2] .

والناظر الآن إلى الأطراف المتخاصمة يرى عجبا . فعلى سطح الماء من المحيط الشمالى إلى المحيط الجنوبى ، لاترى بارجة عليها علم التوحيد على حين ترى البوارج والطائرات والغواصات تخدم كل ملة وتنصر كل حزب .

يقول الله تعالى .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسلهُ بالغيب إن الله قوى عزيز »[3] .

خلق الله الحديد ذا خصائص عظيمة فى صناعات الحرب والسلام معا ، فهل درسنا هذه الخصائص وانتفعنا بها فى نشاطنا المدنى والعسكرى ؟ وأرينا الله من نشاطنا مايرضيه ؟ إن أمتنا الإسلامية عالة على غيرها فى ذلك الميدان ، فلما أردنا أن نصنع شيئا اتجهنا إلى صناعة أسياخ نسلح بها المبانى لا إلى صناعة أسلحة نحمى بها الحق ونصون العقائد ! !

إن تعلقنا بمتاع الدنيا شديد ، أما تعلقنا بالآخرة فوهم ، ولو كان حقا ما أجدانا ، فإن علومنا الأرضية تتذبذب عند درجة الصفر .

وكيف يسود الأرض من لايعى شيئا من قوانينها ؟

إننا نلمح الشعرة فى تفاوت الناس من حظوظ الدنيا ، ولانلمح الخشبة عندما يكون التفاوت فى حقوق الله . واليوم يجد المسلمون أنفسهم فى موقع عصيب ، فاليهود ـ وعددهم فى العالم أقل من سكان سوريا ـ يريدون الاستيلاء على مقدرات العالم الإسلامى الذى يزيد على خمس سكان

---

(١) الحديد : ٢١ . (٢) محمد : ٤ . (٣) الحديد : ٢٥ .

الأرض ! وأتباع الملل الأخرى من كتابيين ووثنيين يجتاحوننا فى جبهات كثيرة ، فهل الذين نزلت عليهم سورة الحديد يشعرون الآن بما تقول ؟

وختمت السورة بآيتين توصيان المسلمين بالعودة إلى الله والاقتداء برسوله . والحق أن السلف الأول انتقلوا من السفح إلى القمة ،عندما التفوا حول هذا القرآن وتدبروا آياته . كانوا نفرا يُعَدّ على الأصابع ، ثم حزبا يشق طريقه بجهد جهيد ، وفى سنوات معدودات أضحوا دولة عظمى اختفت أمامها دول حكمت العالمين قرونا . ولا مانع بتة أن يعيد التاريخ نفسه، إذا أعاد المسلمون علاقتهم بكتابهم ومشوا وراء نبيهم . .

يقول تعالى خاتما هذه السورة « يأيها الذين آمنوا إتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله . . . . »[1] .

---

(١) الحديد : ٢٨ ـ ٢٩ .

سورة المجادلة

سورة المجادلة أولى سور الجزء الثامن والعشرين فى المصحف الشريف .وهى سور مدنّية كلها . والمجتمع المدنىّ كان صنوفا شتى من الناس . هناك المؤمنون الذين يصنعهم الوحى ليقودوا قافلة الإيمان فى المشارق والمغارب . وهناك الوثنيون المتعلقون بأذيال الليل المدبر ! وهناك اليهود الذين يعبدون جنسهم ويريدون فرض أهوائهم على الناس . وهناك المنافقون الذين يجرون وراء مصالحهم ويظهرون فى ألف لون . .

وهذه السورة على وجازتها، تعرضت لأولئك جميعا . فقد بتت فى قضية الظهار ،وهو من شئون الأسرة المسلمة ، وبينت أنه ليس طلاقا ،وذكرت كفارته . والإسلام يهتم بشئون الأسرة ويوضح حدودها ، فيقول هنا «وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم »[(1)] .

ويقول فى سورة البقرة « تلك حدود الله فلا تعتدوها »[(2)] ـ بعد أحكام الطلاق ـ ويقول فى سورة النساء « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار »[(3)] ـ بعد أحكام الميراث ـ وهذه الحدود شىء آخر غير العقوبات المقدّرة على بعض الجرائم .

ومن أسلوب القرآن أن يمزج الأحكام بالعقائد ليجعل التزامها جزءا من الإيمان ومظهرا لإجلال الله ، ولذلك قال بعدها « ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم . . . »[(4)] .

وانتقلت السورة عقب ذلك إلى اليهود الذين إذا أرادوا تحية المسلمين قالوا : السام عليكم ! ويجعلون من الشبه بين السام والسلام ذريعة للعن المسلمين وتمنى الهلاك لهم! وقد سمعتهم عائشة فكشفتْهم ونَهَرتْهم ، ولكن النبى ﷺ آثرَ أسلوبا أليق به ، ونزلت الآية « . . وإذا جاءوك حيّوْك بمالم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير »[(5)] .

ثم أمر الله المسلمين أن تكون أحاديثهم فى مجالسهم أو مع خصومهم بعيدة عن الشحناء والتحدّى وأن يترفعوا عن محاكاة اليهود ، وألا يكترثوا إذا تلاقى اليهود والمنافقون فتَسَارَّ بعضهم مع

---

(1) المجادلة : ٤ . (2) البقرة : ٢٢٩ . (3) النساء : ١٣ .
(4) المجادلة : ٧ . (5) المجادلة : ٨ .

البعض الآخر فى بشاشة وود ـ ليحرجوا المؤمنين ويشعروهم بالعزلة « إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (١) .

والإسلام ينزل الناس منازلهم وفق الإيمان والعلم. ففى صفوف الصلاة ، يقول الرسول : ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى. وفى المجالس العامة ، يقول الله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٢) .

والمسلمون يحبون نبيهم أشد الحب ، ولم لا وقد أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وعرفهم بخالقهم ورازقهم ، ووقفهم صفوفا بين يديه يحمدونه ويستهدونه طرفى النهار وزلفا من الليل ؟ ثم إن شخصه النبيل جدير بالحب والحفاوة ، والكمال البشرى جدير بالحب حيث كان . إلا أن عاطفة الالتفاف حول الرسول والجلوس معه لابد من تنظيمها حتى تستقيم شئون الدنيا والدين وحتى يجد وقتا يخلص فيه إلى نفسه وأهله !! ولذلك نزلت الآية « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم»(٣) .

فإذا صعب ذلك على مؤمن ، فأفعال الخير أمامه كثيرة يستطيع بها إرضاء ربه ، وهى أولى به من إيثار الحديث مع الرسول ! قد يكون فى الحديث مع العظماء لذة ، بيد أن نصرة رسالتهم أهم ! «أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . . » (٤) .

وفى مجتمع يختلط فيه المؤمنون والمشركون والكتابيون وتشتبك فيه المصالح المادية والأدبية تمتحن المبادئ امتحانا قاسيا ، وقد يقدم الرجل قرابته أو تجارته على مذهبه أو رأيه ! وذاك ماجعل الشاعر يقول قديما لواحد من هؤلاء المتلونين .

فإما أن تكون أخى بصدق ... فأعرف منك غثى من سمينى !
وإما فاطَّرحنى واتخذنى ... عدوا أتقيك وتتقينى !

والنفاق داء خبيث شديد الخطر . ومن أيسر الأمور على المنافق أن يحلف كاذبا ، ولذلك قال تعالى يصف هذا الصنف « ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ماكانوا يعملون» (٥) ويظهر أن الذى يألف نهجا معينا من الحياة يموت به ويبعث عليه ، وذاك ماجعل العامة فى

(١) المجادلة : ١٠ . (٢) المجادلة : ١١ . (٣) المجادلة : ١٢ .
(٤) المجادلة : ١٣ . (٥) المجادلة : ١٤ ـ ١٥ .

بلادنا يقولون « يموت الزمار وأصابعه تلعب» ! فإذا مات كذلك بعث كذلك . وربما حاول الدجال فى الدنيا أن يكون دجالا فى الآخرة ، فيحلف على الزور كأن حلفه سينجيه ! « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون» [1] ، وهيهات . . «إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين » [2] .

فى النجاة من هذه الفتن . وتفريقا بين الإيمان الصادق والإيمان المغشوش ، يأمر الله المؤمنين أن يصارحوا بعقائدهم ويتحدَّوْا بمبادئهم وينحازوا إلى أشكالهم ويُجافوا خصومهم .

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه . . » [3] .

(١) المجادلة : ١٨ . (٢) المجادلة : ٢٠ . (٣) المجادلة : ٢٢ .

سُورَةُ الحَشْرِ

« سبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم »[1] . تسبيح الله هنا قبل طرد اليهود من ديارهم يشبه تحميده فى سورة الأنعام بعدما استأصل الظلمة وطهر الأرض منهم «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين »[2] . إن خلوّ الأرض من الطغاة نعمة جليلة ، وقدرة كل إنسان على الاستمتاع بحقوقه خير عظيم . وما أجمل أن يصبح المرء آمنا فى سربه معافى فى بدنه لايتسلط عليه ظالم ولايحيف عليه متكبر . .

لقد ظل اليهود فى يثرب وحولها ينتمون إلى التوراة ، فما شرفوا الوحى ، ولانشروا العدل ، ولاناصروا التوحيد ، ولاحذّروا من اليوم الآخر . فلما جاء الإسلام وشرع يهدى عبيد الأصنام إلى الله ، ضاقوا به ونالوا من نبيه وأتقنوا صناعة الحرب وحوّلوا مواطنهم إلى حصون ، وظنوا أنه لن يقدر عليهم أحد « ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين . . »[3] .

كان من الممكن أن يبقوا لكنهم بغتة فكروا فى قتل الرسول وهو بينهم آمن مسترسل ، فلما شعَر بغدرهم ترك المكان عائدًا إلى المدينة ، ثم قرر إجلاءهم « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب»[4] . وهكذا عادوا من حيث جاءوا .

والسورة تفيد أن هذا أول الحشر ، كأن هناك حشرا آخر ينتظر القوم فى الغد القريب أو البعيد! ونحن ننتظره معهم؛ فإن اليهود ـ فى غفلة من المسلمين ـ أقاموا لأنفسهم دولة ، فماذا صنعوا بدولتهم؟ هل ذكروا الله بخير ؟ هل جعلوا الحضارة الحديثة تؤمن باليوم الآخر ؟ إنهم انتهزوا عجز المسلمين وتفريطهم ، فزادوا الطين بلة واتفقوا مع أوروبا وأمريكا على دحر تراث السماء وعبادة العجل الذهبى .

وعندما يثوب المسلمون إلى رشدهم ويصطلحون مع ربهم ، فسيرثون الدولة ويرجع بنو إسرائيل إلى الأراضى التى جاءوا منها . وقد منح النبى عليه الصلاة والسلام أرض بنى النضير هدية إلى فقراء المهاجرين ، وبذلك أعاد التوازن إلى المجتمع الإسلامى فى المدينة ! فإن المهاجرين صودرت

---

(١) الحشر : ١ . (٢) الأنعام : ٤٥ . (٣) الحشر : ٢ . (٤) الحشر : ٤ .

أموالهم وبيوتهم فى مكة، وتحملوا هذه المحنة فى ذات الله. ومع أن الأنصار واسوهم وفتحوا لهم قلوبهم ودورهم، إلا أن الحل الأمثل فى توريث المهاجرين ماترك اليهود. والتعليل المذكور فى السورة « كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » (١). يعنى المال.

ثم شرح حال أولئك المهاجرين، فقال « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون» (٢). وبذلك رسا المجتمع على قواعد عادلة وشرع يؤدى رسالته.

وفى عصرنا هذا كما فى عصر النبوة عرب منافقون لايرون حرجا فى أن يعيشوا مع اليهود ويقاسموهم حياة خشنة أو ناعمة. والواقع أن الفريقين لادين لهم. فالدين عند اليهود ليس نقاء قلب وزكاة سيرة وسماحة يد. إنه أثرة طافحة وصلف غريب. والعرب المنافقون لايصدقون أن الله اختار جنسهم لرفع المستوى الروحى والعقلى للناس، إنهم طلاب حياة وحسب!! فلا عجب إذا ألف أحدهم الآخر وأيده « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » (٣).

وعلاقة اليهود بالآخرة واهية. والأسفار الأولى للعهد القديم ـ التوراة ـ لاتتحدث عن ثواب وعقاب وجنة أو نار، إنها تاريخ جافّ لشعب غليظ الرقبة. وهذا الفكر المادىّ صبغ الحضارة الحديثة، وأغرى الجماهير بعبادة اليوم الحاضر ونسيان ماوراءه. ولم تستطع النصرانية بعدما تخلت عن سيرة المسيح أن تقاوم هذا العوج. فأصاب العالم كله ضر شديد.

ولذلك جاءت هذه السورة تدفع الناس دفعا إلى معرفة الله وإيثار ماعنده وقربت الآخرة حتى جعلتها الغد المحقق! « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون» (٤).

إن معركة هائلة سوف تدور بين العرب واليهود، ولن يعدم اليهود نصراء لهم من جماهير الأوروبيين الذين يحقدون على الإسلام ولايعرفون لا عيسى ولا محمدا.. والسؤال الذى لابد من الإجابة عنه: متى يدخل المسلمون فى الإسلام؟ متى يصطبغون بروح الإسلام ويعيشون فى ظل أحكامه؟ متى يمشون تحت علم القرآن؟ إن نبيهم قاد أمته من المسجد، ورفع مستواها العلمى والخلقى من صفوفه المتراصة وراءه. فلما اتصلوا بالمشارق والمغارب نقلوا الجماهير من الأرض إلى السماء « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال

(١) الحشر: ٧. (٢) الحشر: ٨. (٣) الحشر: ١١. (٤) الحشر: ١٨ـ١٩.

نضربها للناس لعلهم يتفكرون »[1] .

لقد ختمت سورة بنى النضير بنحو عشرين اسما من أسماء الله الحسنى . . تشرح طبيعة العلاقة بالله الواحد . وتعلى هذه العلاقة كى تحيط بالنشاط الإنسانى كله .

إن العالم فى ظل الديانات القاصرة لاتحكمه إلا غرائز السوء ، وهو يكافح من أجل مستوى رفيع للمعيشة هنا . . أما هناك عند الله ، وبعد لقائه ،فلا فكر ولا استعداد .

---

(١) الحشر : ٢١ .

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

المؤمن لايقبل دنية ولايرضى بهوان، ويبذل جهده لمدافعة ظالميه؛ فإذا غلب على أمره أسرّ المقاومة وانتظر مع اليوم غدا يبلغ فيه مراده، ويحقق فيه قول الله سبحانه « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون» (١) .

وقد هزم المسلمون أول تاريخهم فى مكة وطردوا من ديارهم شر طردة، فرفضوا الاستسلام للبغى واشتبكوا مع عدوهم فى حرب مُرّة وصابروا الليالى حتى تحقق لهم النصر . ومن الناس من يستوعر طريق الكفاح وينتهز الفرصة لقبول الأمر الواقع ولايرى حرجا فى الاسْتخذاء أمام عدوه جرصا على سلامته أو سلامة أهله . ولهؤلاء يقول الله تعالى « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . . . » (٢) .

إن من السقوط أن تلين لمن يريد قهرك ويحط قدرك ! ويحقر دينك ويحاول فتنتك ! « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودّوا لو تكفرون» (٣) . ويقول أبو الطيب .

ذلّ من يغبط الذليل بعيش	ربّ عيش أخفّ منه الحمام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه	غـذاء تضْـوَى به الأجسـام

والوفاء للعقائد والمبادئ يفرض الولاء لمن يواليها والبراءة ممن يعاديها واعتراض من يعترضها . كذلك فعل أتباع الأنبياء فى جميع الأعصار. ولذلك يقول الله للمسلمين « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده . . . » (٤) . والمسلمون بذلك لايشترون الخصومة أو يجنحون إلى التهجّم . إنهم يردّون العدوان ويعلنون بقاءهم على دينهم إلى آخر رمق . وفى تحديد العلاقة بين المسلمين وأعدائهم فى العقيدة، يقول الله تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما

---

(١) الشورى : ٣٩ . (٢) الممتحنة : ١ . (٣) الممتحنة : ٢ .
(٤) الممتحنة : ٤ .

ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »[١] .

لقد رأينا العبث الشديد بالمواثيق الدولية ، وبحقوق الإنسان ، ورأينا ألوفا مؤلفة من المسلمين يُغار عليهم، فيدعون بيوتهم لمن يسكنها ويعيشون هم فى العراء عشرات السنين ،فهل الرضا بذلك شرف؟وهل الغضب لذلك تعصب دينى ؟

إن الله يحب العدل ، فأين العدل فى استضعاف المسلمين على هذا النحو الأثيم ؟

الحق أن استنهاض الهمم عالميا لتغيير هذه الأوضاع عبادة لله ،وإنصاف للبشر، واحترام للإنسانية .

والدول الكبرى لاتهتم إلا بمصالحها الخاصة ، ولاتكترث بما يصيب الآخرين ! وهذا لايجوز . . . ومن هنا كان الحب فى الله والبغض فى الله من عناصر الإيمان ، فإذا أحببت جائرًا لنفع يعود عليك أو كرهت عادلا لطمع لم يَسُقْه إليك، فاتّهم إيمانك ! إن المشاعر المعتلة دليل إيمان مزيف .

وقد ختمت السورة بما بدئت به من ضرورة التعصب للحق وحده والانحراف عن أهل الريبة والفسق « يأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور »[٢] . وحدث فى معاهدة الحديبية عندما أملى المشركون شروطهم على المسلمين أن فرضوا هذا البند الغريب : من ترك مكة مسلما لم يجز لأهل المدينة أن يستقبلوه مهاجرا معهم . ومن ترك المدينة مرتدا فلأهل مكة أن يؤمنوه ويطمئنوه !! وقد قبل الرسول ﷺ هذه الجاهلية المتكبرة ، وشاء الله أن يكون أهل مكة أول من يُكْوَى بنارها ويسعى لإلغائها .

لكن بعض النساء فى مكة شرح الله صدورهن للإسلام فأين يذهبن ؟

لقد نزل الوحى آذنا بقبولهن فى المدينة ، فلا مساغ لتشريدهن فى الأرض « يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار. . »[٣] .

ونلاحظ أن المسلمين أمروا بتعويض المشركين الذين آمنت نساؤهم ، كما أن هناك نساء لحقن بأهل مكة مرتدات ، فقال الله تعالى «ولاتمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم »[٤]. وهذه تنظيمات عادلة تدل على روح الدين ولم يطل بها عهد،

---

(١) الممتحنة : ٨ـ٩ . (٢) الممتحنة : ١٣ . (٣) الممتحنة : ١٠ .
(٤) الممتحنة : ١٠ .

فسرعان ما فتحت مكة ودكت معاقل الوثنية وبنيت الأسر المسلمة على التوحيد الخالص .

على أن الإسلام ـ كما تقرر فى سورة المائدة ـ أباح الزواج بالمحصنات من الكتابيات ، وأين هن اليوم؟ إن الحضارة الحديثة قلما تعرف الإحصان ، فقد غاضت فى ربوعها مواريث النبوات الأولى . . .

وانتهت سورة الممتحنة بهذا الميثاق :

« يأيها النبىّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله . . . »(١) . وقد بايع النبى النساء بعد فتح مكة ، وكانت المبايعة شفوية لم يضع يده فى يد واحدة منهن . . .

إن الذى يقرأ قصة الحضارة لديورانت يعلم أن الجو الدينى قد يذهب طهره كله بالعلاقة الفوضوية بين الرهبان والنساء ، فمن الخير المباعدة بين أنفاس هؤلاء وأولئك ، ولذلك حدَّد النبىّ صلاته بالنساء الأجنبيات تحديدا صارما ، «ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن» (٢).

---

(١) الممتحنة : ١٢ . (٢) الأحزاب : ٥٣ .

سُورَةُ الصَّفِّ

الرسالات الكبرى تحتاج فى نصرتها وحمايتها إلى الجدّ والصدق ، ولايصلح فى مساندتها أهل الكلام والدعوى ، ولا الجبناء الذين إذا كلفوا بالجهاد تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ! إن المبطلين وأصحاب الأهواء لديهم جراءة فى خدمة مايعتنقون ، ولن يستطيع قهرهم إلا مؤمنون شداد يستميتون فى دعم الحق ، ويرخصون فى سبيله النفس والمال ، ويتراصُّون فى مواجهة العدو ، كلما استشهد بطل حل مكانه آخر .

« ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض »(١) .

أما الكلام المرسل والصياح العالى ، فلا يجديان فى بلوغ غاية . ولذلك عوتب المؤمنون الذين لايرتفعون إلى هذا المستوى « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون »(٢) .

إن المؤمن عندما يتفانى فى مرضاة ربه ، يتجاوب مع كل شىء فى الكون يسبح بحمد ربه . أما المقصِّر العاصى ، فهو شذوذ فى الكون وخروج على قاعدة الطاعة ، ولذلك افتتحت سورة الصف بهذه الآية .

« سبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم »(٣) . ثم وقع بعد ذلك التوبيخ ، وذكرت الأمم التى لم تصْدُق الله ، بل حادّت الله ورسله .

وأول هذه الأمم اليهود الذين آذوا موسى وأتعبوه وفقدوا الشجاعة فى مقاتلة عدوه ، وسرعان ماضيعوا الكتاب الذى نزل عليهم .

« وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم »(٤) . وخذلان أى نبى يكون بالزهد فى تعاليمه والجزع من لقاء عدوّه . .

ثم ذكرت السورة عيسى وقومه . . فبينت أن عيسى عليه السلام صاحب رسالة محدودة الزمان والمكان ، فهو مبعوث إلى خراف بنى إسرائيل الضالة ، يربطها بالتوراة التى تمردت عليها ، ويعالج

---

(١) القتال : ٤ .　　(٢) الصف : ٢ ـ ٣ .　　(٣) الصف : ١ .

(٤) الصف : ٥ .

أمراضها النفسية والاجتماعية ، ويمهّد لنبوة عامة تهدى البشر كلهم إلى الله الواحد . .

« وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسْرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدىّ من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد . . . » (١) . وعندما ننظر فى الكتب التى ألّفها تلامذة عيسى ، والتى سمِّيت تجوُّزا أناجيل ، نجد كلمات جديرة بأن نقف عندها متأملين . ففى إنجيل متى فى الإصحاح الرابع والعشرين يقول عيسى عليه السلام « . . . . ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرا ، ولكن الذى يصير إلى المنتهى فهذا يخلّص ويكرز ـ أى يدعو ـ ببشارة الملكوت هذه ، فى كل المسكونة ، شهادة لجميع الأمم ثم يكون المنتهى . . . »

ونتساءل : من هذا الذى يدعو الملكوت ويعرض نفسه على العالم أجمع ويبقى حتى نهاية العالم ؟ هل عرفت هذه الصفات لشخص آخر غير محمد ؟ وفى إنجيل يوحنا فى الإصحاح الرابع عشر « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر يثبت معكم إلى الأبد » وهذه كلمة يونانيةتعنى الرحيم الذى يدافع الأحزان! فمن هو هذا القادم الذى تبقى رسالته إلى الأبد ؟

إننى أتبع محمدا لأن كتابه تجاوب مع ضميرى ! إننى عرفت الله بعقلى بعدما نظرت فى نفسى وفى آفاق العالم الذى يضمنى وسائر البشر . وإذا كان كتاب محمد لايصلح دليلا على رسالته ، فلن يصحّ فى الأذهان شىء ، ولن تصدق رسالة بشر ! ! والنبوءات التى تشير إلى صدق محمد قد تخدم أصحابها ، أما محمد نفسه فحسبه كتابه وسيرته . .

« ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لايهدى القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نورِه ولو كره الكافرون» (٢) .

إن العقل أثمن ما وهب الله للناس ، والإيمان الذى يقوم على تخدير العقل أو تمويته لاوزن له ولا خير فيه ، ولكن جماهير غفيرة تنحّى العقل جانبا ثم تتكلم ، فكيف نسمع لها ؟

وقد ختمت السورة بمعنيين كريمين يصدقان مابدئت به :

الأول أن الحياة إيمان وجهاد « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» (٣) . وقد اقتبس شوقى هذا المعنى فى قوله :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا ... إن الحيـــاة عقيـدة وجهـاد !

أما الثانى فهو استعداد المؤمن فى كل موطن لنصرة الله وإعلاء كلمته . إنه يمشى فى دروب

---

(١) الصف : ٦ . (٢) الصف : ٧ـ٨ . (٣) الصف : ١١ .

الحياة مصيخا السمع، فإذا بلغته صيحة تدعو إلى الله هرع إليها ولبّى صاحبها وكان رجع الصدى، كما نصدّق المؤذن عندما يشق بصوته أجواز الفضاء داعيا إلى الصلاة .

وقد اعتمد عيسى على هذا التأييد عندما رأى اليهود يرتابون فيه وينصرفون عنه فصاح : من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله (١)! وحواريو عيسى كأصحاب محمد، ككل متجرد للحق يؤنس وحشته ويرفع رايته، هم أمل الرسالات فى قيامها وبقائها. والإسلام فى هذا العصر بحاجة إلى أن نفهم هذه الآية فى ختام سورة الصف « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله . . »(٢) .

---

(١) الصف : ١٤ .
(٢) الصف : ١٤ .

سورة الجمعة

« يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم »[1] . بهذه الآية افتتحت سورة الجمعة، تحريضا للمؤمنين على أداء الفريضة وسماع الخطبة، وإذا كان كل شىء يسبح بحمد الله ، فلم يتأخر المسلمون عن المشاركة فى هذا الحفل الجماعىّ العام؟ إنهم يحثّون الخطى إلى المساجد تكثيرا لسواد المسلمين وتقوية لصفوفهم .

ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعى لنا ، وفيه ساعة مباركة لايوافقها عبد مقبل على الله بدعوة أو عبادة أو تسبيح إلا تقبل الله منه وغفر له . ويستحب الغسل والطيب لهذا اليوم !

وقد يكون افتتاح السورة بالتسبيح لونا من توبيخ الذين خرجوا من المسجد لما سمعوا قدوم القوافل بالبضائع « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين »[2] .

وصدر السورة ووسطها يحدثان عن ابتعاث الرسول الخاتم من بين العرب الأميين . والواقع أن الله صرف الرسالة العامة عن أهل الكتاب، لأن أمراض التدين الفاسد كثيرة تجمع بين الكبر والقسوة والغباء . وإذا كان القوم لا يصلحون أنفسهم، فكيف يصلحون الآخرين ؟ إذا كانت طباع العامة سليمة وأطماعهم قليلة، فإنهم أسرع استجابة للحق وقدرة على نصرته ، لذلك لم يبعث الله نبيه من اليهود ، وآثر عليهم العرب « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[3] .

وقد بلغ العرب الرسالة وذابوا وسط الشعوب الأخرى ، أو كانوا جسورا حسنة لتوصيل أمانات الوحى .

أما اليهود فقد عبدوا جنسهم ونسوا ربهم وذكروا شهواتهم « مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين »[4] . وقد كان اليهود ولا يزالون أبعد الناس عن طلب الآخرة وأشدهم تكالبا على حطام

---

(١) الجمعة : ١ . (٢) الجمعة : ١١ . (٣) الجمعة : ٢ .

(٤) الجمعة : ٥ .

الدنيا . وهم قد يصلحون لأى عمل إلا اقتياد الجماهير إلى الله « قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولايتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم»[(١)] .

ويحزننا أن المسلمين المعاصرين قد سرت إليهم العدوى من أهل الكتاب، فنسوا الوحى ورفعوا فى أوطانهم شعارات أخرى عرقية ودنيوية مبتوتة العلاقة بدين الله .

ونحن نجاهد للعودة بالأمة إلى كتابها وتراث نبيها ، حتى تحكم دنيا الناس بدين الله .

(١) الجمعة : ٦ـ٧.

سورة المنافقون

النفاق من أخسّ الصفات ، وهو ازدواج فى الشعور والسلوك يبدأ بأن يكون المرء ذا وجهين ولايزال ينمو حتى يكون صاحبه كالحرباء التى تصطبغ بألوان شتى حسب الوسط التى تكون فيه ! والكذب والحلف عليه من أول أخلاق المنافقين . وهم يقتربون أو يبتعدون حسب هبوب الريح التى تحملهم هنا أو هناك ، فليس لهم محور ثابت يدورون حوله ، أو وجهة محددة يرتبطون بها . إنما هى منافعهم الخاصة التى يرنون إليها ولايتحولون عنها . « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » (١) .

على أن الأحداث اليومية المتكررة وماتفرضه شتى المواقف على الناس لاتدع النفاق مستورا ، فلابد أن ينكشف : إما فى فلتات اللسان وإما فى التعليق على الأحداث المفاجئة .

وسورة « المنافقون » فضحت زعماء النفاق ، وسجلت عليهم ماحاولوا الفرار منه ! إنهم حريصون على أن تكون صورهم جميلة وشاراتهم معجبة ـ لتستر خباياهم ـ لكن حقدهم يغلبهم فيقولون مايسئ إلى المهاجرين ومايحرج الأنصار .

قد يقع شجار تافه بين بعض الخدم من هنا . ومن هنا فيجىء هؤلاء ليجعلوه فتنة جائحة تثير البغضاء وتنشئ الوقيعة .

« هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون » (٢) .

إن الله ابتلى المهاجرين بترك أموالهم وبيوتهم فى مكة ، وابتلى الأنصار باستقبالهم ومواساتهم فى المدينة ؛ فهل يجوز أن يقول ابن أبىّ : إننا مع هؤلاء كما قيل « سمّن كلبك يأكلك !! » محرضا الأنصار على إيذاء المهاجرين ؟! أو يقول : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون » (٣) ؟ هذا كلام امرئ يبغى الشرّ للإسلام وأمته ويريد تمزيق الشمل وبعثرة الصفوف !

---

(١) االمنافقون : ١ .　　(٢) المنافقون : ٧ .　　(٣) المنافقون : ٨ .

وعبد الله بن أبيّ كره الإسلام ونبيه لأنه كان مرشحا لزعامة المدينة قبل الهجرة ، فلما قدم رسول الله ابتعد عنه التاج الذى كان يحلم به ! ولو أن الأحمق آمن بالله واليوم الآخر لكان له من المجد مايرجح بالدنيا وما فيها ، إن الكفر حماقة لاقرار لها . . . ولو أنه عندما أخطأ جاء إلى رسول الله معتذرا لاستغفر له ، وتاب الله عليه ، لكنه أبى .

وقد ختمت السورة بما يجعل العقلاء يؤثرون الله وماعنده ولاينزلون بهمتهم إلى الحطام الزائل «يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون»[1] .

(١) المنافقون : ٩ .

سُورَةُ التَّغَابُنِ

« يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير» [١].
الكون يعرف ربه ، يعرف أن وجوده منه وبقاءه به ، ولذلك يسبح بحمده وينقاد لأمره . أما الناس فلهم شأن آخر . ماأكثر الذين يتجرءون عليه ويجحدون حقوقه ويحاربون رسله : « خَلَق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين »[٢] . أى عقوق هذا وأى إسفاف ؟!

فيا عجبا ، كيف يعصى الإلّه   أم كيف يجحـده الجاحـد ؟
وفـى كـل شـىء لـه آيـة !   تـدل علـى أنـه الـواحـد !

وقد بدأت سورة « التغابن » بهذا التسبيح تنبيها إلى شذوذ المعصية ووضاعة متركبها « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير » [٣] .

ومن النقائض أن يحسن الله تصويرك فتسىء تقديره ! وأن يسبغ عليك النعمة فتطيل الغفلة والإنكار ! وقد أنكر الناس الوحى لأن حملته بشر مثلهم . حتى عاد وثمود فى القرون الغابرة قالوا: « لو شاء ربنا لأنزل ملائكة . . »[٤] .

إنه صعب على الإنسان أن يعترف بامتياز شخص آخر . إنه يريد أن يذهب بنفسه ويتطاول على غيره ! خصوصا الأغبياء ، فإن لذتهم فى احتقار الذكاء وإهانة أهله « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد»[٥] . إن استكثار التفوق على الغير والسعى فى هدمه وهزيمته طبيعة فى بعض الأفراد ، بل يخيل إلى أنه طبيعة فى بعض الشعوب !ولو أن الأنبياء والمصلحين يُدِلّون بما أوتوا من مواهب ويجنحون إلى الكبر والاستعلاء ، لقلنا إنهم استثاروا غيرهم وألجئوه إلى الكبر والكفر. أما والرسل من أشد الناس تواضعا وألينهم عريكة ، فإن تحديهم منكر مضاعف ومعصية سافرة . .

---

(١) التغابن : ١ .   (٢) النحل : ٤ .   (٣) التغابن : ٢ .
(٤) فصلت : ١٤ .   (٥) التغابن : ٥ـ٦ .

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثنّ ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير» [1] . إنكار البعث جريمة قديمة . ولكنها لم تلق الانتشار الذى أتيح لها فى هذا العصر ، فالحضارة التى تظلنا زينت الحياة الدنيا وأهالت التراب على مابعدها ، بل إن الكلام عن اليوم الآخر وهم لايجوز أن يجرى على ألسنة العقلاء !

وأهل الكتاب يقودهم اليهود فى هذا الإنكار ، وملاحدة العرب يجرئون الجماهير على نسيان الله وجحد لقائه، ويضيقون بالقرآن وهو يصور مشاهد الآخرة . إن قضايا الدين كلها تحتاج إلى عرض جديد يقاوم الإلحاد السائد .

« فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا » [2] . النور هو القرآن ، وقد سمِّى كذلك فى آيات كثيرة « ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا » [3] .

ولايوجد كلام موثق من ألفه إلى يائه صادر عن الله سبحانه إلا هذا الكتاب ، وقد أحصى العقائد المنجية وساقها فى حشد من الأدلة تورث اليقين . وليت المسلمين يرتفعون إلى مستوى كتابهم ويؤدون رسالته .

« يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن » [4] . شعور الناس يوم البعث يحتاج إلى شرح . سيقول البعض « ياليتنى قدمت لحياتى » [5] . وسيندم كثير على أنهم أضاعوا أوقاتا طويلة فى غير طائل وأوتوا الصحة فلم ينتفعوا بها فى طاعة ، كما جاء فى الحديث « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ » .

وسيندم آخرون على أنهم صادقوا فلانا الكبير وخاصموا فلانا الضعيف ! إن فرصا كثيرة للنجاة أفلتت منهم بغباء شديد ! « ربَما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » [6] . وهيهات لقد مضت أيام العمل وأتت أيام الحساب . .

ولما كانت السورة مدنية ، وكان المهاجرون والأنصار مكلفين بإقامة دولة الإسلام فى وجه صعوبات بالغة وخصومات عنيفة ، فقد قال الله تعالى تصبيرا للقوم وتقوية للإيمان: « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم» [7] . إن إكراه المرء على ترك وطنه نصرة لدينه شىء شاق ، وليس يتحمل ذلك كل إنسان .

---

(١) التغابن : ٧ . (٢) التغابن : ٨ . (٣) الشورى : ٥٢ .
(٤) التغابن : ٩ . (٥) الفجر : ٢٤ . (٦) الحجر : ٢ .
(٧) التغابن : ١١ .

قال أبو الطيب :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال !!

وقد لبى نداء الهجرة أناس فسبقوا سبقا بعيدا ، وتقاعس آخرون ليستريحوا مع زوجاتهم وأولادهم ففقدوا هذا الشرف . وكثير أولئك الذين يُصمّون آذانهم عن نداء الواجب ليحيوا مع من يحبون! لهؤلاء يقول الله « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم» [1] . قد يكون التعلق بالحياة طريق الخيانة والضياع «إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم» [2] .

والحق أن مقاومة الضلال والعدوان تحتاج إلى مغارم وتضحيات ينبغى أن يتحملها أهل الإيمان بجلد ورضا . وقد رأينا فى عصرنا مبطلين لايبالون بشىء يستحيل أن يقهرهم إلا رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه . أما أن يتجرأ اللصوص ويتقهقر رجال الشرطة ، فلا أمان ولا إيمان !!

ولذلك ختمت السورة بضرورة البذل والكفاح « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» [3] .

---

(١) التغابن : ١٤ . (٢) التغابن : ١٥ . (٣) التغابن : ١٦ .

سورة الطلاق

سورة الطلاق تسمى سورة النساء الصغرى . وقد أودع الله فيها جملة أحكام تتصل بالأسرة، وتقيم كيانها على أسس سليمة ، وتعالج ماقد يعرض لها من علل ومتاعب . وأسلوب السورة كلها وحدة موضوعية جديرة بالتأمل العميق ، وتدل على ترابط الآيات وتماسك سياقها فى إبراز حقيقة معينة. وليس فى السورة حكم فقهى من اجتهادى الخاص ، وإنما اخترت من اجتهادات الأقدمين ما يناسب هذا التفسير ومايوافق رأيى . .

ولمن شاء مخالفتى فلست مكرها أحدًا على وجهة نظر لى .

فى صدر السورة نداء للنبى عليه الصلاة والسلام لأنه قائد الأمة وإمام الهدى ! ومناداة الرسول فى شأن يشيع بين أفراد الأمة كلها يشير إلى أن الأمر مهم ، وأنه يخرج من النطاق الفردى الخاص إلى النطاق الجماعى العام .

والواقع أن الطلاق يتجاوز الرجل الذى أوقعه ، إلى امرأته ، وأولادهما وأسرتيهما ؛ فلابد من وضع ضوابط له ، حتى لايكون صدوره بإرادة مفردة بابا إلى الطيش والتظالم . .

ومن هنا حدد الشارع له وقتا معينا ؛ فلا يجوز فى أثناء الحيض والنفاس ، ولايجوز بعد طهر مس امرأته فيه ، وينبغى أن يحضره شاهدان . وعلى الزوجة إذا سمعت الطلاق ، أن تبقى فى بيت الزوجية ، فليس ماسمعته إجهازا على الحياة الزوجية وإنما هو إنذار بالقضاء عليها ، وبقاؤها حيث هى مطلوب ، فقد تستأنف هذه الحياة مع تغير الظروف التى دفعت إلى الطلاق .

إن ثورات الغضب قد تتلاشى وتتغلب بواعث الوئام خلال شهرين أو ثلاثة ، وذاك معنى الآية الأولى « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لاتخرجوهن من بيوتهن ولايخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا »[1] .

---

(١) الطلاق : ١ .

وقد لاحظت أن الإيمان بالغيوب والانبعاث عن تقوى الله تكرر خلال الآيات والأحكام الفقهية ، حتى يمكن تفريج الأزمات العائلية الباعثة على الشقاق بالاعتماد على الله ومغالبة الأمر الواقع « ومن يتق الله يجعل له مخرجًا » [١] .

وذكر الوحى الكريم تفصيلات للإنفاق فى السراء والضراء وبيانات لحالات الإرضاع وغيرها. وبدا من الارشاد الإلهى أن الله سبحانه لايريد أن يتحول الطلاق إلى كارثة اجتماعية كالحة ، وألا يفقد المسلمون أدبهم وتواصلهم مع هذه المحنة . .

ومع ذلك كله ، فإن الطلاق كما مارسه المسلمون اقترن بمآس كثيبة . فمن الناحية الفقهية وقع الاعتراف بالطلاق البدعى، وانتشر الحلف بالطلاق ، كما انتشر تعليقه على التوافه المحقرة ، وسطرت فى كتب الفقه نوادر لوقوع الطلاق تستدعى العجب . ولايزال الأوروبيون ينظرون إلى سهولة الطلاق وميوعة حدوده عندنا نظرة إنكار ، وهى ميوعة اختلقها الناس ولايعرفها الإسلام .

ويكاد يستحيل أن تسمع امرأة الطلاق وتبقى فى البيت ،كما يكاد يندر وقوع الطلاق داخل النطاق الذى رسمته السنة النبوية من طهر ، واعتزال وإشهاد . .

والفقهاء المتربصون بمصير الأسرة المرحبون بتمزيق عراها لأتفه الأسباب والأقوال، لاحصر لهم . .

وقد أضرّ ذلك إضرارا بليغا بسمعة الإسلام وانتشار رسالته، واستغله أعداؤه استغلالا واسعا. . ولذلك فأنا انظر إلى النصف الثانى من السورة على أنه امتداد وتكميل لنصفها الأول ، وتحذير لأمتنا من العبث بأحكام الطلاق .

ويبدأ ذلك بقوله تعالى : « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابًا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها . . . » [٢] . إلخ .

وليتدبر القارئ قوله تعالى فى إحكام الطلاق : « ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » [٣] . وقوله بعد ذلك « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله . . » [٤] إن السياق متماسك ، ولفظ الأمر واحد. ولا يجوز لأمة شرفها الله بالوحى والهدى أن تفرط وتعبث وتجعل نظام الأسرة فى مجتمعها لغوا !! .

كما لايجوز أن تبعثر العقبات فى طريق الدعوة وانتشار الرسالة بسوء تطبيقها للإسلام وسوء تنفيذها لأحكامه !

---

(١) الطلاق : ٢ . . (٢) الطلاق : ٨ـ٩ . (٣) الطلاق ٥ .
(٤) الطلاق : ٨

وأخيرا تختم السورة بهذه الآية الدالة على أن الله خلق الكون لنعرفه ، وأنزل الوحى لنتبعه ؛ وبيْن الكون الدالّ على الله بصمته ، والوحى الهادر بنطقه يعرف المسلمون طريقهم « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعْلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما »[1] .

هذه سورة الطلاق أدعو كل مسلم لقراءتها مرة أخرى ، على ضوء ما شرحت لعله واجد فيها مايهدى ويجدى .

(١) الطلاق : ١٢ .

سورة التحريم

أمهات المؤمنين خيرة نساء الأمة وأعلاهن طهرا ومكانة وتقوى، وقد صحبن النبىّ الكريم وعاونَّه على أداء رسالته وارتفعن إلى مايتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة ، وقد آخذهن الله بأمرين معروفين فى السيرة :

الأول، اتفاقهن على مطالبة النبى بالمزيد من النفقة ، وضيقهن بالمعيشة الناشفة التى التزمها . وقد رضين جميعا بالبقاء معه عندما أكد لهن أنه مابدٌّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة!

أما الأمر الثانى فإن النبىّ كان لطيف العشرة لين الجانب دميث الأخلاق، فأطمع ذلك بعض نسائه فى الجراءة عليه. وكانت الغيرة هى السبب ،فزعمت إحداهن أنها شمت منه رائحة غير طبيعية ، فقال : شربت عسلا عند زينب !

فقالت : لعل نحله وقع على نبات سيئ .

فقال : لا أعود إليه ولاتخبرى أحدا .

ثم ظهر أن القصة مفتعلة ، وأنها مؤامرة لتزهيده فى فلانة !! وغضب الرسول لما وقع، وهجر نساءه جميعا حتى شاع أنه طلقهن ! ونزلت سورة التحريم تطفئ هذه الفتنة وتؤدب من أحرج الرسول وأساء المسلك ، وبدأت بالآية « يأيها النبى لم تحرِّم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم . . » (١) .

والعلماء على أن تحريم الحلال يمين، وكفارته كفارة يمين ، وليس لأحد أن يحرِّم ما أباح الله . ثم أومأ الوحى إلى القصة . والمفسرون يذكرون أن حفصة بنت عمر وعائشة بنت أبى بكر هما سبب ماحدث، والمعنيتان بقوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » (٢) .

---

(١) التحريم : ١ ـ ٢.

(٢) التحريم : ٤ .

ومعنى صغت قلوبكما انحرفت وجدير بكما إصلاحها وإلا أصابكما مايحبط عملكما ويعزلكما عن سائر الصالحين !

ثم اتجه الخطاب إلى نساء النبيّ ينصحهن بالوعى والاعتدال وتقدير الأدب الرفيع الذى يُعاملن به « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا »(١) .

إن الشمائل الجميلة الحلوة لصاحب الرسالة لايسوغ أن تكون سببا فى إزعاجه وإتعابه . . !

وبيت النبوة ليس مسرحا للغيرة والتحاسد وإنما هو صومعة عبادة ومجال إقبال على الآخرة ، وتفانٍ فى مرضاة الله . ولعل ماختمت به السورة تلويح شديد القسوة لمن شاركن فى إغضاب الرسول وأثرن الحزن فى نفسه . إنّ امرأة نوح وامرأة لوط لم يساعدا رجالهما فى إبلاغ الدعوة ، بل كانتا عونا لأعداء الله وخصوم الوحى « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين»(٢) . والخيانة المذكورة ليست فى الناحية الجنسية ، فتلك غضاضة يأباها الله على عباده المرسلين ، وإنما هى خيانة الدعوة والهدف الأسمى من الحياة . .

كانت لسقراط امرأة سليطة تزدرى شخصه وتستهجن فلسفته وتنغص حياته ! وكانت لنوح ولوط نسوة ينصرن أقاربهن ويخذلن أزواجهن ويكرهن الله ورسله !! فجعلهن الله مع الكفار فى مصير واحد «وقيل ادخلا النار مع الداخلين»(٣) .

والمسئولية الشخصية أساس الحساب فى الإسلام فلا يغنى والد عن ولد ولا زوج عن زوجة . وسيدخل فرعون النار وتفوز امرأته بالجنة لايمسها من عمله شىء .

وبين أوائل السورة وخواتيمها ، طلب الله من أرباب الأمر أن يرقبوا بيوتهم ويجعلوها مهادا للنعيم المقيم وحجابا عن العذاب الشديد « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة . . . »(٤) .

ثم بين جل شأنه أن الله لم يكلف الناس بالعصمة فلا يخطئوا أبدا ، بل أمرهم إذا أخطئوا أن يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا إلى ربهم ويستفيدوا من التجارب مايرزقهم الصواب ويحصنهم من الانزلاق « يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . . . »(٥) والتوبة النصوح هى التى تصنع ضميرا آمرا بالخير زاجرا عن الشر مذكرا بالله . .

---

(١) التحريم : ٥ . (٢) التحريم : ١٠ . (٣) التحريم : ١٠ .
(٤) التحريم : ٦ . (٥) التحريم : ٨ .

ومما يذكر هنا أن بعض المستشرقين استنكر على الوحى الإلهى أن يعنى بنزاع ثار فى بيت محمد ، وأن يشغل الناس به . وقد سرد الدكتور محمد حسين هيكل الشبهة ثم قال : أليست القصة أولى بالذكر مما أورده الكتاب المقدس عن زنى لوط بابنتيه بعدما أسكرتاه وأفقدتاه الوعى ؟

ونقول نحن : أوليست أولى بالذكر من زنى أحد الأنبياء بامرأة ابنه ، والثمن الذى دفعه فى هذه الفعلة الشنعاء .. إن المستشرقين يلمحون القشة فى عيون الآخرين ولايحسون الخشبة فى عيونهم . ولله فى خلقه شئون .

سورة الملك

الدنيا دار لها مابعدها . والتديّن الفاسد يستقبل هذه الحقيقة بالنواح والتشاؤم، لا بالعمل الجاد والاستعداد للخلود الدائم .

إن تحديد الموقف من الآخرة لابد منه فى مواجهة الحضارة المعاصرة . وهذا التحديد يفرض علينا أن ندرس الحياة وأن نعرف الحكمة من الوجود الموقوت بها .

إن العقل البليد الذى لايدرس الحياة ولايستعدّ لما بعدها ليس هو العقل المؤمن . وسورة الملك تنبه إلى هذا فى كلمات واعية « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »(١) . «الذى خلق سبع سماوات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت »(٢) . « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح . . . »(٣) .

والمحزن أن العقل الإسلامىّ الآن جهول بالكون ، تائه عن قوانينه ، ضعيف الخبرة بها والقدرة على استغلالها . .

وهنا شىء آخر انضم إلى هذا العجز: شراهة فى طلب الملذات والعكوف عليها مع السماع إلى أغان تقول له الدنيا ضحك ولعب وعش أيامك عش لياليك . واليوم الفائت لن يعود أبدا ، فلماذا تضيعه ؟ وهكذا تجمعت على المسلمين كل الهزائم المادية والروحية. . فلا عجب إذا هُدِّدوا بمصاير الكفار الذين إذا رموا فى جهنم « سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء . . . »(٤) . «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير »(٥) .

المفروض أن العقل المؤمن أخبرُ بالحياة وأذكى فى الكون من العقل الملحد ، لأن الإيمان بالله يقوم فى الإسلام على تأمل فى الكون ووعى بآيات الله فى آفاقه ! إنه لشىء يثير الحزن والقلق أن نجد المسلمين فى مؤخرة القافلة البشرية على النحو الذى يقول فيه الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولايستأمرون وهم شهود !!

---

(١) الملك : ٢ . (٢) الملك : ٣ . (٣) الملك : ٥ .
(٤) الملك : ٨_٩ . (٥) الملك : ١٠ .

قد يكون الإيمان بالله من الغيوب التى يعمل فيها العقل عمله، ولكن أثر هذا الغيب فى النفس أقوى من الحواس كلها لأن المرء قد يضحّى بروحه استجابة لهذا الغيب، وقد يترك أشهى الملذات استجابة، لوحيه ولذلك قال الله سبحانه « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير»[1].

ومع الإيمان بالغيب هناك سيطرة على عالم الشهادة ومهارة فى تطويع فجاج الأرض لما ينشده المسلم من تمكين وسيادة « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه. . . »[2] ومع الأكل من هذا الرزق فمستقبل الإنسان ليس هنا. . إنه عند الله « . . . وإليه النشور »[3].

والآية الأولى فى هذه السورة تشير إلى أن الله بيده الملك . وقد صرحت آيات أخرى أنه بيده الفضل ، وبيده الخير، وأن الأرض جميعا قبضته ،وأن السموات مطويات بيمينه . إن استمكانه من ملكه ـ جل شأنه ـ لانظير له ، ويستحيل أن يقوم له معترض !

ولذلك يقول للكافرين « أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا . . . » [4] . وتعبير « من فى السماء » نموذج من تعابير أخرى تصف الملكوت الإلهى . فإن الله ، وإن كان مستويا على عرشه فعلمه وسمعه وبصره وقيامه على كل نفس وتدبيره لكل أمر وإمساكه لكل ذرة فى السموات والأرض، تجعله جل شأنه لايغيب عن شىء ولايغيب عنه شىء ولذلك يقول « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » [5] .

ويقول « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا » [6] .

ويقول « وهو معكم أين ما كنتم » [7] .

إن شهود الله علينا لاشك فيه . ومن التطاول البحث فى كنه هذا الشهود ، إننا لانعرف كيف يحوّل الله اللقيمات التى نطعمها إلى عيون وآذان ، فكيف نعرف كنه ذاته وقربه ؟إن الله أقرب إلينا من أنفسنا ولكننا أعجز من أن نبصر !! وحسْبنا إذا علمنا ذلك أن نستنصر به ونسترزقه ونعدّ غيره صفرا كما بيّن لنا فى هذه السورة « أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور . أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجّوا فى عتو ونفور » [8] .

---

(١) الملك : ١٢ . (٢) الملك : ١٥ . (٣) الملك : ١٥ .
(٤) الملك : ١٦ ـ ١٧ . (٥) البقرة : ١١٥ . (٦) المجادلة : ٧ .
(٧) المجادلة : ٧ . (٨) الملك : ٢٠ ـ ٢١ .

وتتحدث السورة فى آخرها عن الكافرين الذين يحاولون نقل المعركة إلى الرسول وأتباعه من المؤمنين ، فيسائلهم : ماجدوى ذلك عليكم إذا كنتم أغبياء تعمون عن الواقع حتى تصطدموا به؟ هل قصور الآخرين - كما زعمتم - يشفع لكم ويسوّغ ضلالكم ؟

« قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم . قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين»[1] .

وتختم السورة بسؤال إلى عبيد المادة الذين ينكرون ربها المسخَّر لها « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين»[2] ؟

حكوا أن أحد الملاحدة سمع هذه الآية فقال : تأتينا به الفئوس والمعاول ! أى أن تعميق الحفر فى البئر سيخرج الماء حتما ! وشاء الله أن يغيض ماء عينه فيعمى ! فهل قدر أحد على ردّ بصره ؟ نعوذ بالله من الخذلان .

---

(١) الملك : ٢٧ - ٢٨ . (٢) الملك : ٣٠ .

سورة القلم

« ن والقلم ومايسطرون » [1] . هل القلم المقسم به هو أداة المعرفة العامة ؟ ربما ، فالكتابة من أهم وسائل المعرفة . أو المقصود كتابة القرآن نفسه وتسجيل ماحوى من حكمة بالغة ؟ هذا هو الأظهر هنا . فالقرآن الكريم أهم كتاب ظهر فى الدنيا ، وهو من ألفه إلى يائه وحى خالص لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد اختار الله لتبليغه الإنسان الأول فى الوجود فكرا وشرفا وسيرة ، فلا قيمة لكلام الأعداء « ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم» [2] .

أما أعداء الوحى، فنفر من الناس لايزينهم شىء ، وستكشف الأيام عن دعاواهم وأحوالهم ـ وقد كشفت ـ فذهبوا بددا وبقى الإسلام .

وقوله تعالى « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » [3] ، يفيد أن مشركى مكة سوف يتأبون على الإسلام أولا ثم يعرفون الحق ، ويدخلون فيه وينصرونه . وذاك ماوقع ! فإن ملاك الحديقة المذكورة شحّوا بحق الفقراء فيها ، فأهلك الله ثمرها فلما ندموا على رذيلتهم « قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون» [4] .

ومن يرغب إلى الله يتب الله عليه ، ويلقه بقبول حسن . وقد أعز الله قريشا بالإسلام بعدما أهانت نفسها بالكفر .

أما المصرّون على زيغهم فلا مستقبل لهم « أفنجعل المسلمين كالمجرمين. مالكم كيف تحكمون»[5]؟ ومنطق الكفار فى شتى الأحوال لايسانده عقل ولا نقل، ولذلك قال الله سبحانه متهكما بهم «أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيّرون» [6] . إنه لاشىء لديهم يستندون إليه سوى الغرور والتعلق بالأوهام . وأمامهم حساب شاق يندمون فيه، ولات ساعة مندم «يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » [7] . وكشف الساق مثل لبلوغ الأمر غاية

(١) القلم : ١ . (٢) القلم : ٢ـ٤ . (٣) القلم : ١٧ .
(٤) القلم : ٣١ـ٣٢ . (٥) القلم : ٣٥ـ٣٦ . (٦) القلم : ٣٧ـ٣٨ .
(٧) القلم : ٤٢ .

ولا عذر للكافرين فى هذا الموقف؛ فقد خوطبوا فعاندوا ، وأعطوا فرصا شتى فأضاعوها « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون»(١) .

وقد أمر النبى ﷺ بالبلاغ والصبر على متاعبه وتحمّل أذى المشركين مهما بلغ « فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت . . . » (٢) . وقد مرت على صاحب الرسالة ليال كالحة عانى فيها من الحرج والألم مايهزّ الرواسى ، ولكنه ثبت حتى أدّى الأمانة كاملة . وترك رسالة يحرسها جيل جليل نفخ فيه من روحه وبأسه فنشرها فى العالمين .

وعالمية الإسلام مذكورة فى آيات كثيرة ، وبدأ ذلك فى أوائل الوحى النازل بمكة « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وماهو إلا ذكر للعالمين » .(٣) لقد عرف محمد أنه رسول العالم أجمع من وقت مبكر . فسورة القلم المكية من أوائل السور نزولا . .

---

(١) القلم : ٤٤ . (٢) القلم : ٤٨ . (٣) القلم : ٥١ ـ ٥٢ .

سورة الحاقة

« الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ». [1] نحن نظن الدار الدنيا هى الواقع الذى لاريب فيه. فهل يبقى هذا الظن بعد أن نغادرها بالموت ، ونستقبل عالما آخر هو الحقيقة الباقية؟ ونسأل: هل بقى أحد على ظهر الأرض ممن عمروا هذه الدنيا ؟ أم أن الموت حصد الجميع ؟ إن كل الذين جاءوا ذهبوا ، وأغلبهم بوغت بالموت دون أن يستعد لما بعده ! وأمام الجميع يوم آخر يلتقى فيه الأولون والآخرون ، ويعرف الناس الحق كله فيما قدموا وأخروا . .

إن أمما شتى كذبت رسلها ،منها من عوقب ومنها من أرجئ عقابه، وسوف ينكشف أمر الجميع حتما « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . . . »[2] . لقد آن أوان الحساب الجامع والجزاء العام وميز المحسن والمسيء « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه. إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . . »[3] «وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه . . »[4] .

إن الإيمان بالمحسوس وحده يسود العالم الآن. وهناك سباق مجنون لامتلاك المال وتحصيل اللذات ، وهناك زهد عام فى الصلاة والإيثار والحديث عن الله وحده . وبقايا الوحى فى الأمم التى ورثته لم تتحول إلى إيمان واضح وعمل صالح، ويكاد حملة الحق يكونون صورة منفرة عنه مزهدة فيه . ومن المحزن أن تكون هدايات أولى العزم من الرسل فى أيدى أناس واهنى العزم ضعاف البصر. ربما وجدت أحدهم ملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ومع ذلك يشحّ بمواساة فقير . ذاك الذى يقال فيه : « خذوه فغلّوه . ثم الجحيم صلّوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولايحض على طعام المسكين »[5] .

ثم إن هناك جماهير غفيرة ودولا ذات بأس تتوارث إن محمدًا دعىّ وأن رسالته كاذبة . قلت : ماذا كسب محمد من رسالته ؟ الإلحاح على أن الله واحد وأن لقاءه حتم ؟ الإلحاح على أن التقوى

---

(١) الحاقة : ١ ـ ٣ . (٢) الحاقة : ١٣ ـ ١٥ . (٣) الحاقة : ٢٠ .
(٤) الحاقة : ٢٦ . (٥) الحاقة : ٣٠ ـ ٣٤ .

وحدها طريق النجاة ؟ الإلحاح على أنه عبد لايملك لنفسه نفعا ولاضرا ؟ طول الركوع والسجود وحمل السلاح لهزيمة الطغيان ؟ إن محمدا أجدر الناس بالحديث عن الله ، ومانعرف أحدا تحمّس لتنزيهه وتقديسه مثله !!

وهذا سر القسم فى الآيات هنا « فلا أقسم بما تبصرون. ومالا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون . ولابقول كاهن قليلا ماتذكرون . تنزيل من رب العالمين »[1] . ولو حدث أن محمدا افتعل هذا الوحى لكان عقابه صارما « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين »[2] . إن هذا القرآن سيبقى مابقى العالم دعما للإيمان الحق ، وبناء للنفوس الزاكية وبرهانا على صدق صاحبه .

---

(١) الحاقة : ٣٨ـ٤٣ .

(٢) الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧ .

سورة المعارج

فى أول هذه السورة وصف الحق نفسه بأنه ذو المعارج . وذلك كقوله فى سورة أخرى « رفيع الدرجات ذو العرش » [1] . والملكوت الإلهى من الفرش إلى العرش أو من الأرض السفلى إلى سدرة المنتهى قد يقطعه البشر فى خمسين ألف سنة ، أما الروح الأمين وجمهرة الملائكة فتقطعه فى زمن محدود وقد رأينا كيف انتقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام فى لمح البصر ! والمراد هنا أن الذى دعا بعذاب واقع من الله ذى المعارج لم يدع بشئ صعب . إن إهلاكه ليس أصعب من إهلاك بعوضة، لكن هذا الداعى لايصدق بعذاب قريب أو بعيد ، إنه أحمق أو كافر ! وسيرى هذا العذاب حتما « يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن. ولايسأل حميم حميما » [2] .

إن الله خلق البشر على غرائز تشدهم إلى تحت ، وطلب منهم أن يقاوموها صاعدين إلى أعلى فمن أخلد إلى الأرض هلك، ومن اتبع الوحى نجا . . والإيمان فى حقيقته قوة صاعدة طاهرة تتلمس الطريق إلى مرضاة الله « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسّه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا. إلا المصلين. الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين . . . » [3] . وإن المسلم ليأسى عندما يرى أمته لم تألف طريق الكمال، ولم تحَصِّل الشمائل التى تفتح لها أبواب السماء ، مع أنها أُحصيتْ إحصاء فى هذا الكتاب الكريم. لقد بين الله سبحانه أن فى طريق الجنة عقباتٍ يجب اقتحامها ومشقات يجب التغلب عليها ، وماتعرف معادن الناس إلا بهذا الاختبار الجادّ . يقول أبو الطيب :

لولا المشقة ساد الناس كلهم ⠀⠀⠀ الجود يفقر والإقدام قتال

وفى هذه السورة نتلو هذا التساؤل « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين. عن اليمين وعن الشمال عزين أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم . كلا إنا خلقناهم مما يعلمون » [4] . والإهطاع إمالة الرأس والعين لتدقيق النظر . وقد تحوّل المشركون إلى جماعات تلتف بالرسول تريد استكشاف أمره ، إنهم يقتربون منه ولايصدقونه ولايتبعونه ! هل يحقق هذا أملا؟ كلا لابد من

---

(١) غافر : ١٥ . ⠀ (٢) المعارج : ٨ـ١٠ . ⠀ (٣) المعارج : ١٩ ـ ٢٦ .
(٤) المعارج : ٣٦ـ٣٩ .

الاتباع والإخلاص والجهاد ، إن الله خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا .

والجيل الذى يُعييه الحق ويعجزه السباق ، سوف يطويه الردى ويهال عليه التراب ، ويجىء القدر بأنشط منه وأزكى .

« فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون. على أن نبدل خيرا منهم ومانحن بمسبوقين»(١) ذاك فى الدنيا حيث تتخلّف الأمم الكسول ، أما فى الآخرة فالتفاوت بين الأفراد والشعوب يجعل أمما فى الحضيض وأخرى فى الثريا . . .

---

(١) المعارج : ٤٠ ـ ٤١.

سورة نوح

من عجائب سيرة نوح أنه ظل تسعة قرون ونصف يدعو قومه ، وهم لايستجيبون ! إن هذا الزمان الطويل يتسع لازدهار دول وانهيارها ، ونضارة مبادئ وذبولها ، بيد أن قوم نوح ظلوا على ضلالهم لايتوبون ولايفكرون فى توبة ! إن الرجل الوثيق العزم الواسع الحلم عاد إلى ربه يشكو سوء اللقاء وعناد الكفر « قال ربّ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارًا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا »[1].

هل للكفر شبهة عقلية تجعل إنسانا مايعبد حجرا ، ويذر عبادة ربّ العالمين؟

لقد راقبت مسالك كفار ، فوجدت العلل النفسيّة لا الفكرية هى التى تغرى بالجحود، وتصرف الناس عن ربهم العظيم! وكيف تفسر سلوك امرئ يرفض التدين ويبطن الولاء لبشر تافه؟

إن مئات الكتب ألفت فى تمجيد « ستالين » ونسيان الله !! والأدلة على وجود الله ليست معادلات رياضية عَسرة ، إنها تنبيهات للعقل النائم كى يصحو ويرى « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقًا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا »[2] .

إننا ما نزال نأكل نبات الأرض فيتحول فى أجسامنا إلى عضلات ودماء ، أنحن الذين نقوم بهذا التحـويل ؟ أم اللطيف الخبير ؟ من الذى يدير الأفلاك ؟ أهو الله أم ودٌّ أم سواع ؟ من آلهة قوم نوح !

إن غباء الكفر عجيب وليس أعجب منه إلا كبرياؤه وصلفه ، ولذلك دعا نوح ربه بعد القرون الطوال التى أنفقها فى البلاغ والتذكير « ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارًا »[3] . إن الكفر على مر الأيام يتحول إلى تقاليد معوجة ، وإلى جيل من الناس « لم يزده ماله وولده إلا خسارا »[4] ، أو إلى أسر تقول للمصلحين «نحن أكثر

---

(١) نوح : ٥ ـ ٧ .
(٢) نوح : ١٥ ـ ١٨ .
(٣) نوح : ٢٦ ـ ٢٧ .
(٤) نوح : ٢١ .

أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين» [1] والأخطر من هذا البلاء أن يضنّ الكفار على المؤمنين بحق الحياة والاستقرار «وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ فى ملتنا» [2].

إن طبيعة الضلال لاتلزم طورا واحدا . والمؤمنون فى هذا العصر يعالجون الدواهى من الإلحاد والإحراج والفتنة !

---

(1) سبأ : ٣٥ . (2) إبراهيم : ١٣ .

سُورَةُ الجِنِّ

فى سورة الجن إشارات إلى طبيعة العقيدة عند النصارى، وكيف جعلوا المسيح ابنا لله وإلها معه! لقد انتشرت هذه القالة فى أقطار الأرض، ووُلدتْ عليها أجيال ،حتى جاء القرآن فنفاها بشدة مؤكدا أن الله واحد ليس له أولاد . . ! وكانت العقيدة النصرانية قد بلغت الجن فاعتنقوها ، ثم عرفوا فى تطْوافهم بالأرض مايناقضها « قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » (١) . وشرع الجن يفصّلون ماتابوا عنه وعرفوا خطأه. إنه مايسوغ أن تكون لله صاحبة ولا أن ينْسِل منها ابنا « وأنه تعالى جدّ ربنا ما اتخذ صاحبه ولا ولدًا » (٢) . وذكروا أن الذى بلغهم ذلك موغل فى الوهم « وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا » (٣) . ثم اعتذروا عن غفلتهم فى قبول هذه الشائعة بأنهم ماتصوّروا أن يكذب أحد على الله « وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا » (٤)!

ولكن رجالا من الإنس استمعوا إلى هذا اللغو ونشروه فى الأرض وضللوا به جماهير غفيرة « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » (٥) . وقد حسب الجميع أن أبواب السماء غلِّقت فلن ينزل ملك يوحى ، ولن يحمل بشر رسالة أخرى تعود بالإيمان إلى أصله الصحيح ، وتؤكد مابلّغه المرسلون الأولون من وحدانية الله وسيطرته المطلقة على الملكوت كله .

لكن الله بعث نبيه الخاتم من العرب فطوفت رسالته بالمشارق والمغارب ، معلنة أن الله لا ولد له ولا والد . إن هذه الرسالة كانت مفاجأة للمخطئين « وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا»(٦) .

والواقع أن الخطأ إذا سلّحتْه الدولة بعنفوانها، وأقامت له أبراجا تدرسه وتحميه ، ترك ظلاله فى النفوس واستقرت أوضاعه قرونا . وقد نشر الاستعمار الرومانى عقيدة التثليث، واستطاع بالرغبة والرهبة أن يوطئ لها الأكناف. ولولا أن محمدا درّع الحق الذى بُعث به وفداه بالنفس والمال. لجعله الرومان فى خبر كان .

---

(١) الجن : ١ ـ ٢ . (٢) الجن : ٣ . (٣) الجن : ٤ .
(٤) الجن : ٥ . (٥) الجن : ٦. (٦) الجن : ٧ .

ومن أين كان يعلم الجن أن الله واحد لا ولد له ولا والد . لولا الدعاة الذين حملوا الكتاب هنا وهناك ، وقرعوا به الآذان ؟

لقد شعرت الجن أن تغيرا ما يحدث فى الكون ، وأن الوحى النازل يحيط به حرس شديد حتى لاينقص منه شىء « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » (١) . والغريب أن الحراسة التى صاحبت نزول القرآن من السماء لم تتركه وهو يسير فى الأرض، فتحولتْ حِفْظًا صانه حرفا حرفا ونغمة نغمة .

وقد آمن الجن بالإسلام عن تصديق واقتناع « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا » (٢) . ويظهر أن أعدادا من الجن رفضت الانقياد للحق وعالنت بتمردها عليه!

وليس فى ذلك مايدهش ، أليس ذلك صنيع بنى آدم ؟ « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرَّوا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا» (٣) .

وقد سألنى أحد الناس : أتعرف أحدا من الجن ؟ فعرفت غرضه ، وقلت : مارأيت منهم أحدا .

فقال : كيف تصدق بمالم تره ؟

فقلت : ليس كل موجود يرى . إن الجراثيم لضالتها لاترى ، والكواكب لبعدها لاترى ، والقرآن يقرر ذلك عن الجن عندما يقول « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » (٤) . ويستحيل أن الكون الذى تقاس أبعاده بالسنين الضوئية لايكون به إلا البشر .

وقد قلت فى كتاب لى : إن الذى يبنى قصرا من ألف طابق ، لايسكن الطابق الأرضى وحده ويدع الباقى تصفر فيه الرياح ، فلم خلقه ؟

إننى أومن بالله الذى خلق الإنس والجن والملائكة « وما يعلم جنود ربك إلا هو » (٥) .

وتقرر السورة هنا حقيقة جديرة بالتأمل . إن معرفة الله لاتكفى ، لابد من أداء حقوقه على السراء والضراء .

إن بعض الناس ينتمون إلى الله ويتمتعون بنعمته ، ولكنهم يُشغلون بها عنه ويحيون لأنفسهم وحدها . وقد رأيت جماهير من هذا الصنف . بل إن انتشار الكفر فى الأرض يعود لمسالك أقوام

(١) الجن : ٨-٩ . (٢) الجن : ١٣ . (٣) الجن : ١٤-١٥ .
(٤) الأعراف : ٢٧ . (٥) المدثر : ٣١ .

عليهم الوحى، فلم يتجردوا له ويقوموا بحقه ! فى هؤلاء يقول الله « وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا »[1] . . ومن الإعراض المذموم أن تنشغل بما آتاك الله عما يجب عليك نحوه .

وخواتيم هذه السورة تشهد لصاحب الرسالة بالبلاغ والتجرد « قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدًا . قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا»[2] .

فى الدنيا الآن نفر من رجال الدين يزعمون أنهم يملكون المغفرة للمخطئين، وأن مفاتيح دار الخلد بأيديهم !! وهذه المزاعم هى الثمرة الوحيدة للجهل بالله وسوء العلاقة معه ، أما محمد خاتم النبيين فله شأن آخر « قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمداً . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا »[3] . إنه عبد لله الواحد ، يجاهدُ الشرك والخرافة وينطلق بعقيدة التوحيد ليملأ بها أرجاء العالم ، وقد قسّم أتباعه الليل والنهار فلا تمر برهة على خطوط الطول والعرض إلا وصائح فى الشرق والغرب يهتف : الله أكبر الله أكبر . . . لا إله إلا الله .

---

(١) الجن : ١٦ـ١٧ . (٢) الجن : ٢٠ـ٢٢ . (٣) الجن : ٢٥ـ٢٦ .

سورة المزمل

فى سورة الأنعام آية رسمت الإطار الذى يحدد سيرة النبى ﷺ « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (١) . إذا كانت حياة البعض حقا وباطلا وجِدًّا وهزلا وراحة وتعبا ، فإن هذا الإنسان الجليل قضى حياته كدحا موصولا وسبحا طويلا . ولم تكن مراحل تعبه استكمالا لأمجاد النبوة فى بيئة محدودة ، بل كانت تكوين جيل يغير مسار البشر إلى قيام الساعة ، ويهيئ للحق منارا لاتطفئه العواصف الهوج ! إن السنوات الستين التى قضاها محمد فى الدنيا لم تكن لإصلاح عصر معين ، بل كانت صونا لعقيدة التوحيد على امتداد الزمان والمكان ، وإعدادًا للرجال الذين يحرسونها بعده إلى آخر الدهر .

وفى أوائل إلماع إلى هذه الغاية لقد قيل للرسول « يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » (٢) لقد انتهى زمان النوم المشبع والإستجمام العميق «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » (٣) . إنه قول ملىء بالتكاليف الشاقة والجهاد المضنى !! إنه إذا فرغ من قيام الليل استقبل كدح النهار فى تبليغ الدعوة ومجاهدة الخصوم ، ولا معين له إلا الله . فلينقطع إليه ، وليستمدّ منه ، وليتخذه وكيلا ، وليصبر على أذاهم ؛ فإن حسابهم المقبل شاق :

« إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصةٍ وعذابا أليما»(٤) . ومتى يقع هذا ؟ « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا» (٥) ! إن تصور الأرض ترتجف بنجْدها ووهْدها وبرها وبحرها كما يرتجف العاجز أمام هول دهمه، تصوّرٌ يثير الفزع والرهبة ، ولكن الناس فى خوض يلعبون .

إن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أخشى الناس لله ، وأشدهم إحساسا بقرب لقائه . وكان الجيل الذى حفّ به يتأسّى به ويحيا على غراره . فليس غريبا أن يقوم الليل مثله ويشد أزره فى مكافحة الضلال الجاثم على صدر الدنيا ، ولكن الله سبحانه رحمة منه بجمهور الأمة استبقى فريضة قيام الليل على نبيه خاصة . واكتفى من المؤمنين بما يقومون به من واجبات أثناء النهار «والله

(١) الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣ . (٢) المزمل : ١ ـ ٤ . (٣) المزمل : ٥ .
(٤) المزمل : ١٢ ـ ١٣ . (٥) المزمل : ١٤ .

يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن »[١] .

وليس هذا الترك إجازة مفتوحة أو عطلة سائغة. كلا، إنه تقدير لأعمال أخرى « علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله»[٢] . والواقع أن الجهاد الاقتصادى والعسكرى لابد منهما لحراسة الأمة وأدائها لرسالتها . إن أعداء الحق يرقبوننا بِغِلٍّ ، فإن وجدوا ثغرة نفذوا منها إلى صميمنا ، وهنا الطامة التى تطيح بالحق وأهله .

---

(١) المزمل : ٢٠ . (٢) المزمل : ٢٠ .

سُورَةُ المُدَّثِّر

الظاهر أن سورة المدثر نزلت قبل سورة المزمل، وقيل هى أول مانزل من القرآن الكريم، وهذا غير صحيح، فهى أول مانزل بعد انقطاع الوحى وتشوق الرسول إلى استقباله . وفى الآيات الأولى معالم للسيرة التى يستحبُّها الله من نبيه « يأيها المدثر . قم فأنذر »(١) .

أى خوّف المشركين عقبى بقائهم على وثنيتهم .

« وربك فكبر »(٢) . انسب إلى ذات الله كل مجد وجلال وسناء . وتكبير الله يفتتح به الأذان وسائر الصلوات ومعارك الجهاد، وهو شعار الإسلام . «وثيابك فطهر»(٣) المقصود الجسم والثياب معا، فالنظافة خلق الإسلام « والرجز فاهجر» (٤) تجنب القبائح كلها . « ولا تمنن تستكثر»(٥) أعط ولاتمنّ واقصد وجه ربك . « ولربك فاصبر» (٦) تحمل فى ذات الله مايصيبك !

وبعد أن خوَّف المشركين بيوم الحساب، ذكر أحد كبرائهم الّذين يقاومون الدعوة ويصفون الوحى بأنه سحر ، وكان رجلا واسع الجاه والمال يلقب بالوحيد لمكانته المادية والأدبية . « ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالاممدودا . وبنين شهودا » (٧) . وتحقير هذا الرئيس يتناول مَنْ وراءه كلهم « سأصليه سقر . وما أدراك ماسقر . لاتبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر»(٨) . وهذا العدد إحصاء لملائكة العذاب المكلفين بتأديب الطغاة والضلاّل والفراعنة .

ثم عاد النظم الكريم إلى أبرز مافى الحياة الدنيا ، يذكر الليل وإدباره والصبح وإسفاره واختبار البشر بشتى التكاليف ليميز الخبيث من الطيب، فقال « كلا والقمر . والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر. إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٩)والتقدم والتأخر مربوطان بالنشاط والعجز، وليست حظوظا عمياء ،ولذلك قال بعدئذ « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين ماسلككم فى سقر. قالوا لم نك

---

(١) المدثر : ١_٢ .
(٢) المدثر : ٣
(٣) المدثر : ٤ .
(٤) المدثر : ٥ .
(٥) المدثر : ٦
(٦) المدثر : ٧ .
(٧) المدثر : ١١ _ ١٣ .
(٨) المدثر : ٢٦ _ ٣٠ .
(٩) المدثر : ٣٢_٣٧ .

من المصلين . ولم نك نطعم المسكين»[1] . أى أنكم حصدتم مازرعتم والخطوات المعوجّة لاتوصل إلى ختام مستقيم « فماتنفعهم شفاعة الشافعين»[2] .

لكن لماذا لجأ المشركون إلى هذه المقاومة العنيدة ؟ ونفروا من الإسلام هذا النفور البالغ ؟

إنه الكبر ! إن كل واحد منهم يريد أن ينزل إليه ملك يقول له أنا رسول الله إلى فلان ابن فلان كى يؤمن ويعرف خالقه ! أما أن يختار الوحى محمدا يخصّه بالرسالة فهذا مرفوض ! « فمالهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حُمُرٌ مستنفرة . فرت من قسورة . بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة »[3] !!

ولايزال إحساس الناس بأنفسهم سببا فى غمط الحق وكراهية أهله ! ماذا يفعل الأنبياء عند ذلك ؟ حسبهم أن يذكّروا بالله وآياته ونعمائه وحقوقه ، فمن اهتدى نجا ومن غدر هلك « كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره »[4] . ولايعين الله إلا من أعان نفسه .

---

(١) المدثر : ٣٨ـ٤٤ . (٢) المدثر : ٤٨ . (٣) المدثر : ٤٩ـ٥٢ .
(٤) المدثر : ٥٤ـ٥٥ .

سورة القيامة

المؤمن إذا وقع فى خطأ ران عليه هم ثقيل، وضاقت عليه الأرض بما رحبت . ذلك أن الإيمان باعث حثيث على التسامى ، وزاجر موجع عن الإسفاف. والذى يلوم نفسه على مابدر منه لايألف النقائص، بل سرعان مايتجاوزها إلى عالم أزكى. وقد أقسم الله بالنفس اللوامة، لما وقر فيها من إيمان بالله واليوم الآخر. أما النفوس والمجتمعات التى لاتعرف الله ولاتنتظر لقاءه ، فهى لاتكترث برذيلة ولا توجل من يوم الحساب لأنه فى نظرها وهم !

ويقول فى ذلك الزهاوى : ولا أبدّل موهوما بمحسوس !

ومطلع سورة القيامة يشير إلى هذه الأحوال « لاأقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة. أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوّى بنانه »[1] . إن الله الذى يُبلى الأجسام قادر على أن يعيدها مرة أخرى بالملامح نفسها وبآلاف الخطوط المطبوعة على الأصابع لايتشابه فيها اثنان على ظهر الأرض . . !!

سيحيا الناس مرة أخرى كى يلقوا جزاء ماقدموا « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر »[2] وعيب الأولين والآخرين أن إحساسهم بيوم الجزاء ميت أو ضعيف ولو عقلوا لكان لهم موقف آخر.

وفى سورة القيامة وصف صادق لهذا اليوم ومايسبقه ويعقبه . ولكن هذا الوصف اعترضه نصح للرسول الكريم كى يخفف من استعجاله لتلقى الوحى ! وهو استعجال مفهوم البواعث . كيف يستوعب امرؤ هذا الوحى السماوى ولايخرم منه حرفا ثم يذهب ليتلوه على الناس كما أنزل ؟ أى دماغ ذرّى يقدر على ذلك ؟

لكن الله طمأنه « إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه »[3] . وبهذا التعهد الإلهى وصل إلينا القرآن كله .

وهناك قبل يوم الجزاء الأخير نهاية لاتخطئ إنسانا أبدا ، الموت!

لماذا يغفل عنه البشر ؟ « كلا إذا بلغت التراقى. وقيل من راق. وظن أنه الفراق . والتفت

---

(١) القيامة : ١ ـ ٤ . (٢) القيامة : ١٣ . (٣) القيامة : ١٧ـ١٩ .

الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق » [1]. إن سكرة الحياة تحجب العيون عن النظر إلى هذه النهاية المحتومة ، فلم هذا العمى ؟

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى » [2] ؟ إن مبدع هذه الحياة والمالئ بنشاطها القارات الخمس لايفعل ذلك عبثا ، لابد أن يقف البشر أمام خالقهم ليسائلهم عما فعلوا فى هذا الوجود الأول وهل جعلوا منه مهادا لوجودهم الأخير ؟ الغريب أن العلم البشرى تقدم كثيرا فى نصف القرن الأخير كما لم يتقدم فى تاريخ الحياة كلها ، ومع ذلك فعلمه بالله ضحل ، وكذلك استعداده للقائه !

(١) القيامة : ٢٦ـ٣٠.   (٢) القيامة : ٣٦ .

سورة الإنسان

مرّ ركب مسرع ببعض المقابر ، فقال أحدهم لزميله : أتدرى ماتقول هذه القبور عنا ؟

فقال : ماذا تقول ؟

أجاب : تقول : كما أنتم كذا كنا ، كما نحن تكونون .

وقد تساءلت أنا عن نفسى : ماذا كنت قبل مائة عام ؟وماذا كان أغلب الجيل الذى أعيش فيه؟ولم أجد ردا أصدق من قوله تعالى « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا»(١) .

إننا لم نكن شيئا ، ثم خلقنا الله نسمع ونبصر، ثم استعادنا إليه وخلت الأرض منا ! لكن على أى نحو نعود ؟

قال فى سورة الإنسان « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا » (٢) . وقال « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله » (٣) .

والملاحظ فى هذه السورة أنها اختصرت وصف العذاب الذى يلقاه الكفار على حين أفاضت فى وصف النعيم والعظمة التى تنتظر المؤمنين « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » (٤) . ثم قيل لهم ـ تذكيرا بما مضى ـ « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا» (٥) .

ونصف السورة الأخير يتحدث عن الرسالة الخاتمة ودورها فى صنع الحياة العامة . ذلك أن أثر البيئة فى الأخلاق خطير وتأثرنا بها لايمكن إنكاره . فإذا استطاع الرسول أن يغير اتجاه مجتمع ، وأن يملأ بالوحى قلوبا كانت فارغة ، فقد صنع أمة تمحو وتثبت وتهدى الناس إلى صراط مستقيم . ومن هنا قيل له « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولاتطع منهم آثما أو كفورا»(٦) .

والتذكير المستمر بالله يتناول أول النهار وآخره « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا »(٧) . كما يتناول سحابة الليل « ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » (٨) .

---

(١) الإنسان : ١ . (٢) الإنسان : ٤ . (٣) الإنسان : ٥ ـ ٦ . (٤) الإنسان : ٢٠ .
(٥) الإنسان : ٢٢ . (٦) الإنسان : ٢٣ ـ ٢٤ . (٧) الإنسان : ٢٥ . (٨) الإنسان : ٢٦ .

ووصف القرآن الكريم طباع البشر على عهد الرسالة وقبله وبعده فقال : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا »[1] . والحق أن الناس يكادون يفقدون رشدهم مع سكرة الحياة ومطالبها ولذاتها . وفى عصرنا الحاضر، يكاد ذكر الآخرة يكون محظورا، كما أن ذكر الموت وعظ بارد!!

ولست أحب النواح والتشاؤم والنعيق ، ولكنى أكره الغفلة وهزائم الفكر الإنسانى أمام الهوى الجامح .

أريد أن يعرف الناس من أين جاءوا وإلى أين يعودون « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا »[2] . والله يزيد الذين اهتدوا هدى ويُزيح من أمامهم العوائق . أما الناسون لله الْعَمُون عن آياته فهو يذرهم فى طغيانهم « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما »[3] .

---

(١) الإنسان : ٢٧ . (٢) الإنسان : ٢٩ . (٣) الإنسان : ٣١ .

سورة المرسلات

« والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا . عذراً أو نذرًا» [(١)] .

هذه الجمل كلها فى وصف الريح التى تنبئنا النشرات الجوية عن مصادر هبوبها وتحديد وجهاتها ، وصدر السورة هنا يشبه صدر سورة الذاريات . والهواء أساس الحياة البشرية سواء وقف ساكنا أو هبّ عليلا أو اشتد عاصفا . .

وقد تساءلت كثيرا عن الهواء الذى يملأ رئتىّ زفيرا وشهيقا : هل يبقى فى القاهرة ، أم يتنقل ريحا بين شرق الدنيا وغربها ، ويمرّ فى حركته الدائمة بصدور أخرى ؟ إننى موقن بأنى أشرب الشاى من شرقى آسيا وأشرب ماء النيل من أعماق المحيط الهندى ، وعندما أتأمل فى نعماء الله أشعر بأن الكون كلّه يشترك فى خدمتى ، ولكن « قتل الإنسان ما أكفره » [(٢)] .

عندما يهدأ ا الجوّ نشعر بالهواء لطيفا ، وعندما يثور فى بعض الأقطار نراه يقصف الأشجار ويقذف بالسيارات من مكان لآخر ، وهو يبعثر السحب هنا وهناك ويفرقها لتهمى بالغيث حيث شاء الله . : ونتدبر قوله تعالى : «فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا » [(٣)] . الذكر هنا هو القرآن الكريم ، والرياح هى الوسط الناقل للأمواج الصوتية ، وسامعو الوحى بين منتفع به وصادٌ عنه ، إنه عذر للمهتدين ونذير للضالين .

ونشير هنا إلى أن جمهور المفسرين يظن الآيتين الأخيرتين وصفا للملائكة ، وقد لجأ إلى تقطيع المعنى على هذا النحو لأنه لم يكن يدرى أن الهواء هو الوسط الناقل للأصوات ، مع أن ذلك أصبح من الحقائق المدروسة فى علم « الفيزياء » الطبيعة . وقد أقسم الله بالرياح ونعوتها المتعاطفة على أن البعث حق وأن جزاء الكفر والإيمان لاشك فيه ، ثم ذكر صفات اليوم الأخير للعالم قائلا : « فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك مايوم الفصل » [(٤)] ؟

---

(١) المرسلات : ١ ـ ٦ . (٢) عبس : ١٧ . (٣) المرسلات : ٥ ـ ٦ .

(٤) المرسلات : ٨ ـ ١٤ .

إن هذا الكون المحبوك سيهى نظامه ويتمزق شمله ، وتبدأ إعادة تشكيله من جديد على نحو آخر. فى أيام الدنيا . كان الأسافل يرتفعون والأنبياء يُهانون ويُزعجون ، أما فى الآخرة فلا تكذيب لصادق ولاتكريم لكذوب .

ونلحظ فى هذه السورة تكرار قوله تعالى « ويل يومئذ للمكذبين» [(١)] .

لقد تكررت عشر مرات ، أحيانا تجىء بعد نذير إلهى ، أو بعد آية كونية أو بعد مرحلة تاريخية أو بعد نصيحة إنسانية . وقد بدأ إيراد لآية بعد تهديد للمكذبين وتذكير بما لحقهم فى الدنيا من نكال ، إن ما أصاب الأولين لن يفوت الآخرين !

ثم يجىء هذا الاستفهام التقريرى عن الخالق الكبير . إنه سبحانه الذى أنشأنا من عدم نسبى أو من عدم مطلق ! كيف بدأت هذه النشأة ؟

إنها لم تبدأ فى طريق مفروش بالورد تحفّه المعادن النفيسة !

إنها بدأت من ماء مهين يمشى مع الفضلات البشرية فى مجارى واحدة !! « ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم» [(٢)] . فى هذا المستقر يتكون البشر ، العبقرىّ منهم والبليد، ويولد إنسان عجيب المواهب رائع التقويم. من أشرف على إبداعه ؟ إن آله الأقربين يرقبون مايحدث وحسب ! ولذلك يقول الله « فقدرنا فنعم القادرون» [(٣)] .

أجل نعم المقدّر ، وفى الصافات يقول المولى عن نفسه « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون»[(٤)].

أجل نعم المجيب. إن هذا المديح للذات الأقدس بداية إحصاء لأمجاد إلهية لاتنتهى يستحضرها المسلم فى الصلوات المكتوبة وهو يصيح بتكبير الله قائما قاعدا راكعا ساجدا . .

ثم يقول الله جلّ شأنه « ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا » [(٥)] . الكفت الضمُّ والجمع . والآيات تشير إلى الجاذبية الأرضية التى تربط الأحياء والأموات بالأرض ، وتلصق كل شىء بها لاتسمح له بفكاك ! إن غزاة الجو ـ وهم فى الطريق إلى القمر ـ نظروا إلى الأرض وهم على بعد مئات الأميال منها ، ثم تساءلوا من يمسكها فى مكانها ؟

وأتساءل معهم من يمسك الماء على سطحها، وهو أربعة أخماس الكرة؟ لماذا لم ينسكب فى الجو ؟ لأن الله جعل الأرض كفاتا تجذب كل قطرة إليها ! أى لطافة سارية فى طباق البر والبحر تقوم بهذا الصنيع الباهر؟ « وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا » [(٦)].

ثم تنتقل السورة إلى مشاهد الجزاء الأخروى، وتصف عقبى المؤمنين والكافرين ، وجموع

---

(١) المرسلات : ١٥ . (٢) المرسلات : ٢٠ ـ ٢٢ . (٣) المرسلات : ٢٣ .
(٤) الصافات : ٧٥ . (٥) المرسلات : ٢٥ ـ ٢٦ (٦) المرسلات : ٢٧ .

الخلائق الذين سكنوا الأرض خلفا من بعد سلف « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين »[1] . وأى كيد ينتظر منهم ؟

لقد بهتهم الحق ويغتتهم الساعة فلا تسمع إلا همسا .

وتختم السورة الكريمة بهذه الآية « فبأى حديث بعده يؤمنون» [2] ؟ هل هناك كلام أهدى من هذا الكلام ؟

هل هناك تعريف بالله وحقوقه أفضل من هذا التعريف ؟

هل سمعنا بشرا نقل عن الله أصدق من هذا البلاغ ؟

إن محمدا بهذا الكتاب الذى قرأه علينا أنصف الحقيقة ، ودحض الشبهات وزلزل الباطل «فبأى حديث بعده يؤمنون» [3] .

(١) المرسلات : ٣٨ـ٤٠ . (٢) المرسلات : ٥٠ . (٣) المرسلات : ٥٠ .

سورة النبأ

من حق كل قوم جاءهم مُدَّعٍ للنبوة أن يدرسوا قوله وشخصه ، ثم يحكموا له أو عليه ! ونحن نتساءل : ما الذى أتى به محمد ؟ لقد حدثنا أن الله حق وفصَّل أدلة وجوده وكماله على نحو لم يُسبَق إليه ، وأنه واحدٌ ، كلٌّ من فى السموات والأرض مخلوق له مفتقر إليه لا استثناء لملك أو إنس أو جن ، وأن لقاءه حتم لمحاسبة كل مكلف « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »[١] .

لماذا أكفر بمحمد ؟ لو رأيت أحدا جاء بأفضل مما جاءنا به لتبعته !

وسورة النبأ تقول للمشركين : هبوا أن دعوة محمد لم تقنعكم ، أفلا تفكرون فى خلق السموات والأرض ؟

« ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا »[٢] .

نحن الآن فى القرن الرابع عشر الهجرى ونهايات القرن العشرين الميلادى ، وقد ورثنا رسالات شتى ، ومن حقنا أن نوازن وأن نرجح . والحق أقول . إنى أمام تراث محمد من كتاب وسنة لا أُقدِّم عليه أحدا ، أو بتعبير أقرب إلى الإنصاف أصدقه حين يقول إن رسالته تمثل الوحى القديم والأخير معا ، وإن ماخالفه هو مزاعم بشر وليس وحيا سماويا « مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك »[٣] . أى أننى حين أتبع محمدا أتبع معه موسى وعيسى ، ونوحا وإبراهيم .

وهذه السورة تتكون من أربعة فصول متميزة .

الأول وصف الكون والناس إلى قوله جل شأنه « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا »[٤] .

والثانى : وصف موجز ليوم الحساب « إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا »[٥] . وإكثار القرآن من ذكر القيامة لمقاومة حب العاجلة الذى يغلب على الطباع .

---

(١) الزلزلة : ٧ـ٨ . (٢) النبأ : ٦ـ٨ . (٣) فصلت : ٤٣ .
(٤) النبأ : ١٤ـ١٦ . (٥) النبأ : ١٧ـ١٨ .

والثالث وصف للعقاب الذى ينتظر المجرمين « إن جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لابثين فيها أحقابا »[١] .

والرابع وصف للنعيم الذى ينتظر المؤمنين الصالحين « إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا »[٢] .

إن الجزاء المعنوى حق وستنضر وجوه المؤمنين وهم مع جماهير الملائكة يسبحّون بحمد الله ويهتفون بمجده . ومن تمام المتعة أن يكون ذلك فى حدائق زاهرة ومع لِداتٍ مؤنسات وبعد هذا الوصف الشائق يقال لأولى الألباب « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا»[٣] .

فمن تزوّد بالتقوى أفلح . ومن عاش مذهولا هنا ، وقدم على الله صفر اليدين ندم بعد فوات الأوان «إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا »[٤] .

نقول فى ختام السورة للمتسائلين عن محمد : ماذا كسب لشخصه من هذا البيان ؟

هل عيبه أنه كان حارّ الأنفاس فى الدعوة إلى الله ؟ وأنه كان جلدا فى مقاومة الفتانين والطغاة؟ !

(١) النبأ : ٢١ــ٢٣ .   (٢) النبأ : ٣١ــ٣٣ .   (٣) النبأ : ٣٩ .
(٤) النبأ : ٤٠ .

سورة النازعات

« والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا»[1] . الذى أختاره أن هذه الأقسام بالكواكب الدوّارة فى الفضاء ، تشق طريقها بغير وقود وتسرع السير بغير توقف وتعرف الطريق بغير جندى مرور، ثم يجيئها أجلها مع نهاية العالم، فإذا هى تتلاشى ! متى ؟ « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة »[2] .

فى الزلزال الكبير الذى يفقد كل شىء توازنه، وتترادف مزعجاته فإذا القلوب مضطربة والأبصار كسيرة !

يقول المشركون عند سماع هذا النذير « أإنا لمردودون فى الحافرة»[3] .

أراجعون نحن إلى الطريق التى جئنا منها ؟أعائدون إلى الحياة مرة أخرى ؟! هكذا يحدثنا الرسول! ومتى ؟ بعد أن نموت ونبلى « تلك إذن كرة خاسرة »[4]!

عودة لاخير فيها لأننا ماصدقناها ولا أعددنا لها . .

« فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة »[5] . بساعة الحشر والجزاء . إن أتباع الفلسفة المادية المعاصرين لايزيدون على مشركى الصحراء الأقدمين عندما يقولون : إن هى إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، ومايهلكنا إلا الدهر !

فما الموقف إذا رأوا أنفسهم أحياء لم يصبهم شىء ؟

واستتلت الآيات تتحدث عن فرعون، وهو من أكابر المجرمين . والحق أن الفرعنة مرض عام أساسه بطر الحق وغمص الناس .

وقد يكون فى الحكام والإداريين والفنانين والكناسين .

والمرء إذا ذهب بنفسه عاش أنانيا جائرا لايحق حقا ولايبطل باطلا . وجهنم تأخذ حَطَبَها من هؤلاء جميعا .

ويخاطب القرآن البشر : علام الكبر والصدّ عن سبيل الله ؟ « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسوّاها . . . »[6] .

---

(١) النازعات : ١ ـ ٥ . (٢) النازعات : ٦ ـ ٧ . (٣) النازعات : ١٠ .
(٤) النازعات : ١٢ . (٥) النازعات : ١٣ ـ ١٤ . (٦) النازعات : ٢٧ ـ ٢٨ .

إن الإنسان ـ بالنسبة إلى غيره ـ كائن ضعيف مايجوز له أن يعمى ويطغى . بل يجب أن يتقى ربه ويتزكى . وإذا كان قد ملك التصرف فى كائنات أخرى ، فليسخّر هذا التفوق فى شكر الله وأداء حقوقه .

وعادت السورة إلى مابدأت به من حديث عن البعث والجزاء ليجعل الإنسان من حياته الأولى مهادا للحياة الأخرى « فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ماسعى . وبرزت الجحيم لمن يرى» (١) . إن الناس يومئذ رجلان : عبد لشهواته يعيش لإشباعها ، وعبد لله يشعر بقيامه ورقابته فلا ينسى حقه « فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى » (٢) .

ويجمح التطلّع والاستخفاف بأصحابها فيتساءلون عن الساعة « أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها » (٣) .

إن علمها عند الله وحده ، وما ينفعكم العلم بها إذا لم تستعدوا لها ؟ إن الوجود موصول ، والموت فاصل خفيف بين الوجودين الأول والأخير، وسنعرف قيمة الدنيا يوم اللقاء « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » (٤) .

---

(١) النازعات : ٣٤ـ٣٦ .   (٢) النازعات : ٣٧ـ٤١ .   (٣) النازعات : ٤٢ـ٤٤ .
(٤) النازعات : ٤٦ .

سورة عبس

كان النبى ﷺ مشغولا بدعوة نفر من كبراء قريش إلى الإسلام ، لأنهم إذا اهتدوا تبعتهم جماهير فى اعتناق هذا الدين، فجاء عبد الله بن أم مكتوم الأعمى ـ وهو يجادل القوم ـ طالبا الهدى والتحدث مع النبىّ ، فضاق النبىّ به ،وقطب جبينه ومضى فى حديثه مع الكبراء المشركين ! فنزلت السورة «عبس وتولىّ . أن جاءه الأعمى . ومايدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى» (١) .

وقد استمع النبى الكريم إلى هذا العتاب، ثم أحسن استقبال عبد الله بعد. وكان يقول له : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى . وكان إذا غاب عن المدينة ـ بعد الهجرة ـ يوليه إمارتها حتى يعود ! !

ثم مضت السورة تشرح طبيعة البلاغ الإلّهى . إنه آيات تسمع ، أو صحف تقرأ يعرضها سفرة كرام بررة ، يعنى كتبة الوحى وحفظة القرآن . وعلى من أتاه البلاغ أن يتدبر ويعى ويفرّ إلى الله ويستعد للقائه ! لكن هل جمهرة البشر هكذا ؟

كم ترى إنسانا مغلق الذهن يضرب الأرض بقدميه ولا يدرى كيف جاء إلى الدنيا . لقد بدأ قطرة ماء ثم نما فصار شخصا سويًّا . من أفرغه فى هذا الكيان، ووهب له تلك الصورة ؟

كيف نسى ربه ولىّ أمره ونعمته؟ « من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء أنشره» (٢) .

إن الإنسان يغفل عن ذلك كله ، ولايفكر إلا فى بلوغ غاياته وقضاء لباناته ، كما قال الشاعر:

إذا جـاء هذا المـوت لم أُلْفِ حاجة ... لنفسى إلا قد قضيت قضاءها !

فهل قضى لله حقا ؟ « كلا لما يقض ما أمره »(٣) . والجدال مع المشركين والكفرة فى كل عصر يقوم على البعث والجزاء ، فهم مايؤمنون إلا بدنياهم الحاضرة فجاء القرآن بأحد أدلة البعث المشهودة ليعرفوا ربهم ويأخذوا أهبتهم للقائه « فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا » (٤) .

---

(١) عبس : ١ ـ ٤ . (٢) عبس : ١٨ ـ ٢٢ . (٣) عبس : ٢٣ . (٤) عبس : ٢٤ ـ ٣٠ .

كيف خلقت هذه السنابل الحافلة والعناقيد الزاهية؟ وكيف توزعت عليها الحلاوة والعطور والأذواق؟ إن مبدع ذلك من الأتربة والأرواث هو الذى سينبت الأجساد مرة أخرى ، ثم يواجه كل إنسان ماقدم .

« فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » [1] إن البشر محجوبون بمشاغلهم العاجلة وأفقهم القريب عن الجنة والنار والثواب والعقاب « وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة»[2].

المحزن فى عصرنا أن التقدم العلمى يبحث مكانه ولايريد أن يعرف ماوراءه، ولذلك يستبعد الحديث عن الآخرة ولايعرض له فى مجلس جادّ . .

---

(١) عبس: ٣٣ـ٣٧ . (٢) عبس: ٣٨ـ٤١ .

سورة التكوير

بدأت سورة التكوير باثنى عشر حدثا تلابس قيام الساعة، وعودة الناس إلى ربهم للحساب الكبير

١ ـ « إذا الشمس كورت» [١] . توقف إشعاعها وساد الظلام .

٢ ـ « وإذا النجوم انكدرت» [٢] . تساقطت واختل نظامها .

٣ ـ « وإذا الجبال سيرت» [٣] . نسفت وتفتت .

٤ ـ « وإذا العشار عطلت» [٤] . جفت السحب وامتنع المطر.

٥ ـ وإذا الوحوش حشرت» (٥) . تلاقت من مقارّها البعيدة .

٦ ـ «وإذا البحار سجرّت» [٦] . فاضت على شواطئها وطاردت الحيوان والإنسان .

٧ ـ « وإذا النفوس زوجت » [٧] . عادت الأرواح إلى الأبدان بعدما فارقتها أمدا . .

٨ ـ « وإذا الموءدة سئلت . بأى ذنب قتلت ؟» [٨] . هذا بدء المؤاخذة على الجرائم التى اقترفها الناس .

٩ ـ « وإذا الصحف نشرت» [٩] . كل إنسان يتقدم بكتاب أعماله .

١٠ ـ « وإذا السماء كشطت» [١٠] . امّحت معالمها .

١١ « وإذا الجحيم سعّرت» [١١] . لاستقبال المجرمين .

١٢ ـ « وإذا الجنة أزلفت » [١٢] . قربت بنعيمها من الصالحين، « علمت نفس ما أحضرت» [١٣] . إن هذه الآيات لخصت ماوقع قبل قيام الساعة وتوزّع الناس على مصايرهم !!

وقد علمنا أن الأرض صغرى بنات الشمس ، وأن الشمس وأسرتها شىء ضئيل فى العالم

---

(١) التكوير : ١ .
(٢) التكوير : ٢ .
(٣) التكوير : ٣ .
(٤) التكوير : ٤ .
(٥) التكوير : ٥ .
(٦) التكوير : ٦ .
(٧) التكوير : ٧ .
(٨) التكوير : ٨ ـ ٩ .
(٩) التكوير : ١٠ .
(١٠) التكوير : ١١ .
(١١) التكوير : ١٢ .
(١٢) التكوير : ١٣ .
(١٣) التكوير : ١٤ .

الضخم ، ومع ذلك فإن الأرض ضمت الجنس الذى يستغفر حملة العرش لأخطائه ! إنه جنس غلّفته النعم الإلّهية ، ومع ذلك فصِلَتُهُ بالله مضطربة وكنوده له شديد.

وفى هذه السورة يقسم الله بالكواكب المسخرة بأمره على أن القرآن حق وأن محمدا أرسل به هداية للناس ورحمة من الله « فلا أقسم بالخنّس . الجوار الكُنَّس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس. إنه لقول رسول كريم» [1] . إنه قسم بعظمة الكون على عظمة الوحى ، فكلاهما دليل على الله . هذه آية صامتة ، وتلك آية ناطقة .

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذى تتلوه فتشعر بعمق الصلة بين الأرض وسائر الفلك ، وبينها جميعا وبين الخالق الكبير .

وقد ذكرت الآيات جبريل ـ روح القدس ـ فبينت أنه ملك مقرب له عند الله مكانة العبد الأمين « ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين» [2] . وأنه حمل الوحى إلى محمد الذى تلقاه وبلغه ، واصطبغ بروحه وتخلق بأخلاقه ، وجاهد به الزائفين والجاحدين ، وأقام به دولة ضمت المشارق والمغارب .

وسورة التكوير من أوائل مانزل ، ومع ذلك فقد قررت عالمية الرسالة ، وأن العصابة التى تتنكر لها فى مكة عائق محقور « فأين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم» [3] .

على العبد أن يضع البذور الصالحة وسينضج الله له مابذر. ومازرع أحد تفاحا فأخرج الله له بصلا !! مايجنى أحد إلا ماغرس .

(1) التكوير : ١٥ـ١٩ . (2) التكوير : ٢٠ـ٢١ . (3) التكوير : ٢٦ـ٢٨ .

سورة الانفطار

فى أثناء الحياة الدنيا ، كان يقال للإنسان : انظر فوقك « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور »؟[1] لافتوق ولاشقوق ، السماء محبوكة الأطراف ! والكواكب تتهادى لاعطل ولاتوقف .

لكن عند قيام الساعة يتغير كل شىء : « إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت »[2] .

الشقوق ملأت الآفاق . والكواكب انفرط عقدها فلا يمسكها نظام ، والبحار طغت على الشواطئ ، وأهل القبور يستعدون للخروج وهم شاعرون بالحرج والحيرة !

ونسمع هنا معاتبة مؤسفة « يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسوّاك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك » .[3] مافعلت فى أمس الدابر ؟وماقدمت لمستقبلك الخالد ؟

لقد كانت وصايا الحق أهون شىء على الإنسان ! كان المرء يمرق إلى أهوائه كالسهم، فإذا كلّف بجهاد أو صلاة تقاعس واسترخى !

إن الدار الآخرة ستكون مفاجأة كئيبة لأغلب الناس « كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون»[4] إن الملائكة الحفظة يثبتون فى سجلاتهم كل شىء حتى يواجَه الإنسان بما قدم وأخر . . دون زيادة أو نقص ، ثم يذهب الخلائق إلى مستقرهم العتيد « إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم»[5] .

---

(١) الملك : ٣.   (٢) الانفطار : ١ـ٥ .   (٣) الانفطار : ٦ـ٨ .
(٤) الانفطار : ٩ـ١٢ .   (٥) الانفطار : ١٣ـ١٤ .

سورة المطففين

وسورة المطففين تجىء بعد الانفطار كأنها تكملة لها ، وتفصيل لعلاقات العمل بالجزاء . وهى علاقة يستحيل فصمها ، وإن اختل تصوّر المسلمين لها فى أيام اضمحلالهم. هناك أنانيون لايشعرون إلا بمطالبهم وإن كانت باطلا ، ويضيقون بمطالب غيرهم وإن كانت حقا . هؤلاء ينطلقون فى المدائن والقرى كأنهم وحوش نهمة لايعرفون إلا مايشتهون .

وقد يكون المظهر القريب للتطفيف ماقاله تعالى « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » (١) .

بيد أن هذا السلوك يطَّرد فى صور شتى للحياة .

فهناك ناس كما يقول العامة « بِعيُرْهم جَمَل » . أما مايملكه الآخرون فلا حرمة له . ! ويستحيل أن تصلح الحياة بتلك المشاعر المتناقضة المتظالمة ولابوجهات النظر القائمة على الهوى الشخصىّ « إن الذين لايؤمنون بالآخرة زيّنا لهم أعمالهم فهم يعمهون . أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون » (٢) .

الإيمان بالله واليوم الآخر يعصم من هذه الدنايا ، ويقيّد الأيدى فلا تفتك ، والرغبات فلا تجمح ، والضمائر فلا تجور ، ولذلك قال فى المطففين « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين »(٣) .

ومستقبل الناس عند ربهم لاتقرره فلتات اللسان ولاعثرات الطريق ، وإنما تقرره مناهج مرسومة وعادات مستحكمة . فالخطأ العابر يوشك المؤمن أن يطهر منه ، أما البرنامج الموضوع لحياة هابطة فهو أساس الهلاك . وفى الحديث « إن العبد إذا أخطأ خطيئة ، نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه . فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه». وذلك هو الران الذى قال الله فيه « كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم » (٤) . وقال الحسن البصرى : « الران هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت » .

---

(١) المطففين : ٢ ـ ٣ . (٢) النمل : ٤ ـ ٥ . (٣) المطففين : ٤ ـ ٦ .
(٤) المطففين : ١٤ ـ ١٦ .

إن الذين يألفون الدنايا ويعيشون كالحشرات فى السراديب والحفر لاتفتَّح لهم أبواب السماء ، إنهم لم يحاولوا التسامى فكيف يرتفعون ؟

« كلا إن كتاب الفجار لفى سجين . وما أدراك ما سجين. كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين »[1] .

أما الذين يتحملون تكاليف التقوى ومشقات التزكية . . أما الذين يساندون الحق ويصابرون أعباءه ، فلهم شأن آخر « كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين. وما أدراك ماعليون . كتاب مرقوم. يشهده المقربون . إن الأبرار لفى نعيم. على الأرائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم»[2] . والمجاهدون الأوائل كان يزينهم بريق الصدق وشرف الاعتقاد، ولكن قلة عددهم وضعف سلاحهم نال منهم وأغرى بهم، فكافأهم الله بهذه الخاتمة المضيئة، وجزاهم على تحمل السخرية والأذى بمقعد صدق ورحيق مختوم .

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » . [3]ربما تكرر المنظر فى هذا العصر ، ووجدنا منكرين للألوهية يلمزون أهل الإيمان ويتندَّرون بهم فى المجالس ! وليس ذلك مثار شكواى !

إن المؤمنين الأقدمين كانوا يمثلّون جيلا من أحرار العقول وكبار القلوب ، كانوا فى أسواق المال وساحات القتال جنّ سليمان، فلما نصرهم الله بعد محنتهم ملأوا الدنيا حضارة ونضارة !!

أما الخلوف التى تحمل الإسلام الآن فهم كأولاد العبقريّ الذين ورثوا شهرته ولم يرثوا كفايته، لايقبل منهم أن يقدِّموا الإسلام وهم مازكّوا به نفسا ولا رفعوا به رأسا .

والحق أن الدعاة المخلصين يحاربون فى جبهتين . . وليست الجبهة التى ينطلقون منها بأشرف من الجبهة التى يتجهون إليها . .

---

(١) المطففين : ٧ ـ ١٠ . (٢) المطففين : ١٨ ـ ٢٤ . (٣) المطففين : ٢٩ ـ ٣١ .

سورة الانشقاق

« إذا السماء انشقت. وأذنت لربها وحقت ». [1] نحن نظن السماء هى القبة الزرقاء فوقنا ولاندرى شيئا عن طباقها ولاسكانها ولاطبيعة الحياة فيها ! وقد أخبرنا الله أن السماء ستنشق ، وخبره حق وسيظهر ذلك مع قيام الساعة . كما أن الأرض ستمدّ وتتخلى عما فى باطنها من نفيس وخسيس ! عندبدء الخليقة قيل للأرض والسماء « إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » [2].

ومع انتهاء العالم تستجيب الأرض والسماء لما يراد بهما . ويقول الله فى كلتيهما « وأذنت لربها وحقت » [3] ، أى استمعتا إليه . وهل يملكان إلا السمع والطاعة ؟

« يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ». [4] لقد كانت الدنيا دار تكليف وامتحان جادّ شاق وعلى المرء أن يختار .

أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج ــــ طريقان شتى ! مستقيم وأعوج !

«فأما من أوتى كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب إلى أهله مسرورا . وأما من أوتى كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا » [5] . ومعنى وراء ظهره أنه يأخذه بشماله من خلف ظهره كأن الله يمقت رؤية وجهه !! فقد كان فى الدنيا ينكر وجوده ، ويطّرح وحيه، ولايعرف إلا المادة وفناءها « بلى إن ربه كان به بصيرا ». [6] عارفا بعمله كله . !

وتتضمن السورة بعدئذ قسما بالشفق « والليل وماوسق. والقمر إذا اتسق. لتركبن طبقا عن طبق» . [7] أى حالا بعد حال ! والشفق هو الحمرة الممتدة فى الآفاق بعد العصرَ إيذانا بالغروب . .

وقد بدا لى فى هذا القسم فهمٌ ، إن كان حقا فمن الله وله المنة ، وإن كان خطأ فمن نفسى وأسأله العفو. إن الشفق هنا إيماءة إلى تاريخ المسلمين ومايعتريه من عسر ويسر وهزيمة ونصر .

---

(١) الانشقاق : ١ ـ ٢ . (٢) فصلت : ١١ . (٣) الانشقاق : ٢ .
(٤) الانشقاق : ٦ . (٥) الانشقاق : ٧ ـ ١٢ . (٦) الانشقاق : ١٥ .
(٧) الانشقاق : ١٧ ـ ١٩ .

وقد بدا لى ذلك وأنا أطالع حديثا للترمذى رواه عن أبى سعيد الخدرى ، قال صلى بنا رسول الله يوما صلاة العصر ،ثم قام خطيبا فلم يدَعْ شيئا إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه .

وكان فيما قال : إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فناظر كيف «تعملون » . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « ألا لايمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه» ومضى عليه السلام فى خطابه الجليل. قال أبو سعيد وجعلنا نلتفت إلى الشمس ، هل بقى من النهار شيء ؟

فقال رسول الله ﷺ : « إلا إنه لم يبق من الدنيا ـ فيما مضى منها ـ إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

هذا الأمد القليل الباقى قبل قيام الساعة هو تاريخنا ، وماظهر من دول ومايبقى !! لقد جئنا فى أصيل العالم أو فى شَفَقه والغروب موشك . والسؤال الخطير : هل أدينا رسالتنا وأنصفنا الناس من أنفسنا ؟ وركبنا طبقا عن طبق أو انتقلنا من حال؟ إلى حال فهل اعتبرنا؟ « فمالهم لايؤمنون. وإذا قرئ عليهم القرآن لايسجدون » .[1] إن المسلمين سيُسألون عن كتابهم لماذا لم يقوموا به ويعطوا الناس صورة حسنة له؟

---

(١) الانشقاق : ٢٠ـ٢١ .

سُورَةُ البُرُوجِ

« والسماء ذات البروج »[1] المدارات التى تتنقل فيها الكواكب .

« واليوم الموعود». [2] يوم الحساب . « وشاهد ومشهود »[3] الله وملائكته ورسله شهود على الناس. « قتل أصحاب الأخدود»[4] لعنوا وهلكوا . والأخدود شق فى الأرض مُلِئ بالمواد الملتهبة وألقى المؤمنون به ليحترقوا فيه . وشهداء الحق كثيرون فى تاريخ البشر وقساوة الظلمة ليس لها حدود. . .

وقد عرفت بعض الشهداء فرأيت فى تكوينهم كأنهم خلقوا لهذا المصير ، فهم يحتقرون الباطل وأهله ولايرون حرجا فى افتداء الحقّ بأرواحهم ! سمعت أحدهم يخطب قبل موته يقول : إن فناء فى الحق هو عين البقاء ! وجاءنى بعض الشباب من نصف قرن يودعوننى ذاهبين إلى الميدان فى فلسطين ، وقد ذهبوا ولم يعودوا . وكانت شجاعتهم حديث الراحل والمقيم !!

وقرأت نبأ المرأة المؤمنة التى قادها الزبانية إلى الأخدود ، وكان معها ولدها فتقاعست قليلا ـ لعله من أجل ولدها ـ فقال لها ابنها اثبتى فأنت على الحق ، فاقتحمت النار !!

وقرأت نبأ غلام الراهب الذى أبلى بلاء حسنا فى نشر الإيمان ، فحكم عليه بالقتل . وأرسله الملك المدعى للألوهية مع نفر من أتباعه لينفذوا الحكم . . فعاد إلى الملك يقول له إن ربى أنقذنى من رجالك . فأرسله مع آخرين ، فنجا منهم ، وتكررت المحاولات وتكرر الفشل ! ثم قال الغلام للملك تريد قتلى ؟ قال نعم ! قال اجمع أهل المدينة واصلبنى أمامهم وصوِّب إلىّ السهم وأنت تقول باسم الله رب الغلام . ثم أطلق السهم ! فقتله !! ولكنه قتل معه خرافة الفرعون المتأله . . وعرف الأحمق أنه هدم ألوهيته بنفسه . قال المؤرخون فشقّ الأخدود لحرق المؤمنين ! « النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود . وهم على مايفعلون شهود. ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد »[5] .

---

(١) البروج : ١ . (٢) البروج : ٢ . (٣) البروج : ٣ .
(٤) البروج : ٤ . (٥) البروج : ٥ـ٨ .

وكم من أفراد وجماعات ماتوا فى سبيل الله وكسبوا الدار الآخرة. وقد هدَّد الله الفتانين من أهل مكة كى يدعوا جرائمهم « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق »(١).

والجزاء من جنس العمل. ثم ذكرت السورة بعض صفات الجلال والجمال ليخشى من يخشى ويتوب من يتوب. « إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد»(٢).

ومع هذا التذكير بصفات الله إشارة موجزة إلى مافعل بالجبابرة الأقدمين. إنه أملى لهم قليلا ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر. « واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين»؟ (٣) ويلفت النظر هنا وصف الظلمة بأنهم « جنود » « هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود»»(٤). إن الحكم العادى بعيد الفتك، ويكثر البلاء مع الانقلابات العسكرية، التى تغتال الإيمان وأهله، وينال الدين منها ضر شديد.

(١) البروج: ١٠.   (٢) البروج: ١٢ ـ ١٥.   (٣) القصص: ٤٢.
(٤) البروج: ١٧ـ١٨.

سورة الطارق

« والسماء والطارق . وما أدراك ماالطارق . النجم الثاقب » . [1] فى السماء كواكب تشبه أرضنا فى أنها معتمة لاوهج لها ولانور . وفيها نجوم متألقة الكيان كالشمس أو دونها . وقد يكون الطارق أحد هذه النجوم ، ويسميه العرب الشاهد وهو يظهر مع الغروب . وربما قصد به جملة النجوم المضيئة الهادية . والمقسم عليه قوله تعالى بعد « إن كل نفس لما عليها حافظ » .[2] إن الخالق الكبير لايعييه أن يجعل حفظة على كل إنسان تحصى عليه مايفعل ومايذر !!

ومضى السياق فى الاستدلال « فلينظر الإنسان مما خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب»[3] . تفاصيل الخلق الإنسانى مشروحة فى علم الأحياء ، وقد عرفت أن بعض علماء الغرب الخبراء فى « علم الأجنة » أعلنوا إسلامهم للدقة التى تحدث بها القرآن عن أطوار الخلق ومراحله ، ولايعرف هذا فى كتاب سابق !

إن العامة والخاصة يدركون أن بداية الخلق من ماء يمرّ بمجارى البول تشرف عليه غدد معقدة متصلة بالجهاز العصبى !

من هنا البداية ! لكن مِمَّ يخلق الإنسان بعد مابدأ وجوده ؟ من أطعمة تقدمها له القارات كلها ، فما يأكله أو يشربه تشترك فى إنباته سحب الشرق والغرب وأتربة الأقطار من شتى البلاد .

لو قيل لكل ذرة من لحم الإنسان وعظمه وشعره ـ إلخ عودى من حيث جئت لتوزعه سطح الأرض كلها . . .

لكن الإنسان كفور ! وأيًّا ما كان الأمر ، فهو عائد لحساب مُرّ « يوم تبلى السرائر. فماله من قوة ولاناصر »[4] .

ويمضى السياق فى الحديث عن القدرة العليا .إن الأرض تُشَق، والسماء تمطر، والحبوب والفواكه تُجْنى وتصدَّر هنا وهناك .

---

(١) الطارق : ١ ـ ٣. (٢) الطارق : ٤ . (٣) الطارق : ٥ ـ ٧ .
(٤) الطارق : ٩ ـ ١٠ .

وابن آدم الذى كان وزنه حين ولد رطلا أو رطلين أصبح قنطارا من العضلات والأعضاء !

من حوّل الفجل والذرة إلى تلافيف مخ يفكر ؟ ! ومن حول النبات والحيوان إلى جسم تتوزع على جلده أعصاب الإحساس والوعى ؟ مَنْ إلا الله ؟

ولكن عيالاً تصيح فى صحف شتى : أحمُوا المبدعين من الأزهر ! حسنا نحميكم . ماذا تقولون؟

نقول : الصفر مصدر هذا الوجود ! أهذا إبداعكم ؟ شاهت الوجوه ! كيف يتكوّن الوجود من عدم ؟ !

إننى لا أعرف فى الأولين والآخرين أحقر من كفار العرب ! « إنه لقول فصل . وماهو بالهزل . إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا» [1] .

---

(1) الطارق : ١٣ ـ ١٧ .

سورة الأعلى

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوَّى . والذى قدر فهدى » . [1] علو المكانة أشرف من علو المكان . وعندما نصف ربنا ـ تبارك اسمه ـ بالعلوّ فإنما نعنى رفعة القدر وسموّ الذات ، ولسنا نعنى حماقة فرعون عندما قال « فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى . . . »[2] . ولاحماقة رائد الفضاء الروسى عندما قال إنه بحث فى الفضاء فلم يجد الله !!

إن كل مسلم يسجد لله مرارا ، ويقول فى سجوده سبحان ربى الأعلى . . مؤكدا قوله « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا »[3] .

ولاشك أن الرحمن على العرش استوى ، وأن العرش يسع العوالم كلها ، ولكن شئون الزمان والمكان وخواص المادة شأن آخر غير ماينبغى لله العلىّ الكبير !

قد تقول لرجل هل عرفت فلانا ؟ فيقول لك التقيت به فراعنى كبر عقله وشرف نفسه !

ونحن البشر نعرف أن الله عالى القدر ، ولو أن ومضة برق كشفت لنا طرفا من علوّه لطاشت الألباب . إننا نتيه فى أسرار الذرة ، فما عسانا نفعل فى عالم تغيب عنا أبعاده وآماده؟! إن مبدعه من الصفر باهر العظمة « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك . . . » .

وقد خلق فسوَّى ، أحسن كل شىء خلقه ، ورسم له نظاما لايعدوه . قالوا إن مقدار الماء فى الأرض لايزيد ولاينقص . الإنسان والحيوان والنبات وشتى الأحياء تستهلك منه الكثير ، ولكن هذا الكثير يعود مرة أخرى إلى البحار مطرا يهمى بعد ماخرج منه بخارا مُثارا !! لايزيد ولاينقص ، « والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى »[4] . حالت نضرته سوادا ، ثم يعود مرة أخرى مابقت الدنيا زرعا فهشيما ، حتى يقدر له الفناء الأخير .

« سنقرئك فلا تنسى » .[5] اطمئن يامحمد فإن الذى اختارك سيعينك حتى تؤدى

---

(1) الأعلى : ١ ـ ٣ .　(2) القصص : ٣٨ .　(3) الإسراء : ٤٣ .
(4) الأعلى : ٤ ـ ٥ .　(5) الأعلى : ٦ .

رسالتك . لقد أنزل عليك كتابا خالدا وبعثك بالحنيفية السمحة «ونيسرك لليسرى . فذكّر إن نفعت الذكرى »[(1)] . عليك البلاغ فمن رشد اتبعك ، ومن استحمق تركك « سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى »[(2)] .

إن الإنسان كائن يستطيع الإسفاف ويستطيع التسامى، ونجاحه ليس فى المال أو الجاه . ماقيمة أن يكسب الدنيا وهو جاحد لربه متمرد على وحيه ؟! « قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلّى »[(3)] المحزن أن الناس تستهويهم اللذات العاجلة ويعمون عن مطالب الغد القريب . وكما قال الحسن : « مارأيت حقا أشبه بباطل من الموت » . إنه ماترك بابا إلا طرقه ، ومع ذلك فكأنه ماخطف شابا ولاشيخا « بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى »[(4)] .

---

(1) الأعلى : ٨ـ٩ . (2) الأعلى : ١١ـ١٢ . (3) الأعلى : ١٤ـ١٥ .

(4) الأعلى : ١٦ـ١٧ .

سورة الغاشية

« هل أتاك حديث الغاشية » [١] . من أسماء يوم القيامة لأنها تغطى الأفكار وتدّوخ الناس . وقد بدأت السورة بوعيد ووعد، إثارة للرهبة ، والرغبة ثم دفعت العقل إلى التفكير فى عناصر البيئة العربية عندما لفتته إلى الإبل والجبال والآفاق العريضة، ليخلص من ذلك إلى إفراد الله بالعبادة ، وهجر الأصنام الموروثة .

وانتهت السورة بتحديد رسالة الأمة الإسلامية بين الناس ، وهى التوعية والتذكير. فإذا فقد الأنام إدراكهم للحكمة من وجودهم، نهض المسلمون بهذا العبء فحاربوا الإلحاد والمنكر والغفلة عن الله !!

وعونهم فى هذه السبيل الكتاب الخالد الذى شرفوا به . . . ثم اتخذوه مهجورا فى هذه السنين العجاف . .

والوعيد الذى تصدّر السورة وصف الأشرار بما يبعث على الكآبة « وجوه يومئذ خاشعة » . [٢] ذابلة يائسة « عاملة ناصبة ». [٣] مرهقة شرابها ماء حارّ ، وطعامها لاجدوى منه . أما الأتقياء فلهم مكانة أخرى « وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية » [٤] ومن صفات الجنة أن اللغو لامكان له فيها ، لأنه سفه غير لائق بأولى الألباب .

الذى يليق بأولى الألباب إعمال العقول وراء المجهول حتى تستبينه ! « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت» [٥].

والاستفهام بكيف دعوة ممتدة للعقل الإنسانى أن يبحث ويحاول استكشاف الكون بما فيه من نبات وجماد . . .

وقد عاتبتُ أسلافنا على هجرهم للفلسفة القرآنية الدارسة للمادة ، وانشغالهم بالفلسفة اليونانية الباحثة فى التصورات والأوهام . وإن كان من آبائنا من سدَّ هذه الخلّة، لكنهم للأسف قلّة . . .

---

(١) الغاشية : ١ . (٢) الغاشية : ٢ . (٣) الغاشية : ٣ .
(٤) الغاشية : ٨ـ ١٠ . (٥) الغاشية : ١٧ـ١٨ .

ونقف قليلا عند قوله تعالى « فذكّر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر » .[1] المسلمون ليسوا مكلفين بإقامة دولة استعمارية تذل الأعناق وتسرق الخيرات . لقد كلّفوا بإقامة دولة كبرى تحرر العقول وتحدو البشر إلى الكمال . وقيام هذه الدولة ليس امتيازًا لجنس ولاتفوّقا لنسب . إنه لون شريف من الجهاد فى سبيل الله ! فهل نعى ؟

لقد أضيبت الفضائل فى مقاتلها ،لقدرة السلطات الكفور على حماية الأهواء ونشر المظالم ويجب أن تقوم سلطة مؤمنة بحماية الطهارة و إقرار العدالة والدعوة الدءوب للإيمان والصلاح . وعلى كل حال ،فمهما طالت الأعمار أو قصرت، فالمصير إلى الله العدل. « إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم»[2] .

---

(١) الغاشية : ٢١ـ٢٢ .
(٢)الغاشية : ٢٥ـ٢٦ .

سورة الفجر

« والفجر» [1] قسم بإدبار الظلام وميلاد الضياء . وقد عطفت عليه أقسام أخرى « وليال عشر»[2] . وهى على مايراه جمهور المفسرين عَشْر ذى الحجة المنتهية بوقفة عرفة ويوم النحر، ففى هذه المدة ينطلق القادرون لأداء فريضة الحج ويسمع لقوافلهم دوىّ بالتلبية وهم مُولّون شطر البيت العتيق ، قادمين من المشارق والمغارب !

« والشفع والوتر. والليل إذا يسْر» [3] . قسم بالزمان معطوف على ماقبله . والزمان من أسرار الكون التى تعرف بآثارها ولاتدرك حقائقها .

وعلام القسم ؟ الظاهر أن المقسم عليه محذوف، يدل عليه ما بعده. والمقصود لينصرن الله دينك وليرفعن رايتك وليخذلنَّ الكفر وأهله مهما بلغ بطشهم واشتد بأسهم. وليس كفارنا خيرًا ممن سبقونا .

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد ». [4] إن الأولين ربما لم يغزوا الفضاء ويتوغلوا فى علوم المادة، ولكنهم كانوا مهندسين مهرة ، وآثارهم تدل عليهم. ولقد قال الله للعرب الذين كذبوا محمدا « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها . . » [5] . لكن طغيانهم أوردهم المهالك، فلما غالبوا القدر وكابروا الحق « فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد » [6] .

ووسط سورة الفجر يتحدث عن طبيعة سيئة فى البشر ، إنهم يغترّون باليوم الحاضر وينسون ما قبله وما بعده ! ولايعرفون أن الله يداول الأيام بين الناس . . .

فيوم علينا ويوم لنا . .   ويوم نساء ويوم نسرّ !!

وقد وصف النابغة الغساسنة بأنهم أبرياء من هذا المرض ، وأنهم يعرفون الدهر على حقيقته فقال :

---

(١) الفجر : ١ . (٢) الفجر : ٢ . (٣) الفجر : ٣ـ٤ .
(٤) الفجر : ٦ـ١٠ . (٥) الروم : ٩ . (٦) الفجر : ١٣ـ١٤ .

ولا يحسبون الخير لاشر بعده ولايحسبون الشر ضربة لازب !

وجماهير الناس تُخدع بيومها الحاضر ، ولايدرون أنهم ممتحنون بما حوى من ضر ونفع « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا »[1] .

إن هذا كلّه تقسيم معايش يعرف القدر وحده سرها ، ولا دلالة فيها على إيثار أو طرد . والله يبتلى بالغنى والفقر والهزيمة والنصر ، وليس يُسْرُهُ رضا ولا عسره سخطا . إنه تقسيم معايش يُمحَّص به الناس أجمعون ، وتحدَّد على ضوئه منازلهم يوم القيامة ، والعاقبة للتقوى . .

إن الله لايعطى غنيا المال كى يقول لغيره : « أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا »[2] . إنما يعطيه ليشرك غيره فيه ، ويسارع إلى مواساة المحتاجين وتفريج كُرَبهم . ولم يحرم أحدًا المال ليبكى على دنيا فاتته أو يحسد من أوتى شيئا منه ، بل ليصبر ويكافح ويتربى على العفاف .

ومن بدء الخليقة فاوَتَ الله بين أرزاق الناس لحكم منشودة وامتحان مقصود. ولذلك قال ـ بعد وقوع هذا التفاوت « كلا بل لاتكرمون اليتيم. ولاتحاضّون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلا لمًّا . وتحبون المال حبا جمًّا »[3] .

وقد نشبت معركة الخبز من قديم ، واجتذبت إليها أنشطة البشر جميعا ، وضربت الحرب بين الأثرة والإيثار والبخل والعطاء . وأقول ـ وأنا محزون ـ إن وصايا الدين انهزمت وغرائز الوحوش غلبت . ثم ظهرت فلسفة الشيوعية التى تولت عن الله تقسيم الأرزاق ـ لأنها اتهمته بالجوْر ! ـ فماذا حدث ؟ قال الإنسان فى ظلها بعدما اكتوى بذلها وبؤسها :

ربما يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه

وسألت نفسى ماذا قدم المسلمون للجماهير التائهة على ظهر هذه الأرض ؟ لاشىء . فقد غطّوا وجه الإسلام وشوهوا جوهره . بل لقد رأيت فى دار الإسلام أحرارًا يلتمسون الكرامة فى أرض أخرى ، ويبحثون عن العدالة التى عزّت مصادرها فى أرضهم ! لم يبق إلا انتظار البعث الآخر «كلا إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا . وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول ياليتنى قدمت لحياتى »[4] ! هذا صياح الندم يوم لاينفع ندم !

أما الصالحون من عباد الله ، فهذا يوم البشرى وتهلّل الوجوه بالفوز. روى الطبرى عن سعيد ابن

---

(١) الفجر : ١٥ـ١٧ . (٢) الكهف : ٣٤ . (٣) الفجر : ١٧ ـ ٢٠ .
(٤) الفجر : ٢١ـ٢٤.

جبير قرأ رجل عند رسول الله قوله تعالى « يأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية»[1] .

فقال أبو بكر : ما أحسن هذا ! فقال له النبىّ ﷺ : « أما إن الملَكَ سيقولها لك عند الموت » .

وأبو بكر أول العدول الراشدين ، ومن أولى الناس بها . ولكن السياق عام فى القرآن الكريم يتناول كل مؤمن أسلم لله وجهه وأصلح له عمله ، فالكلمة الجميلة تنتظره ليدخل الجنة ، ويشارك فى أحفال التسبيح والتحميد التى تملأ رحابها ، جعلنا الله بمنه وفضله من أهلها .

(١) الفجر : ٢٧ــ٢٨ .

سورة البلد

« لا أقسم بهذا البلد » . [1] يعنى أقسم بمكة « وأنت حل بهذا البلد » ، [2] ثاوٍ به تدعو إلى الله على بصيرة . ومع أن البلد حرم يصان فيه الحيوان والنبات ، فإن محمدا استبيح واستمرئ العدوان عليه .

ولماذا القسم ببلد يقع فيه هذاالتناقض ؟ لأن الدعوة إلى التوحيد هنا وبناء جيل جديد يرتبط بالله إجابةٌ لدعاء وقع من وراء القرون ، يقول فيه إبراهيم وإسماعيل « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » . [3] ولذلك نحن نفسر « ووالد وماولد»[4] بأن الوالد هو إبراهيم وأن محمدا من ذرية إسماعيل هو ولده الذى يختم الرسالات ويقيم دولة التوحيد فى الأرض .

« لقد خلقنا الإنسان فى كبد »[5] إن الجنس الإنسانى يحمل أثقال التكاليف ، ولجام الشريعة يحجزه عن تحقيق شهواته . وقد يكفر الإنسان وينكر أنه سيحيا مرة أخرى . لماذا ؟ أيعجز الله عن إعادته بعد إماتته ؟ « أيحسب أن لن يقدر عليه أحد »[6] ؟ وذلك كقوله فى سورة أخرى : «أيحسب الإنسان ألَّن نَّجمع عظامه»[7] ؟ !

ويغتر الإنسان بما أسدى وأنفق من ثروته «يقول أهلكت مالا لبدا » [8] ، كثيرا وتلك طبيعة العرب فى الافتخار بالجاه والثراء والعطاء . يقول عنترة :

وإذا سكرت فإننى مستهلك ... مالى . وعرضى وافر لم يُكْلَم . . !

وإذا صحوت فما أقصر عن ندًى ... وكما علمْتِ شمائلى وتكرمى . . !

وماقيمة هذا كله إذا لقى المرء ربه عريان لايكسوه إيمان ولاصلاح؟! « أيحسب أن لم يره أحد»[9]؟ إن الله سائل كل امرئ عن ماله « من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه »؟

---

(١) البلد : ١ . (٢) البلد : ٢ . (٣) البقرة : ١٢٩ .
(٤) البلد : ٣ . (٥) البلد : ٤ . (٦) البلد : ٥ .
(٧) القيامة : ٣ . (٨) البلد : ٦ . (٩) البلد : ٧ .

ثم يذكّر المولى عبده بما أودع عنده من نعم تستدعى الشكر « ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين »[1] . فهلاّ كسر قيود الكفر والتقليد الأعمى واقتحم طريقه إلى الله مؤمنا به مطيعا لأمره ! وماذا يصنع ليحقق ذلك؟ « وما أدراك ماالعقبة . فكّ رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة» .[2] والسورة هنا ذكرت الإيمان بآثاره الجليلة ، فليس الإيمان زعما مجردا إنما هو عطاء وفداء وذكاء وسناء . والمؤمنون نماذج الإنسانية الكاملة والشرف الرفيع « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة »[3] . أى جمهور أهل الجنة . والتواصى بالصبر والمرحمة شارة أهل الكمال والاجتهاد .

والمؤمنون ليسوا كسالى ولا خزايا ، إنهم ناشطون فى طريق الخير ، حتى يدركهم الموت فينقلهم إلى منازلهم من جنة الرضوان ، كل على قدر نشاطه وسبقه وتوفيق الله له .

أما مدمنو الآثام وعشاق الظلام ، فلهم عاقبة أخرى « والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة »[4].

سورة البلد هذه بينت أن الأنبياء العرب لم ينجحوا فى هداية أطراف الجزيرة شمالا وجنوبا . حتى جاء النبى الخاتم فكوّن من وسط الجزيرة من حملوا المشاعل إلى العالم أجمع .

---

(١) البلد : ٨ ـ ١٠ . (٢) البلد : ١٢ ـ ١٦ . (٣) البلد : ١٧ ـ ١٨ .
(٤) البلد : ١٩ ـ ٢٠ .

سورة الشمس

« والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها »[١]. عندما أنظر إلى الشمس فى كبد السماء أحسبها تزيد قليلا عن شبر فى شبر ! ثم أذكر أقوال العلماء أنها تكبر أرضنا « مليونا ونصف مليون مرة » ، وأن المسافة التى تباعدنا عنها « ١٥٠ مليون كيلومتر » ، وأن الكواكب التى تتبعها تسعة كواكب من بينها أرضنا التى تحمل ستة مليارات من البشر وحدهم ! وأن هذه الشمس وتوابعها تجرى بين شموس أخرى لاتحصى فى مجرة مديدة الآفاق ، وأن هذه المجرات على كثرتها المذهلة تدور فى زاوية محدودة من الكون الفسيح الذى لاتعرف آماده ولاتدرك أبعاده !

قلت وأنا مبهور ما أوسع الكون ! واستتليت وأنا حائر : وما أوسع خالقه ! وقرأت « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم »[٢] .

فى هذا الكوكب المحقور، يعيش بنو آدم الذين منحوا حرية الاختيار، فآمن من آمن وكفر من كفر . إن حملة العرش وسكان السموات يستغفرون لهم « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا . . . »[٣]. « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض »[٤] .

وسورة الشمس وأمثالها من قصار السور تتضمن معانى وجيزة وتوجيهات سريعة ، ولكنها كافية شافية . ولذلك يكثر تكرارها فى الصلوات الخمس لتكون زادا روحيا نافعا .

وقد أقسم الله سبع مرات فى صدر السورة على أن الفلاح لمن زكّى نفسه والخيبة لمن تبع هواه وأخلد إلى الأرض وهل . يهلك الناس إلا بالإسفاف والغفلة ؟ وقد فجرت ثمود وطغت، فماذا كانت عقباها ؟ أمست هشيما تدوسه الأقدام . .

---

(١) الشمس : ١ ـ ٢ . (٢) البقرة : ١١٥ . (٣) غافر : ٧ .
(٤) الشورى : ٥ .

سورة الليل

« والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . . . »[1] ظلام الليل يغطى العالم وضوء النهار يكشفه . ومع اختلاف الليل والنهار يقضى الناس آجالهم ويصنعون مستقبلهم، فإما إلى جنة وإما إلى نار. السعى الصالح يرشح صاحبه لمستقبل نضير، والعمل الردىء يمهِّد لصاحبه النهاية المزرية . «فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى »[2] .

ولقد ظهرت أجيال فى الأمة الإسلامية جحدت طاقاتها، ولاذت بالقعود والكسل، ففقدت حاضرها ومستقبلها جميعا، لأنها استحمقت فى فهم القضاء والقدر، واعتنقت خرافة الجبر، واعتمدت على الثرثرة فى تسويغ فشلها وعجزها . ومع ضرورة العطاء والصدق والتقوى ، لابد من ابتغاء وجه الله وتجريد النية من كل شائبة !

وهذا مطلب عسير . فأغلب الناس يعبد المال والجاه ، ويدور حول شخصه وأمجاده ومآربه ! ويخيَّل إلىّ أحيانا أن الرياء محور النشاط البشرى، وأن الإخلاص أندر من الكبريت الأحمر كما يقولون! « الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربّه الأعلى . ولسوف يرضى »[3] . ولو خلص العمل من حب الدنيا ، وقارنه طلب الآخرة لنجت الدنيا من فتن رهيبة ، وانطفأت حروب مدمرة واجتمعت أحزاب متفرقة ، وانتظمت صفوف مختلَّة . نسأل الله أن يأخذ بنواصينا إلى مايرضى . . !

---

(١) الليل : ١ ـ ٢.   (٢) الليل : ٥ـ ١٠ .   (٣) الليل: ١٨ ـ ٢١ .

سورة الضحى

وُصف القرآن فى آيات كثيرة منه بأنه نور «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا »[١] . « ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا »[٢] .

ولاشك أن الوحى الأعلى كان شروقا دائما على قلب محمد ، ظل معه إلى آخر العمر ! ربما تريث الوحى مرة أو مرتين لأسباب طبيعية . وقد حدث ذلك فى أوائل نزوله . فهل يعنى ذلك أن رب محمد كرهه ؟ كذلك زعم خصوم الرسالة ! فنزلت هذه السورة « والضحى . والليل إذا سجا . ماودَّعك ربك وماقلى»[٣] .

قال العلماء وفى هذين القَسَمين إشارة إلى وقت نزول الوحى ووقت توّقفه ، ولابد من استجمام وراحة لأن نزول الوحى تصحبه معاناة . ولا مكان هنا لترك أو كراهية « وللآخرة خير لك من الأولى »[٤] .

فى أول الرسالة كان النبىّ ﷺ يربى أناسا يُعدُّون على الأصابع ، ثم أخذت دائرة الدعوة تنداح فإذا هو يقوم على تكوين أمة كبيرة . كانت هذه الأمة هى الدعائم المختفية فى التراب للبناء الإسلامى الشامخ الباقى إلى قيام الساعة . لقد استقبل خلال ذلك وحيا كثيرا وتحمَّل جهودا مضنية ، حتى غير التاريخ العام وأنشأ حضارة أخرى . والكتاب الذى صنع ذلك مازال بين أيدينا شاهد صدق على عظمة الإسلام ورسوله .

« ولسوف يعطيك ربك فترضى »[٥]. ما نوع هذا العطاء ؟

لقد مات إبان المعركة الدائرة مع الكفر ، ودفن فى حجرة مُلحقة بالمسجد ، وخرج من الدنيا وحلوائها كما تخرج الشعرة من العجين ماعلق به شىء منها ! وترك للأوفياء من رجاله أن يمضوا على الطريق لايعوقهم شىء، فلقيت جمهرتهم الله على التوحيد والتقوى .

---

(١) التغابن : ٨ . (٢) الشورى : ٥٢ . (٣) الضحى : ١ـ٣ .
(٤) الضحى : ٤ . (٥) الضحى : ٥ .

إن الله قال لموسى من قبل « ولتصنع على عينى » (١) . وقال لمحمد ـ بعدما حمله رسالة هائلة ـ « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم » (٢) . والله الذى يتولى تربية الأنبياء يختارهم من معادن نفيسة ثم يصقلهم فى حياتهم بالأحداث الشداد ، وهو أولى بهم منهم . . ! « ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى » (٣) . الضلال المقصود الحيرة فى معرفة الطريق وقيادة العالم . ومحمد والأنبياء جميعا معصومون من الضلال الذى هو ظلمة النفس ووضاعة السلوك . وماينسب إليهم فى بعض الكتب محض افتراء . .

ثم إن الله أغناه عن الناس فعاش مكفول الضرورات ، ولكنه ليس صاحب كنوز ، بل ليس صاحب فضول ! وبعد أن ذكّره الله بنعمته السابقة واللاحقة ، قال له « فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث » (٤) . والتحديث بالنعمة كقوله فى سورة أخرى « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون » (٥) . إنك مختار لتبليغ رسالة وإنقاذ عوالم من الناس ، فحدِّث فلست كاهنا ولامتكلفا . . ! « إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » (٦) .

---

(١) طه : ٣٩ . (٢) الطور : ٤٨ . (٣) الضحى : ٦ ـ ٨ .
(٤) الضحى : ٩ـ ١١ (٥) الطور : ٢٩ . (٦) هود : ١٢ .

سورة الشرح

سورة الانشراح امتداد لسورة الضحى . والاستفهام الذى بدئت به تكملة للاستفهام المتابع الذى ختمت به السورة السابقة . وشرح الصدر تمّ بما أفاء الله عليه من علم وأدب، كما قال فى موضع آخر « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »[1] . لقد نشأ فى بيئة ممتدّة الظلام ، بل إن العالم كله كان فاقد الرشد تعصف به وثنيات عفنة ، فعلام يعتمد ناشد الحق أو من أين يستمدّ ؟ إن مَتْنه يكلّ من ثقل الحمل ، لولا أن الله اصطفى وأنعم «ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذى أنقض ظهرك . . »[2]

والتوحيد الذى جاء به محمد طراز نقىّ فريد لاتناقض فيه ولا وهم ، لاتجسيد ولاتعديد !

وقد تسأل : لماذا انضمت الشهادة لمحمد بالرسالة إلى الشهادة لله بالوحدانية ؟

إن التوحيد الذى يعلِّمه محمد ،هو الذى يعرفه النبيّون كلهم أزلا وأبدا ولم يبلغوا غيره ، فمجيئه عن طريق محمد إشارةإلى أنه من مصدر مصون منزّه ، ولذلك قال حسان بن ثابت

وضم الإله اسم النبّى إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن : أشهد !!

وهذا معنى « ورفعنا لك ذكرك »[3]صحيح أن الناس فى أوروبا مثلا يكذبون محمدا !! وينسبونه إلى الادعاء ! وماذا تنتظر ممن يجحدون الألوهية ويحسبون الأفلاك تدور وحدها فى السماء، أو أن الدماء تنطلق وحدها فى العروق ؟! إن الافتراء على الله فوق الافتراء على عباده ، ولذلك يقول الله لنبيه : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »[4] . ويوصى الله نبيه بالتجلد والمصابرة فى ملاقاة الكذابين مهما اشتد أذاهم، فالمستقبل للحق ورجاله. « فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا »[5] .

وهذا التركيب يفيد ـ فى قواعد البلاغة ـ تعدّد اليسر وانفراد العسر، ولذلك قالوا : لن يغلب عسر يسرين. ويوصيه مرة أخرى بالدّأب على الجهاد والإقبال على الله . فإذا انتهى من واجب

---

(١) النساء : ١١٣ . (٢) الشرح : ١ـ٣ . (٣) الشرح : ٤ .
(٤) الأنعام : ٣٣ . (٥) الشرح : ٥ـ٦ .

نهض إلى غيره، لا مكان فى حياته لفتور ! « فإذا فرغت فانْصَب . وإلى ربك فارغب» [1] . إن الدين الذى جاء به محمد إذا أخبر صدق ، وإذا حكم عدل . والعالم ـ لاسيما فى عصرنا ـ بحاجة إلى الصدق والعدل ، فإن الهراء والجور يطاردان الحق والعدل. « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم » [2] .

والدعاة وراء إمامهم خاتم الأنبياء ينبغى أن يعوا ذلك .

(١) الشرح : ٧ـ٨ . (٢) الأنعام : ١١٥ .

سورة التين

« والتين والزيتون. وطور سينين وهذا البلد الأمين »[(١)] . أيمان أربع متتابعة على أن الله خلق الإنسان فى أحسن تقويم . والتين والزيتون ثمرات معروفة ويرى جماعة من العلماء أن الله أراد القسم بهذا الثمر ، ولو أقسم بغيره جاز ، فكل ماتنبت الأرض من دلائل القدرة . وهل أروع وأبرع من أن ينشق الطين عن طعم حلو ورائحة زكية ولون زاهٍ ؟ ولعله مرويٌّ ومُسمَّد بالأقذاء . مَن الذى أخرج من الحمأ المسنون هذه الثمرات الشهيَّة ؟ إنه الله .

ويرى المحققون أن القسم هو بمواطن الشرائع الأولى ، وهذا أوفق فى الجمع بينها . ويؤيده ماروى عن ابن عباس أنّ التين هو مسجد نوح الذى بناه على الجوديّ بعد انتهاء الطوفان . وأن الزيتون هو المسجد الأقصى الذى بناه إبراهيم بعدما بنى الكعبة . وطور سنين مكان تجلِّى الله على موسى وتشريفه بالرسالة . والبلد الأمين مكة موطن الإسلام ومشرق أنواره .

والمقسم عليه هو خلق الإنسان فى أحسن تقويم ! هل حسن التقويم صورته الحسنة وقامته المديدة ؟ لا ، ليس ذاك مايشرف به الإنسان . وفى الحديث «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » . قد يكون القوام الممشوق بعض ما امتاز به بنو آدم ، ولكن امتيازهم الأول، ولعله أيضا الأخير، هو ذكاء العقل واستقامة الفطرة .

إن نفخة من روح الله الأعلى سرت فى أوصال الإنسان فجعلته كائنا خطير الشأن ، وفى تكوينه الأول إشارة إلى أنه يولد بالتوحيد ، والاستقامة ؛ ثم تعدو عليه البيئة الرديئة، فإذا هو يميل ويعوج وينسى أصله الرفيع . وفى الآية « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون »[(٢)] .

ولكن الناس عندما ينسون ربهم وتفسد فطرتهم، يقترفون آثاما تقشعر منها الأبدان. لماذا توءد الطفلة ؟ لماذا تحرق الزوجة السليمة مع زوجها الذى سبقها بالموت ؟ لماذا يعذَّب سجين حتى

---

(١) التين : ١ـ٣ . (٢) الروم : ٣٠ .

يهلك ؟ لماذا يكتم بعض الناس الحق ؟ لماذا يضنّ البخيل بالعطاء وهو مستغن عنه ؟ لماذا ننكر أن الله هو خالقنا ؟.هذه كلها سفالات يرتكس البشر فيها ، ويبتعدون بها عن فطرة الله . .

إن الفطرة الجميلة تبقى مع الحفاظ على الصلاح والتقوى ، وتضيع إذا جفّ الإيمان . وهذا معنى الآيات : « ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »[1] . مقطوع . « فمايكذبك بعدُ » أيها الإنسان «بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين »[2] .

لماذا ينكر البعض الإسلام ويحاربه ويصدّ عنه ؟ بأى فكر يفعل ذلك ؟ وقد تركت شعوبٌ حكمة الحكيم واستبدلت بالإسلام شرائع مغموصة لاتثمر خيرا أبدا فيا عجبا !

جاء فى الحديث « من قرأ منكم « والتين والزيتون»[3] فانتهى إلى قول « أليس الله بأحكم الحاكمين »[4] ، فليقل : وأنا على ذلك من الشاهدين » .

---

(١) التين : ٥ـ٦ . (٢) التين : ٧ـ٨ . (٣) التين : ١ .
(٤) التين : ٨ .

سورة العلق

كان النبى ﷺ يذهب إلى غار حراء بين الحين والحين ، يخلو بنفسه بعيدا عن لغط الجاهلية ويرسل النظر عميقا فى آفاق الكون مستشعرًا اليقين والخشوع أمام مبدع هذا الملكوت . إنه يزدرى الأصنام وعبادتها ، ويكره ماقام فى ظلها من مراسم وتقاليد ، ولكنه لايدرى أكثرمن هذا !! حتى فجاءه صوت غريب « اقرأ . . . » قال ما أنا بقارئ ! وتكرر الصوت والردّ . ثم استمع إلى تمام الأمر «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم» (١) . هذه الآيات الخمس هى أول مانزل على قلب الرسول من قرآن ، ثم نزلت بقايا السورة بعد ذلك .

إن الذى خلق الإنسان من علقة ، قادر على أن يجعل الأمّىّ عالما . ومحمد ماتطلّع إلى وحى أو رسالة ، فقد بوغت بما كان ، فلما استيقن من اصطفاء الله له شرع يبنى الأمة الجديدة كما فعل من قبل إبراهيم وموسى . والباحث النزيه فى سيرته وفى كتابه وفى جهاده يدرك أن محمدًا بلغ المدى وزاد ، ويوقن بأن العالم لم يعرف إمامًا يدانيه فى شمائله وفضائله .

وبعد فترة نزلت الآيات « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى » . (٢)

إن الحاجة قد تذل إنسانا ، لكن لماذا يطغى إذا اغتنى ؟ حسبه أن يعتدل فلا يصغر ولايكبر . بيد أن كثيرا من الناس إذا أثرى احتقر الآخرين وتمرّد على الحق ! حساب أولئك فى الآخرة !

وذكرت السورة الكافر الذى يكذب بآيات ربه وينهى عن الصلاة والطهارة « أرأيت الذى ينهى . عبدا إذا صلى . أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى . . . » (٣) .

وفى سورة المدثر ، ذكرت هذه الصفات وزيادة « ماسلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين » (٤) . على هذا دارت المعركة بين محمد وخصومه بضعة عشر عاما فى مكة . . وستبقى دائرة إلى يوم الدين ، لأن

---

(١) العلق : ١ ـ ٥ .　(٢) العلق : ٦ ـ ٨ .　(٣) العلق : ٩ ـ ١٢ .
(٤) المدثر : ٤٢ ـ ٤٦ .

جماهير الكافرين ترفض الصلاة والزكاة. إنها تمارى فى وجود الله وفى لقائه وفى الاستماع إلى أمره ونهيه. والإسلام بخاصة موضع السخط ،لأنه لايهادن فى وجوب السمع والطاعة « أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى »[1].

وستنشب المعركة حتما بين فريقين : أحدهما مرتبط بالحلال والحرام والحق والواجب . والآخر يرى الإنسان سيد نفسه ، وليس لأحد عليه سلطان توجيه !!

« كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية »[2] . السفع القبض على المرء مع جذبه من ناصيته على نحو لايستطيع معه الإفلات.

«ناصية كاذبة خاطئة »[3] . وقد سمع رؤساء مكة هذا التحدى ولم يصنعوا شيئا .

(١) العلق: ١٣ـ١٤ .   (٢) العلق : ١٥.   (٣) العلق : ١٦ .

سورة القدر

بدأ نزول القرآن فى ليلة مشهودة يعرفها المسلمون بليلة القدر، أى الشرف والرفعة . وقد اختلفوا فى تحديد هذه الليلة ، والجمهور على أنها تقع فى العشر الأواخر من شهر رمضان . ولما كان طلوع الهلال وأفوله متفاوتا طول السنة القمرية ،فمن الصعب القول بأنها تلزم وقتا واحدا ، وعلى من يحبون قيام الليلة أن يتهجدوا الثلث الأخير أو النصف الأخير من الشهر الطيب !

ولاشك أن نزول القرآن مناسبة جديرة بالحفاوة والعبادة والدعاء . فإن القرآن من كلام الله الذى اختتم به الوحى، وتمت به النعمة ، ودخل به العرب التاريخ بعدما حملوا رسالته وصانوهامن التحريف .

وغزارة الخير النازل فى هذه الليلة يبدو فى قوله تعالى « وما أدراك ماليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر»(1) . وصدق القائل :

رب عمر طال بالرفعة لا بالسنوات
وقطيرات زمان ملأت كأس حياة

«تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » (2) . وهذه العبارة كقوله جل شأنه فى سورة الدخان « فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك »(3) . إن القرآن حوى كل مايحتاج إليه النشاط الإنسانى من سداد وهدى . ولامقْنَع للعقل إلا فى آياته، ولامصدر لليقين إلا فى بيِّناته .

وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها، فإن أى قارئ يستطيع الموازنة بين القرآن وبين كل ماانتسب من كتب إلى السماء، ثمّ ليقل رأيه : أيها أعظم دلالةعلى الله وتأسيسا لتقواه !

والليلة التى نزل فيها القرآن ليلة سلام ، والسلام غايتنا نحن المسلمين ، بيد أننا نتساءل ماالموقف عندما يقول المشركون للموحدين لامكان لكم هنا ؟! « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا . . »(4) . لابد من العدل قبل السلام . . .

---

(1) القدر : ٢ـ٣ .
(2) القدر : ٤ .
(3) الدخان : ٤ـ٦ .
(4) إبراهيم : ١٣ .

سورة البينة

هذه السورة فسّرها التاريخ العام. فالناظر فى خريطة العالم خلال القرن السادس الميلادى. يرى أن الشمال الإفريقى وغرب آسيا كانا مليئين بالنصارى يحكمهم الرومان ، وأن ماوراء ذلك من أرض الله الواسعة كان مليئا بالمشركين حتى الهند والصين . .

فلما جاء القرن السابع ، تغيرت الدنيا ، وما انتهى هذا القرن حتى كانت أقطار المغرب كلها ووادى النيل والأناضول والشام واليمن تفور بالإسلام ، ويتعالى الأذان فى القارتين القديمتين !

إن النصارى المخلصين استقبلوا الإسلام بترحاب ودخلوا فيه برغبة ، ورأوا فى نبوة محمد تحقيق ما رأوه فى كتبهم . وقد صوّر الإسلام هذا فى سورة الإسراء « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا »[١] . كما جاء فى سورة الرعد « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب »[٢] . وفى سورة العنكبوت « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به »[٣] ، يعنى من مشركى العرب ! !

والواقع التاريخى يؤكد أن امتداد الإسلام كان عظيما على الرقعة المسيحية ، وأن توقفه بعد ذلك يعود لظروف داخلية لامكان هنا لشرحها .

وكما دخل النصارى فى الإسلام دخل المجوس والبوذيون ووثنيون كثير . .

كيف تمّ هذا؟ إنه أثر القرآن الكريم ! « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين »[٤] ـ تاركى عقائدهم الأولى ـ « حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة »[٥] .

والقرآن قدير على تكرار تاريخه إذا وجد من يعرضه فطرة وفكرا وحضارة وطهارة ، وهى صفات

---

(١) الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩ . (٢) الرعد : ٣٦ . (٣) العنكبوت : ٤٧ .
(٤) البينة : ١ . (٥) البينة : ١ ـ ٣ .

تنقص مسلمى اليوم !! ومع ذلك فمن الناس من يعرف الحق ، ولكن يقدم عليه مصلحته وهواه .

ومن أهل الكتاب القدامى والجدد من يبيع دينه بعرض من الدنيا ، ومنهم من قتل الأنبياء ، وعذب المصلحين وطاردهم حيث ظهروا . ونحن نتابع تواريخ رجال الدين ـ من كل ملة ـ فنجد المآسى .

« وماتفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » [1] . ويظهر أن استنارة العقل لاتستلزم استنارة القلب ، وأن الله قد يعذر أصحاب فكر محدود ولكنه لايعذر أصحاب هوى غالب ونية مغشوشة !

ومن حراس الشعائر الدينية من يستعبدهم الشحّ المطاع والأثرة الجامحة ، والله أعلم بسرائر الناس « والله يعلم المفسد من المصلح »[2] . وهو يقول فى هذه السورة « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية » [3] .

ولست أخاف من الله أن يظلم أحدا . . فهذا مستحيل ! إنما أخاف من الله ألا يقبل توبة وأن يحبس فضله . وهذا الخوف الأخير مردود ، لأنه غافر الذنب وقابل التوب ، ومايهلك على الله إلا هالك . .

وقد ختمت السورة بوعد حسن للمؤمنين الصالحين على شرط أن يراقبوا الله ويصطبغوا بخشيته . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه»[4] .

إن الجيل الذى غير العالم قديما كان نموذجا حيا للقرآن ، كان إذا دخل بلدا أسرعت إليه العدالة والرحمة ، ووجد الضعفاء فى كنفه الكرامة والقوة !

أما الآن فإن دار الإسلام لها شأن آخر . . .

---

(١) البينة : ٤ ـ ٥ . (٢) البقرة : ٢٢٠ . (٣) البينة : ٦ . (٤) البينة : ٧ ـ ٨ .

سورة الزلزلة

قبل أن تقوم الساعة يقع فى الأرض زلزال كبير يدوخ منه سكان القارات أجمعون. والزلازل يتفاوت أثرها بمدتها وشدتها . وقد يستمر الزلزال بضع دقائق فيترك العواصم أنقاضا ، والقرى ترابا . وقد عاينت زلزالا من نصف دقيقة طاش له اللب ،وهام الناس على وجوههم منه . فإذا اقترن الزلزال بثوران البراكين وانطلاق الحمم من باطن الأرض، تضاعف العذاب « إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان مالها » (١) .

ماذا حدث لها ؟ وماذا يراد بنا ؟ « يومئذ تحدث أخبارها .بأن ربك أوحى لها » (٢) . يومئذ يشعر الناس بأن اليوم الموعود قد حلّ ، وأن حساب الناس على ماقدموا قد آن. « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم » (٣) .

إن شعورهم بما كان منهم قويٌّ غالب: « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » (٤) .والحساب بمثقالِ الذرّة فى ذلك اليوم العصيب .

وفى الحديث أن النبىّ عليه الصلاة والسلام سئل عن زكاة الحمير، فقال: ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية الجامعة الفاذّة « فمن يعمل مثقال ذرة خيرايره . ومن يعمل مثقال ذرة شرايره»(٥) .

---

(١) الزلزلة : ١ـ٣. (٢) الزلزلة : ٤ ـ ٥ . (٣) الزلزلة : ٦.

(٤) آل عمران : ٣٠ . (٥) الزلزلة : ٧ـ٨ .

سورة العاديات

الجهاد يحرس العقيدة، ويحمى الحقيقة، ويصون البلاد والحرمات . إن الباطل يمتد فى أى فراغ أمامه، وإذا وجد مقاومة ضعيفة اجتاحها وبلغ غرضه . وقد رأيت الخنا يفرض تقاليده على الشعوب لأنه يستند إلى سلطات قوية، ورأيت الشرف يذوب أمامه ويزول .

وكثيرا ما أتذكر قول الفتية أصحاب الكهف ، بعضهم للبعض الآخر « إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذًا أبدا »[1] .

من أجل ذلك أقسم الله بأدوات الجهاد « والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا . إن الإنسان لربه لكنود »[2] .

عندما تعدو الخيل بفرسانها، وأنفاسها تضطرم فى صدورها ، وسنابكها تقدح الشرر من شدة جريها ،ورجالها يستقبلون الموت هجوما أو دفاعا ،عندئذ يعلم المبطلون فداحة مافعلوا ، ويدفعون ثمنه من دمائهم . .

أحيانا تكون نيران الجهاد كالسوائل المبيدة للحشرات، تحمى الزرع والضرع . وقديما قال حماة الأعراض :

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

والحق فى عصرنا يحتاج إلى خيّالة ورجالة يذودون عنه ، ويستبْقون على الأيام معالمه ! فإن هناك أهل كنود وجماح يسرقون العقائد والفضائل ،ويريدون فرض الزور والظلم على الناس « إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد »[3] .

وما أظن الآخرة جحدت فى عصر كما جحدت فى عصرنا، ولا الدنيا عبدت فى أيام كما عبدت فى أيامنا « أفلا يعلم إذا بعثر مافى القبور . وحصل مافى الصدور. . إن ربهم بهم يومئذ لخبير »[4].

---

(١) الكهف : ٢٠ . (٢) العاديات : ١ ـ ٦. (٣) العاديات : ٦ ـ ٧.
(٤) العاديات : ٩ ـ ١١ .

سورة القارعة

قبيل قيام الساعة ، والناس فى بيوتهم أو أعمالهم، يَنْطلق صوت مرهب ، يفزع له اليقظان ويستيقظ له الهاجع ويشعر الكل بالخطر المحدق : « واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج » [1] .هل هو قرع أجراس أو قرع طبول أو هو الصاخّة التى تخرق الآذان ؟ إنه « القارعة . ما القارعة . وما أدراك ماالقارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش » [2] . إن الجبال فقدت تماسكها ، وتساقطت كقطع الصوف المندوف .

أما الناس فكأسراب الفراش أو الجراد المنتشر ، لايلوى أحد على أحد ، كل امرئ يبحث عن مستقبله ، يريد أن يعرف أين مصيره ؟ إنك صنعت مستقبلك فى الأيام التى خلت . « فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية » [3] . والمراد كفة الخير الملأى بحسناته . أما إذا قلّ خيره وطفح شره «فأمه هاوية » [4] . تعبير جرىء على عادة العرب الذين يجعلون حال الأم دليلا على حال ابنها فى الحزن والسرور ، روِىَ أن أعرابيا سمع الآية « واتخذ الله إبراهيم خليلا »[5] . فقال : لقدقرت عين أم إبراهيم !! والهاوية اسم للمكان المنخفض، والمراد هنا جهنم . . لقوله بعد «وما أدراك ماهيه. نار حامية » [6] .

---

(1) ق : ٤١ ـ ٤٢.
(2) القارعة : ١ ـ ٥ .
(3) القارعة : ٦ ـ ٧.
(4) القارعة : ٩ .
(5) النساء : ١٢٥ .
(6) القارعة : ١٠ ـ ١١ .

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

« ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر » (١) . الخطاب للمشركين عبدة الأصنام، ويجوز أن يشمل كل عاكف على مآربه من عبيد الدنيا . ونحن عند التأمل فى أحوال الناس، نجد من لا تمر الآخرة بباله . قد يسمع بالآخرة سماعا عابرا لايحمله على ادّخار شىء لها، ولا التعزّى عن أحزانه بشىء فيها . وليست القصة الانشغال وراء ضرورات العيش . إنها منافسة مع الآخرين فى جمع الحطام والظفر بأكبر حظ منه، ولا تنتهى هذه المنافسة إلا مع خمود الأنفاس ومداهمة الموت !

وزيارة المقابر . . الحلول بها ، والدفن فيها ! وسميت زيارة لأن القبر ليس المثوى الأخير ، إنه خارج منه بعد حين لاستكمال حسابه « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون» (٢) . فالقبر معبر أو برزخ إلى ماوراءه .

« كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون»(٣) . المعرفة المفاجئة عند معاينة دار الخلود . ثم قال لعبيد الحياة الدنيا « كلا لو تعلمون علم اليقين. لترون الجحيم» (٤) . لو أنكم صدقتم الرسل، لكان لكم سلوك آخر يقيكم عذاب الجحيم. إن المرء يستطيع أن يقى وجهه النار بشقّ تمرة ! ولكنكم لم تفعلوا فلْتلفحكم النار يوم الجزاء « ثم لترونها عين اليقين » (٥) . « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم» (٦) . فى الآخرة يسأل الإنسان عن كل نعمة لم يشكرها بعدما استمتع بها، ويقال للكافرين « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها »(٧) .

ماجدوى الاستمتاع والمكاثرة ؟ استعدوا لعذاب الهون . « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » (٨) .

---

(١) التكاثر : ١ ـ ٢ . (٢) يس : ٥١ ـ ٥٢ . (٣) التكاثر : ٣ ـ ٤ .
(٤) التكاثر : ٥ ـ ٦ . (٥) التكاثر : ٧ . (٦) التكاثر : ٨ .
(٧) الأحقاف : ٢٠ . (٨) غافر : ٧٥ .

سورة العصر

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر »[١] . يقال عاصر فلان فلانا إذا عاش فى زمانه . وللأزمنة معالم متميزة تعرف بها وتضاف إليها ، فيقال مثلا عصر الصحابة ، أو عصر الذرة ، أو عصر الفضاء . والذين يظلهم عصر واحد قد يتشابهون فى معايشهم وتقاليدهم ، ولكنهم يختلفون فى مصايرهم وأجزيتهم حسب سِيَرهم ومناهجهم . ورب رجلين عاشا فى معهد واحد، ذهب أحدهما إلى النعيم والآخر إلى الجحيم لاختلافهما أخلاقا وإيمانا ! والسير مع الغرائز والأهواء ينتهى إلى الخسران ، وقد تكون الكثرة جامحة والقلة واعية ، فما تغنى الكثرة عن مُبطل ومايضير أهل الحق أن عددهم قليل .

وهذه السورة على وجازتها لخصت عواقب النشاط الإنسانى كله ، على امتداد الزمان والمكان . فالمقطوعون عن الله حطب جهنم ، والمتمسكون بالإيمان والصلاح والحق والصبر هم الذين كسبوا معركة الحياة .

وهذه العناصر الأربعة عزيزة نادرة ، وتمر بالبشر عصور تكون فيها هذه العناصر سُبَّة ومصدر تعاسة ، ولكن الله حصر البشرى فى أصحابها « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[٢] .

وقد اتخذ الصحابة سورة العصر شعارا لهم فى ملتقياتهم . جاء فى الحديث . « كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلّم أحدهما على الآخر . وعن الشافعى : لو لم ينزل على الناس إلا هذه السورة لكفتهم !!

إن الحق مرّ والصبر عليه باب للاضطهاد ، والتشبث بالإيمان عند البعض رجعية محفورة ؛ ولابد من عزيمة وجَلَد . . حتى يكسب المؤمنون المعركة .

---

(١) العصر: ١ ـ ٢ .   (٢) العصر : ٣ .

سورة الهمزة

من الحروب التى شنها المجرمون على أصحاب الإيمان حرب السخرية والاستهزاء « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مرّوا بهم يتغامزون»[1] . وقد نظمت هذه الحرب فى العصور الأخيرة وتخصّصت لها صحف !

وعند نزول الوحى ، كان القاعدون الواجدون من أثرياء مكة وغيرهم ، يعقدون المجالس اللاهية ويتناولون المسلمين بالغمز واللمز ، فنزلت هذه السورة « ويل لكل همزة لمزة . الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده »[2] .

والهمز واللمز تناول الغير بالإشارة أو العبارة ، تارة بالكلام ، وتارة بحركة العين والشفتين، وفى بعض الصحف بالرسم الهزلى واختلاق حركات ذات سخف .

وهؤلاء الساخرون أهل بطالة يعيشون فى ظلال أموالهم أو مما تصرفه لهم جهات مريبة .

الويل لهؤلاء فى الدنيا والآخرة . يقول الله فى هذا الساخر: «كلا لينبذن فى الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة. التى تطّلع على الأفئدة »[3] . أى تكوى القلوب « إنها عليهم مؤصدة»[4] . كالعلبة المغلقة على ما بها .

« فى عمد ممدّدة »[5] . قاعدة هذا السجن أعمدة ذاهبة فى الطول ينتشر العذاب فيها كلها .

---

(١) المطففين : ٢٩ ـ ٣٠.   (٢) الهمزة : ١ ـ ٣ .   (٣) الهمزة : ٤ ـ ٧.
(٤) الهمزة : ٨ .   (٥) الهمزة : ٩ .

سورة الفيل

أعد الأحباش جيشا لغزو الكعبة ، وتدميرها و إبطال العبادة حولها ، وخرجوا من ديارهم على نحو ما قال الله « . . بطرا ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله! » (١) . وضموا إلى جيشهم جملة من الفيلة التى تشارك فى المعركة لأول مرة فى الجزيرة العربية .

وشعر أهل مكة بالعجز عن مقاومة هذه الحملة، ففروا إلى رءوس الجبال تاركين بيت الله وبيوتهم لحكم القدر.

كان نصارى الحبشة مخطئين فى توجيه هذه الحملة إلى البيت الحرام ، ماذا عليهم لو تركوه للعرب يقيمون فيه شعائرهم ، كما يقيمون هم شعائرهم فى كنيستهم بصنعاء ؟

لايقبل للأحباش عذر فى هذا المسلك .

على أن هذه الغزوة لقيت مصيرا فاجعا ، فقد هاجمتها أسراب من الطير تقذف الرجال بالحجارة . ويفهم من القرآن الكريم أنها حجارة من النوع الذى قذف به قوم لوط ، فدمّر المدينة وجعل عاليها سافلها .

ويحكى المؤرخون أن هذه الأسراب نشرت وباء الجدرى، فأفنى المهاجمين ، ومات به قائد الحملة « أبرهة » وهو عائد إلى صنعاء بعد هزيمته الماحقة .

وفى ذلك يقول الله تعالى: « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل » (٢) . والأبابيل (الجماعات).

والمحفوظ عند الرواة أن خاتم المرسلين ولد عام الفيل ، كأن الله حمى مكة ببركته . وبقاء قريش فى مكة مكفولة العيش موفورة الأمن . كان تمهيدا إلٰهيا لظهور الإسلام من أم القرى إلى أنحاء العالم . و إلى هذا تشير السورة التالية .

---

(١) الأنفال : ٤٧ . (٢) الفيل : ١ ـ ٤ .

سورة قريش

« لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف »[1] .

إن جزيرة العرب تقع بين أوروبا وآسيا ، وقد اشتغل أهلها بالتجارة بين هاتين القارتين ، وكانوا همزة وصل بين الرومان فى الشام والهنود فى الجنوب . وانتظمت رحلاتهم تنقل السلع بين هؤلاء وأولئك .

وقد امتن الله على العرب ـ فى مكة وحولها ـ بهذا الوضع الذى انتفعوا منه كثيرا : « فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[2] .

وهذه الكلمات تشير إلى استتباب الأمن وانتفاء الخوف ، وهما أساس الحرية السياسية ووفرة الأقوات وسهولة التبادل ، وهما أساس الحرية الاقتصادية .

ونستطيع القول بأن العربى فى أرجاء الجزيرة كان أقوى شخصية وأوسع استقلالا من غيره . وهذا مارشح العرب لحمل رسالة الإسلام والتطواف بها فى المشارق والمغارب .

ومن العلماء من يرى سورة الإيلاف امتدادا لسورة الفيل ، ويجعلهما سورة واحدة . .

---

(١) قريش : ١ ـ ٢ . (٢) قريش : ٣ ـ ٤ .

سورة الماعون

أهل الدين يتعرّفون على حاجات الآخرين ويسارعون فى قضائها . فالدين مع الضعيف حتى يقوى ، ومع الفقير حتى يستغنى ، ومع اليتيم حتى يكبر ، ومع الهائم حتى يستقرّ .

وقد فرط بعض المنتمين إلى الدين فى هذه الواجبات فتولّدت فلسفات تكفر بالله واليوم الآخر. كانت الشيوعية آخرها ، استطاعت أن تحكم نصف العالم أو تؤثر فى النصف الباقى .

ولو أن أهل الدين لاسيما المسلمون ارتبطوا بدينهم وساروا به سيرة حسنة ، ماظهر هذا الإلحاد .

إن الإيمان أخو العطاء والعدالة ، والشرك أخو الأثرة والقسوة . وتدبر قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدعُّ اليتيم . ولايحض على طعام المسكين»[1] .

وسورة الماعون ،على وجازتها ، ترفض العبادة الصورية ، وترى أن إعانة محتاج شرط فى الإيمان كإقامة الصلاة وأدائها بخشوع ، وتهدد بالويل مانع الماعون عن محتاج إليه . . . !!

(١) الماعون : ١ ـ ٣ .

سورة الكوثر

عندما أتلو سورة الكوثر التى لاتزيد عن سطر واحد أشعر كأنها تهنئة سريعة ببشرى حسنة .

المعروف أن أبناء النبىّ ﷺ ماتوا، ولم يبق له إلا الإناث .

وفى الجاهلية تُعد هذه الحال نكبة ، لأن الرجل فقد من ينتسب إليه ويطيل ذكره ، وقد يسميه السفهاء الأبتر ! !

وقد نزلت هذه السورة تؤكد أن الله أوسع العطاء لنبيه . فمن مثله فى الناس ؟ أنزل على قلبه القرآن ، واصطفاه رسولا للعالمين، وألهج أهل الأرض والسماء بذكره والثناء عليه . وما أحسب ساعة تمرّ من الزمان إلا وصلاة تنبعث من ملك أو بشر تضاعف أجره وترفع ذكره .

إن محمدًا أسعد مخلوقات الله بفضل الله وإكرامه . إنه سيد ولد آدم، وإمام الأولين والآخرين .

« إنا أعطيناك الكوثر » ـ الخير الكثير ـ «فصل لربك وانحر »[1] .

التحقيق أن المقصود صلاة العيد. تذبح الأضاحى بعد الصلاة ، وتقسم على الفقراء . والتضحية كما تكون بالغنم تكون بالبُدْن .

ثم يقول الله لنبيه : « إن شانئك هو الأبتر »[2] . إن كارهك هو المقطوع الذكر الممحوّ الأثر. أما أنت ، فإن الملائكة الحافّين بالعرش يسبحون بحمد ربهم ، يشاركونك وأنت تهتف بأمجاد الله وتثنى على آلائه . إن الله يلهمك محامدماينطق بها غيرك ،لفرط حفاوته بعبوديتك له وجهادك فى سبيله .

---

(١) الكوثر : ١ ـ ٢ .   (٢) الكوثر : ٣ .

سورة الكافرون

« قل يأيها الكافرون . لاأعبد ماتعبدون . ولا أنتم عابدون ماأعبد »[1] . هذا المعنى المقرر هنا يشبه ماتقرر فى سورة أخرى « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ومابعضهم بتابع قبلة بعض»[2] .

إن توحيد العقائد والمذاهب مستحيل . ومن الخير الاعتراف بتعدد المشارب والنزعات ، ومواجهة ذلك بالحكمة والوعى .

وقد حكى القرآن الكريم زبدة تاريخ البشر فى سورة هود ، والصراع الشديد بين المؤمنين والكفار على امتداد العصور .

ثم قال للنبى الكريم .

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين »[3] .

«إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم . . . »[4].

إننا نحن المسلمين لانسعى إلى محو الأديان المخالفة ، وقد أجمع المحققون على أن الإسلام مايقاتل إلا منعا للفتنة وردا للعدوان . وكل قتال للإكراه على عقيدة ، فهو من نزغ الشياطين ، وجبروت السلاطين ، ولانتيجة له إلا مزيد من الأحقاد . ولذلك تكرر فى هذه السورة بعد ذلك «ولا أنا عبد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين»[5] . إن هذه السورة من أحكم ماتؤسس عليه العلاقات الدولية . فلنعترف بتعدد الأديان ، ولندع للجدال الحسن والحوار الهادئ أن يمتدّ وتعقد مجالسه .

ولكننى مضطر هنا لإنكار ماتكنه بعض السلطات العالمية من ضيق بالإسلام وضنٍّ عليه بحق الحياة .

ولابد من المصارحة بأن الدم لن يجفّ حتى تختفى هذه الرغبة الشريرة ، ويسترد الإسلام قدرته على إثبات نفسه وحماية شرائعه وضمان تطبيقها على أتباعه .

فهل يعقل ذلك الاستعماريون ؟

---

(1) الكافرون : ١ـ٣. (2) البقرة : ١٤٥ . (3) هود : ١١٨ .
(4) هود : ١١٩. (5) الكافرون : ٤ـ٦ .

سُورَةُ النَّصْرِ

« إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا »[1] .

هذهَ السورة نزلت فى أواخر عمر النبىّ عليه الصلاة والسلام . وقد فُهم منها ـ كما فهم حذّاق الصحابة منها ، أنها تنعى إليه نفسه ، وتشعره بقرب الرحيل عن هذه الدنيا ، فليستعد لذلك بطول التسبيح والاستغفار . .

والنصر الذى جاء وقع بعد تساقط الأصنام وذهاب دولتها ، وامتلاء الآفاق بالمؤذنين يعلنون ليلا ونهارا ، أن الله واحد ، وأن الحجارة المعبودة قد تصلح لرصف الطرق أو بناء الدور . .

لقد أدى محمد رسالته فى إعلاء كلمة الله ومحو الخرافات السائدة ، وبقى أن يعود إلى ربّه ليجزيه خيرا عن جهاده الطويل . إنه تعب كما لم يتعب أحد . انتصب تهجدا حتى تورمت قدماه وهو من استغراقه فى المناجاة لا يدرى ! ولبس لأْمة الحرب حتى أجهدتْه الجراحات . وأحرجه هوانه على الناس ، ثم صاح : إن لم يك بك على غضب فلا أبالى ! !

قد تقول : وماذا لو طال عمره حتى يستمتع بالنصر الذى أحرز ؟

أقول : إنما يتمتع بالنصر طالب عُلُوٍّ فى الدنيا . إنه فى أواخر عمره طلب طعاما لبيته من تاجر يهودىّ ، فأبى اليهودى إلا أن يعطيه برهن . وكان النبىّ يومئذ فى قمة السلطة ؛ انكسرت جميع القوى أمام جيشه ، وانحسر المدُّ الرومانى وراء حدود الجزيرة ، واستسلمت كل المستوطنات اليهودية . ولو أن الرسول كلف أحد الأغنياء من أتباعه أن يدفع ثمن القوت المطلوب ، لعدَّ ذلك شرف الدنيا والآخرة .

لكن الرسول لم يفعل ، وقال لليهودى : أنا أمين فى الأرض والسماء ، وخذ الرهن الذى تطلب . وأعطاه درعه ! ومات النبىّ والدرع مرهونة عند اليهودىّ فى قوت بيته .

ماذا نال محمد من دنيا الناس ؟

ثم يجىء الوحى يعرض عليه البقاء هنا أو لقاء الله ! فيقول : بل الرفيق الأعلى !

إن محمدا لقى ربه ونعم بجواره ، وهو الآن مع المرسلين الأولين والملائكة المقرّبين « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر »[2] .

---

(١) النصر : ١ ـ ٢ .

(١) القمر : ٥٥ .

سورة المسد

« تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وماكسب»[1]. هذا دعاء بالهلاك على أبى لهب، استجابه الله ، فلم تغن عنه ثروته الطائلة ولاجاهه الواسع .

وأبو لهب عم رسول الله ! ولكنه كان أجرأ الناس عليه ، وأسرعهم إلى تكذيبه . قال الرواة : صعد النبى على الصفا ، ونادى : يابنى فهر، يابنى عدىّ ـ لبطون قريش كلها ـ حتى اجتمعوا . ومن عجز عن المجىء بعث مكانه من يأتيه بالخبر ! وجاء أبو لهب وقريش، فقال النبى: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدقىَّ ؟

قالوا : نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقا ! قال : فإنى لكم نذير بين يدى عذاب شديد ـ وذكر أن الله أرسله ـ

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت السورة . .

قيل : إنه أخذ يقذفه بالحجارة حتى أدمى عقبيه ، وسواء صح ذلك أم لم يصح، فإن أبا لهب دون سائر الأعمام انفرد بالخصومة العنيفة ولزمها إلى أن مات !

وامتدت الخصومة إلى أولاده ، فطلقوا زوجاتهم من بنات محمد !!

وامتدت إلى زوجته، وكانت امرأة سليطة شريرة لدود العداوة، فبسطت لسانها فى محمد ، وتنقلت بين البيوت تهجوه .

وزوجة أبى لهب أخت أبى سفيان سيد مكة وصاحب لوائها فى الحروب . .

وقد نزلت « تبت يدا أبى لهب وتب» [2] . فى الأيام الأولى للإسلام. وكان الرجل يستطيع تكذيبها بالدخول فى الإسلام بعد ذلك ، ولكنه بقى إلى أن مات عدوا للدين ومعتنقيه ، فصدقت فيه. «سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » [3] . والمرأة من بيت سيادة، فيبعد أن تشغل نفسها بحمل الحطب ! والمقصود أنها تنقل مايثير الوقيعة ويحرك الخصومات . وكذلك يفعل النمامون ومثيرو الفتن . .

---

(١) المسد : ١ـ٢ . (٢) المسد : ١ . (٣) المسد : ٣ـ٥ .

ويظهر أن أبا لهب حتى موته لم يكن يرى فى رسول الله إلا أنه اليتيم الضعيف الذى كفله أبوطالب أخوه ، فما لمح فيه ميراثا سماويا ولاسيرة ربانية، ولا تدبر مايقرأ من آيات الله فتستنير بصيرته . لقد عاش أبو لهب أعمى ومات أعمى . .

سورة الإخلاص

رب العالمين واحد ، لاثانى له ولا ثالث ، لاصاحبة له ولا ولد . والصفات التى أسندها لذاته العليا ، تجعل ماعداه صفرا ، وتجعل القول به عبثا « وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون» [١] « . . . ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد» [٢] .

والتوحيد روح الإسلام ولباب القرآن . وما نسبه الله إلى نفسه من صفات يجعل ماعداه عبدا عاجزا لايملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا ، فأين هو ؟ ولماذا لم يقبل التحدى ؟

وننبه هنا إلى ماسقناه من قبل من أدلة عقلية على التوحيد « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون» [٣] .

وفى موضع آخر يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لايسأل عما يفعل وهم يسألون» [٤] .

والقائلون بالتثليث يرون أن الآلهة ثلاثة ، وإن كانوا فى الحقيقة إلها واحدا ؛ فهم أب وابن وروح قدس ، ولايتصور بينهم خلاف !

فما يقولون فى قضية الصلب ؟

إذا كان الثلاثة واحدا ، فإن المصلوب هم الجميع ، وفقد العالم ربّه حينا من الدهر . وإن كان المصلو الابن وحده ، فليس بإله يقينا !

ولمن شاء أن يعتنق ماشاء . مانحجر على إيمان أحد ، ولكننا فقط ننصف كتابنا وعقيدتنا ، فنحن نتلقى التهم من كل جهة . . !!

وسورة الإخلاص سطر واحد : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد» [٥] . وهى تعدل ثلث القرآن لأنها لخصت أصل الاعتقاد عندنا .

---

(١) النحل : ٥١ . (٢) النساء : ١٧١ . (٣) المؤمنون : ٩١ ـ ٩٢ .
(١) الأنبياء : ٢٢ـ٢٣ . (٢) الإخلاص : ١ ـ ٤ .

فالله ليس كمثله شيء . ولم يكن له أحد كفءً ويستحيل أن يكون أبا أو ابنا . وهو الصمد أى السيد الذى يقصده كل من فى السموات والأرض . ماذا يملك غيره ؟

إن النظام العالمى السارى فى الملكوت لايتحمل تعدد الآلهة . ومن السخف أن تحسب للشمس إلّها ، وللأرض إلّها ، أو أن للحيوان إلّها وللنبات إلها ، أو أن لإفريقية إلها ولأوروبا إلّها . إن النظام الكونى واحد تضبطه إرادة واحدة وتصوغه قدرة واحدة . والذى يشرف على إفرازات الهضم فى أمعاء الأحياء هو الذى يشرف على مسارات الأفلاك فى أقاصى الآفاق . وفالق الحبّ والنوى فى الحقول والحدائق هو فالق الإصباح فى عالمنا ، وفالق الشروق والغروب فى المجرات التى لانراها !

إننا بعد إعمال الفكر وإدمان النظر ، لانملك إلا نقول : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شيء قدير » .

سورة الفلق

أعوذ بالله أى أحتمى به وأتحصن. والله عز وجل يجيب من سأله ويُعيذ من استعاذ به . وقد نزلت السورتان الأخيرتان من المصحف الشريف تعلمنا كيف نتحصَّن بالله من شرور كثيرة ، فإن الحياة حافلة بما يسوء . قال تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة »[١] « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون»[٢] . وسورتا « قل أعوذ برب الفلق »[٣] . و « قل أعوذ برب الناس»[٤] . حصانات قوية لمن أراد اللياذ بالله والظفر بحمايته . .

والفلق الصبح أو الضوء الذى يشقّ الظلام . ومصادر الشر كثيرة من جراثيم وزواحف وسباع وبشر !

«والغاسق إذا وقب» الليل إذا دخل واشتدت ظلمته . ولايزال الليل مسرحا للصوص والعهار ومغتالى الحقوق والحريات .

«والنفاثات فى العقد» قيل النساء السواحر ! وللسحر حقيقة عند بعض العلماء ، ولشياطين الإنس والجن شغل به ، والاستعاذة تبطله .

ويرى ابن حزم وعلماء الظاهر أن السحر لاحقيقة له ،وإنما هو خداع وتخييل . وللعامة أوهام كثيرة فى هذا الميدان ينبغى الحذر منها .

ومما يستعاذ بالله منه الحسد ، وهو رذيلة تقوم على تمنى زوال النعم ، وكره أصحابها والكيد لهم. والحسد من أشيع الجرائم بين الناس .

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالكلّ أعداء له وخصوم !

وقد يطلق الحسد على العين ! وهى نظرة مسمومة نحو مايكون من خير ، ينسج الناس حولها حقائق وأباطيل. والاستعاذة على كل حال تعصم من الواقع والمتوقع ، وتقى المؤمن شرور الآخرين.

---

(١) الأنبياء : ٣٥ .   (٢) الأعراف : ١٦٨ .   (٣) الفلق : ١ .
(٤) الناس : ١ .

سُورَةُ النَّاسِ

« قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس » [1] . الاستعاذة فى هذه السورة من شياطين الإنس والجن ، ومايلقونه فى الصدور من وساوس . ونحن لاندرى كيف يتصرف الجن ، ولكننا نشعر بما يطلبون منا وبرغبتنا فيه ، ولذلك نلجأ إلى الربّ الملك الإلّه كى يحفظنا . فتكرير صفات الله اعتراف بالفاقة ولجأ إلى القدير !

« من شر الوسواس الخناس » [2] . الخناس الذى يختفى ليؤذى وينتهز الفرصة للوثوب . والموسوس خبيث ماكر فينبغى الحذر منه .

ويقول الله فى موضع آخر: « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . . » [3] .

ويبدو أن شهوة الإنسىّ هى لذته فى الفعل ، وشهوة الجنىّ هى رغبته فى الإغواء كما ورث عن إبليس . وهكذا يستمتع بعضهم ببعض .

على أن الشياطين محرومة من كل سلطة تنفيذية . إنها لاتملك إلا الإغواء والمخادعة ، فمن استجاب لها لاعذر له لاسيما بعد تحذيره وتنبيهه . .

وهذه السورة تتحدث عن خطر الهواجس النفسية ، وعن ضرورة النجاة منها . والمؤمن الذاكر لربه المثابر على حقه ، يعيش داخل سور يحميه من النفس وهواجسها والشيطان ووساوسه .

---

(١) الناس : ١ ـ ٣ .   (٢) الناس : ٤ .   (٣) الأنعام : ١١٢ .

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم ايداع ١١٥٥٢/ ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0258 - 6

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



□ هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم ، سبق أن قدمت نماذج لها فى بعض ماكتبت .

□ والهدف الذى سعيت إليه منها أن أقدم تفسيرا موضوعيا لكل سورة من الكتاب العزيز .

□ والتفسير الموضوعى غير التفسير الموضعى :

الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام .

أما الأول فهو يتناول السورة كلها ، يحاول رسم « صورة شمسية » لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها ، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها ، وآخرها تمهيدا لأولها .

ولقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السورة ، وإن كثرت قضاياها .

□ وقد شعرت ـ على ضوء ما أحسست من نفسى ـ أن المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير .

□ وانبه إلى أن هذا التفسير الموضوعى لايغنى أبدا عن التفسير الموضعى بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة .

□ وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعى لم أتعرض له ، وهو تتبع المعنى الواحد فى طول ال

وحشده فى سياق قريب ، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس .

وقد قدمت نماذج لهذا التفسير فى كتابىَّ « المحاور الخمسة للقرآن الكريم » و «نظرات

ولاريب أن الدراسات القرآنية تحتاج إلى هذا النسق الآخر ، بل يرى البعض أن المستقبل

والله المستعان ، ،

محمد الغزالي